

إِعْجَازُ الْقُرْآنِ
لِلْقَاضِي الْبَاقِلَانِي

إِعْجَازُ الْقُرْآنِ

للقاضي أبي بكر الباقلاني

دراسة وتحقيق وتعليق

الأستاذ الدكتور / محمود محمد زرععة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى



مكتبة كنوز المعرفة

ص. ب. ٣٠٧٤٦، جدة ٢١٤٨٧

هاتف ٦٥٧٠٧٧٢ ٦٥١٤٢٢٢ فاكس ٦٥١٦٥٩٢

اسم الكتاب : إعجاز القرآن
اسم المؤلف : القاضي أبي بكر الباقلاني
دراسة وتحقيق وتعليق : الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة

الطبعة الأولى
1427 هـ - 2006 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة كنوز المعرفة
المملكة العربية السعودية
هاتف : 6510421 - 6514222
فاكس : 6516593
ص.ب (30746) جدة (21487)



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المرسل رحمة للعالمين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

● أما بعد:

فإن أشرف الكتب وأعلاها، وأجلها وأسمأها، وأرفعها وأرقاها، وأقدسها كلامًا، وأصدقها حديثًا، إنما هو كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهذا الشرف والسمو، وتلك المكانة والمنزلة، هي بمثابة ضياء ساطع، يلقي بنوره على كل ما جاوره واقترب منه، ويجود بشرفه على كل ما قاربه واحتمى به، ويمنح قبسًا من جلاله، ومسحةً من جماله، لكل ما استظل بظله، أو لآذ يرحابه.

وليس من شك في أن أكثر العلوم مجاورة للقرآن العظيم واقترابًا منه، واستظلالًا بظله واحتماءً به، إنما هي العلوم التي تسمى «علوم القرآن»، والتي يأتي في المرتبة الأولى منها البحث في أوجه إعجاز القرآن المجيد، وأسرار ذلك الإعجاز وآياته، وما يتصل بكل ذلك من قواعد وأحكام.

فالبحث في إعجاز القرآن العظيم إنما هو - بجانب كونه علمًا من علوم القرآن الكريم، وقبسًا من نوره - عبادة لله - تعالى - وقربة إليه، وخدمة لكتابه وقربًا منه، ومنة عظيمة، ونعمة جليلة من الله - سبحانه - على كل من يسر له السبيل للاشتغال بهذا العلم الجليل.

لذلك، حينما عرض علي أن أحقق كتاب «إعجاز القرآن» للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، وجدتها فرصة سانحة، وهبة مانحة، ومنة من الله - تعالى - عظيمة، ونعمة من الله ﷻ جليلة.

فأقبلت على ذلك - مع قلة البضاعة، وضعف الصناعة، متوكلاً على الله
وَعَلَى، ومعتمداً على مدده وفضله، ومستمداً منه وَعَلَى الهداية والتوفيق.
داعياً الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن
يكون ثقلًا في كتاب المحقق والكاتب والقارئ يوم الدين.
وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

د. محمود محمد مزروعة

٢٣ من رمضان ١٤١٧ هـ

* * *

تعريف بالباقلاني وإعجاز القرآن

● اسمه وكنيته:

هو القاضي: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني. ويكنى: أبا بكر.

* * *

● مولده:

لم تذكر التراجم تاريخًا محددًا موثوقًا به لميلاد القاضي أبي بكر. ومن ثم كانت الآراء حول تاريخ ولادته مجرد اجتهادات واستنباطات لا تخلو من جنوح. والأكثر على أنه ولد حول النصف الثاني من القرن الرابع الهجري: أي حول خمسين وثلاثمائة. والذي نراه أنه - رحمه الله - تَعَالَى - ولد قبل ذلك بسنوات، أي في أواخر النصف الأول للقرن الرابع الهجري. والذي يحملنا على هذا الظن: أن المؤرخين مجمعون على أن السلطان عضد الدولة قد بعث بالقاضي أبي بكر في سفارة إلى ملك الروم، وأن القاضي أبلى في هذه السفارة بلاءً طيبًا، واستولى على إعجاب ملك الروم وتقديره. وإذا كان السلطان قد اختار القاضي لتلك السفارة، فلا بد أن يكون القاضي في سنٍّ وعلمٍ ومنزلة بين علماء عصره - وهم يومئذ كثير - تؤهله للفوز بها من دونهم. والغالب أن تكون سنه حول الثلاثين، وقد تزيد عليها، وإن نقصت عنها فلا تنقص كثيرًا. فهذه هي السن المعقولة التي تؤهله لسفارة كهذه دون علماء بغداد المعاصرين له. إذا كان ذلك كذلك؛ ثم عرفنا أن عضد الدولة قد توفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، وأن هذه السفارة قد تكون قبل وفاة عضد الدولة بسنة أو سنوات، فإننا بالنظر إلى هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن القاضي أبا بكر الباقلااني قد ولد قبل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بعشر سنوات. قد تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا..

وكما لم تبين التراجم تاريخ مولده. فقد أغفلت - أيضًا - محل مولده، والذي نعرفه من ذلك أنه نسب إلى البصرة، وسكن بغداد وأقام بها، وتلمذ على مشايخها في العلوم المختلفة.

* * *

● وفاته:

بعد حياة حافلة مباركة مثمرة تُوفي القاضي أبو بكر الباقلاني ببغداد مساء السبت لثمان بقين من ذي القعدة، ودفن يوم الأحد لسبع بقين منه من سنة ثلاث وأربعمائة من الهجرة. وسنه - في تقديرنا - حول الثالثة والستين. وصلّى عليه ابنه الحسن، ودفن بداره بدرج الجوس، ثم نقل بعد ذلك حيث دفن بمقبرة باب حرب. وقد رثاه بعض محبيه وعارفي فضله من شعراء عصره، فقال يصفه محمولاً ومقبوراً:

أَنْظُرْ إِلَى جَبَلِ تَمَشِي الرِّجَالِ بِهِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْقَبْرِ مَا يَحْوِي مِنَ الصَّلْفِ
وَأَنْظُرْ إِلَى صَارِمِ الْإِسْلَامِ مُفْتَمِدًا وَأَنْظُرْ إِلَى ذُرَّةِ الْإِسْلَامِ فِي الصَّدْفِ

* * *

● مذهبه:

كان القاضي أبو بكر الباقلاني - رحمه الله - يتنسب في عقيدته إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، وقد كان القاضي بارعاً في علم الكلام، مجادلاً عن مذهبه الأشعري، انتهت إليه الرئاسة في عصره، وقد قضى حياته يؤلف التصانيف الكثيرة في علم الكلام مدافعاً عن مذهبه، راداً على خصومه من الجهمية والرافضة والمعتزلة والخوارج وغيرهم.

وقد أغرى القاضي بالاشتغال بعلم الكلام كثرة الطوائف الملحدة والمبتدعة في العراق في عصره، وتساهل الحكام مع هذه الطوائف، وذبوع المجادلات

المذهبية، وشيوع المحاورات الفلسفية التي خرجت بالناس عن اليقين وفتحت عليهم أبواباً من الشك والحيرة، مما دفع القاضي إلى الخوض في هذه المجادلات مدافعاً عما يُعتقد أنه الحق..

ولشيوع الفلسفة وأساليبها في ذلك الوقت نجد القاضي جنح في اشتغاله بعلم الكلام بطرق غير شرعية، لم تكن معروفة لدى الأوائل - رضوان الله عليهم - مثل قضايا الجواهر والأعراض، وإثبات الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، والخلاء وما يتعلق به من أحكام عندهم، والعرض وكيف أنه لا يبقى زمانين، ولا ينتقل من محل إلى آخر، كما نفى الجهة والعلو، وأوّل صفات الباري - سبحانه وتعالى - إلى آخر هذه القضايا المشهورة عن متأخري الأشاعرة، بل إن القاضي زاد على ما لدى الأشاعرة فقال بمقالة أبي هاشم المعتزلي الذي يثبت الأحوال التي هي عندهم: صفات لا هي موجودة ولا هي معدومة، ولا مجهولة ولا معلومة.. ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لقلنا: قوم اقتنعوا بأمر لا علم لنا بها ولا حاجة لشرع الله - تعالى - إليها، وهم أحرار في نفوسهم وما يرون. ولله في خلقه شؤون. ولكن المصيبة الحقيقية من وراء هذه المعتقدات أن القوم - ومنهم القاضي أبو بكر الباقلاني - قد جعلوا هذه القضايا الفلسفية الكلامية واجبة الاعتقاد، وألحقوها بالعقيدة الإيمانية الإسلامية في وجوب اعتقاد كل، فأضحى المسلم - في زعمهم - مطالباً بالإيمان بالجواهر الفرد وأحكامه، والعرض والخلاء والملاء وأحكام كل، مثل ما هو مطالب بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وحجتهم في ذلك؛ زعمهم أن إثبات العقائد الدينية متوقف على هذه القضايا الفلسفية، فهي دليلها وبرهانها. وإذا لم نعرفها وثبتتها عجزنا عن معرفة عقائدنا وإثباتها؛ لأن بطلان الدليل أو ضعفه يؤدي إلى بطلان المدلول أو الشك فيه، ومن ثم فقد اشتهر عندهم امتحان الناس وسؤالهم عن هذه القضايا عند إرادة معرفة: إن كانوا مسلمين أم لا؟

وبذلك ضيق القاضي وحزبه على الناس، وحملوهم العنت والمشقة، وفتحوا

عليهم أبواباً من أمور ما جاء بها الشرع، ولا أنزل الله بها من سلطان، جنحت بالكثيرين إلى الحيرة إن لم يكن الشك، ظناً منهم أن العقيدة الإسلامية لا تثبت إلا بمثل هذه القواعد الكلامية، والتي هي غير ثابتة في ذاتها، فكيف يقوم عليها ثبات غيرها؟

ولعل الذي دفع القاضي أبي بكر إلى ذلك الاتجاه والإغراق فيه، أنه كان علم الأشاعرة في عصره، وأن الرئاسة في المذهب قد انتهت إليه، وشعوره بوجوب نصرة المذهب، ومن ثم فقد اشتغل بتلك القضايا التي بدأت قبله. ثم وصل الاشتغال بها إلى ذروته في عصره على يده وأيدي من كانوا معه من أقطاب المذهب الأشعري، وإن كانت تلك القضايا الفلسفية اتخذت منحى أكثر خطورة وأدخل في باب الابتداع وتنكب طريق السلف على أيدي دعاة الاعتزال وعلماء المعتزلة.

وإذا كان الإنصاف يقتضي ألا نجحد فضل إنسان لخطأ يرتكبه، وإذا كان العدل يوجب أن نذكر محاسن الأشخاص كما نذكر مساوئهم؛ فإن للقاضي أبي بكر في مجال الدفاع عن عقيدة الإسلام فضلاً لا يُنسى، وله محاسن لا تحجد.

فنحن لا ننسى للرجل جهوده الموفقة الناجحة في دحضه شبه الفرق المبتدعة الضالة، ولا ننسى معاركه القوية الناجحة ضد الطوائف الملحدة المارقة، فإن الرجل لم يأل جهداً، ولا ترك وسيلة إلا سلكها لرد مطاعن هؤلاء على الإسلام، ودحض شبههم، وكشف افتراءاتهم ضد الدين. وقد سلك إلى كل ذلك الوسائل المتاحة في عصره، سلك طريق الكتابة والتصنيف، فألف الكتب العديدة في الرد على الجهمية والرافضة والملحدة والخوارج. من ذلك كتابه: «التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج» وهو كتاب مطبوع منشور، وهذا للمثال وليس للحصر، فإن له غير ذلك كثيراً من المصنفات في هذا الباب، كما سلك سبيل المجادلات والمناظرات، وقد كانت له مناظرات ومحاورات

شهيره موفقة ضد هذه الفرق.. وسنشير إلى شيء من ذلك بحول الله - تعالى .
عند كلامنا عن مناقبه.

وقد كان القاضي أبو بكر جمع النشاط، وزع نشاطه إلى قسمين رئيسين:
ما يزاوله في نهاره من نشاط في التدريس والمناظرات وشئون الحياة الكثيرة،
فإذا جاء الليل بدأ القسم الثاني من نشاطه. أقصد الكتابة والتصنيف، فقد ذكر
الذين أرخوا لحياته أنه إذا قضى راحته من أول الليل، قام إلى «ورده» اليومي من
الأذكار، فإذا انتهى من ورده وضع الدواة بين يديه ثم كتب خمسا وثلاثين ورقة
في المتوسط، وكان يكتب من حفظه وذاكرته ولا يرجع إلى مصنفات الآخرين.
وأنهم جمعوا كتبه ومصنفاته وقسموها على أيام حياته فكان نصيب كل يوم
عشر صفحات.. وقد يكون في ذلك شيء من المبالغة، لكن المبالغة تكشف في
كثير من الأحيان ما لا تكشفه الحقيقة الجامدة إذا اقتصر عليها.

* * *

● مؤلفاته:

مر بنا أن الشيخ أبا بكر الباقلاني كان يكتب في كل ليلة حول خمسين
وثلاثين ورقة من حفظه، وأنه قد جمعت كتاباته وقسمت على أيام حياته فخصَّ
كل يوم بعشر صفحات. وقيل: إن مجموع ما كتب وصل إلى سبعين ألف ورقة.
وليس غريباً أن ينسب إلى القاضي بذكائه وعلمه، وسعة حفظه وقوة ذاكرته ودقة
فهمه وعمق فقهه لقضايا الإسلام في عصره، ليس غريباً أن ينسب إليه هذا الكم
الكبير من الكتابات، وإذا ما أضيف إليها شرف الموضوعات التي كتب فيها،
وأهمية القضايا التي تناولها، وأنها في جملتها كانت تتناول أمرين هامين، وتدور
في فلك هدفين جليلين:

الأول: توضيح العقيدة الإسلامية، وشرحها. وبيان قضاياها، وإقامة الأدلة

على حقيقتها وثبوتها.. وهذا الجانب إن خالفه التوفيق فيه بسبب عقيدته الكلامية، وإغراقه في المصطلحات الفلسفية، فإن شرف الهدف، ونبل الغاية، يقلبان المخالفة إلى مخالفة، ويخففان من الملامة والمؤاخذه، وبخاصة إذا عرفنا ظروف العصر والبيئة التي كان القاضي يعيش فيها، وكيف أنها كانت بيئة فلسفة وكلام، وأن تلك الوسائل التي استعملها القاضي كانت هي الناجمة الناجحة مع طوائف الملاحدة والزنادقة والمبتدعة التي كانت تغص بها الساحة وقتذاك.

أما الهدف الثاني: فكان الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وعن دين الله - تعالى - ضد الطوائف الضالة الملحدة. والزائغة المبتدعة. ولئن كانت المبادئ التي أقام عليها القاضي إثبات العقيدة الإسلامية لا ترضينا - من مثل الجوهر الفرد، والعرض، والخلاء والملاء وغير ذلك - فلقد كان هناك من المبادئ التي أغرقت فيها الطوائف الأخرى من الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة إضافة إلى الملاحدة والزنادقة، ما تعد المبادئ التي قال بها القاضي بالنسبة إليها نقية صافية لا غبار عليها.

ولقد قضى القاضي أبو بكر حياته يخدم هذين الهدفين: تقرير العقيدة، ثم الدفاع عنها، وذلك من خلال مناظراته التي سوف نشير إلى طرف منها، ثم مؤلفاته التي نذكر ما وصلتنا أخباره إما عن طريق إشارات إليها في كتاب «إعجاز القرآن» هذا الذي بين أيدينا، وإما عن طريق ذكره والإشارة إليه في نطاق ذلك من المراجع التي تهتم بالتأريخ لهذه الحقبة وأعلامها، من أمثال: أبي المظفر الإسفراييني في كتابه «التبصير»، وغير ذلك..

● **ومن أهم مؤلفاته ما يلي:**

١ - كتاب: «الأصول الكبير» ذكره في «هداية المسترشدين»، وأشار إليه القاضي في كتابه هذا «إعجاز القرآن».

- ٢ - كتاب: «الإمامة الكبير» أو «مناقب الأئمة» تكلم فيه عن الإمامة والخلافة، وقد عرض فيه لما جرى بين الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين.
- ٣ - كتاب: «كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد» وهو - كما يتضح من عنوانه - في مناظرة الفرق الأخرى وتفنيدها شبهاتها والرد على مفترياتها.
- ٤ - كتاب: «كشف الأستار في الرد على الباطنية» وقد أشار إليه ابن كثير في «البداية والنهاية» تحت عنوان: «كشف الأسرار وهتك الأستار».
- ٥ - كتاب: «إكفار المتأولين».
- ٦ - كتاب: «الملل والنحل».
- ٧ - كتاب: «هداية المسترشدين».
- ٨ - كتاب: «الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين».
- ٩ - كتاب: «نقض النقص» ذكره الإسفراييني في كتابه «التبصير».
- ١٠ - كتاب: «الانتصار لصحة نقل القرآن والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان».
- ١١ - كتاب: «دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام». ذكره في «هداية المسترشدين».
- ١٢ - كتاب: «الكسب» ذكره صاحب «التبصير». وهو شرح ودفاع عن قضية الكسب التي وضعها أبو الحسن الأشعري، ثم تحير الناس فيها فلم يفهمها حتى أتباعه مما أوقع الخلاف بينهم في المراد بها، حتى ضرب بها المثل في الخفاء فقيل: أخفى من «كسب» الأشعري. والكتاب المذكور هو في هذه القضية كما هو واضح من اسمه.
- ١٣ - كتاب: «النقض الكبير». وهو غير كتاب «نقض النقص» الذي تقدم ذكره.
- و«النقض الكبير» وضعه القاضي أبو بكر في قضية (كلام الله - سبحانه -).

والتي كانت في ذروتها بين المعتزلة ودعاة الحق من أهل الحديث وغيرهم ممن تابعهم. والمعروف أن الباقلاني وكثيرين غيره زعموا أن الألفاظ مخلوقة، وسفهاها مَنْ قال: أن كلام الله - تَعَالَى - قديم، وأن القرآن كلام الله - سُبْحَانَهُ - قديم، وأن القرآن ليس معاني مجردة من ألفاظها، بل هو بمعانيه وألفاظه قديم. لأننا لم نعرف معنى يكون بلا لفظ، فالقرآن المجيد قديم بلفظه ومعناه، ولم يعرف كلام عن حدوث الألفاظ والكلمات من القرآن المجيد إلا بعد (ابن كُلاب) الذي اخترع ما يسمى بـ(الكلام النفسي).. ولكن الباقلاني الأشعري ينتصر لرأي ابن كُلاب ويزعم أن الألفاظ والكلمات مخلوقة حادثة، بل ويرمي مَنْ قال بغير ذلك بالسفه والحمق وخروجه عن حد المعقول، ودخوله في إطار البلهاء والحمقى.. نقل عنه إمام الحرمين أنه يقول في كتابه: «**النقض الكبير**»: «مَنْ زعم أن السين من ﴿يَسِرُّهُ اللَّهُ﴾ بعد الباء، وأن الميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول لها - أي قديمة غير مخلوقة، كما هي عقيدة السلف وأهل الحديث - فقد خرج عن المعقول، وجحد الضرورة وأنكر البديهة، فإن اعترف بوقوع شيء فقد اعترف بأوليته، فإن ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته ولحق بالسقطة، وكيف يرجي أن يرشد بالدليل مَنْ يتوابع في جحد الضروري».. يقول: هذا يقصد به السلف من أئمة الحديث وأئمة الفقه من أمثال الإمام أحمد والإمام مالك - رضي الله عن الجميع -.. ولسنا ندري كيف يذهب الباقلاني إلى مخالفة المعتزلة فيقول: إن القرآن كلام الله قديم غير مخلوق. ثم يزعم أن ألفاظه وكلماته مخلوقة؟ وهل القرآن شيء، وكلماته وألفاظه شيء آخر. وكيف تكون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] كيف تكون قرآناً إذا أنت أفرغتها من الكلمات والألفاظ والحروف؟ هل يبقى شيء بعد ذلك؟ - عفا الله عنا وعن الشيخ الباقلاني وغفر لنا وله..

١٤ - كتاب: «**التقريب والإرشاد الصغير**» في الأصول، ذكره أبو المظفر الإسفراييني في كتاب «**التبصير**»، وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق د. /عبدالحاميد أبو زيد.

١٥ - كتاب: «التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والمعتزلة والرافضة والخوارج». وقد نُشر هذا الكتاب. نشره: محمود محمد الخضير ومحمد عبدالهادي أبو ريذة.

١٦ - كتاب: «الإنصاف» حققه محمد زاهد الكوثري.

١٧ - كتاب: «التبصرة» ذكره ابن كثير.

١٨ - كتاب: «شرح الإبانة» ذكره ابن كثير - أيضًا ..

١٩ - كتاب: «إعجاز القرآن» هذا الذي بين أيدينا والذي نحن بصدد

إخراجه.

وكتاب «إعجاز القرآن» من أجود ما صنَّف القاضي أبو بكر الباقلاني من كتب.

وهو كذلك من أجود ما صنَّف في بابهِ. أعني في إعجاز القرآن المجيد، ولا نقول: إنه أجودها..

وقد قال مؤلفه القاضي الباقلاني مبيِّناً السبب الذي دعاه إلى تصنيفه: «وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة. تسقط الشبهات وتنزيل الشكوك التي تعرض للجها، وتنتهي إلى ما يخطر لهم. ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة.. فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله ﷻ، ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته، ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ونشير إليه، ولا نسط القول، لئلا يكون ما ألقناه مكرراً ومقولاً، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الكتاب خاصة، ونُضيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة...».

فقد كان السبب الذي دعا المؤلف إلى وضع كتابه هذا سؤال بعض القرّيين منه العارفين بمقدرته على هذا النوع من التأليف أن يضع لهم وللناس كتاباً يُجلي وجه الإعجاز للقرآن العظيم..

وقد عتب الشيخ القاضي أبو بكر على العلماء في عصره وقبل عصره أنهم لم يهتموا بالاشتغال بإعجاز القرآن وبيان أوجهه، رغم كثرة كتاباتهم في النحو واللغة وعلم الكلام. يقول القاضي أبو بكر:

«... وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية، وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنّفوا فيه: من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأعراس، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب، وقد قصر بعضهم في هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها. ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصره هذه المعجزة يوجب ألا يستنصر فيها، ولا وجه لهم حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنّفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفى في وجهه...».

وقد التمس القاضي العذر لبعضهم في هذا التقصير عن الكتابة في إعجاز القرآن بسبب أن الكتابة في إعجاز القرآن تتطلب إمكانات وقدرات قد لا تكون متوفرة لدى الجميع.

لقول القاضي:

«... وقد يعذر بعضهم في تفریط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ».

ولما تقاعس هؤلاء وأولئك عن إعطاء الكتابة في إعجاز القرآن حقها من الاهتمام، إما لفقد آلة - نعني عدم التمكن من الكتابة في هذا الفن، كما أشار القاضي في الفقرة السابقة -، وإما للاشتغال بأمر أخرى، وكانت الحاجة ماسة إلى مثل هذا الكتاب، تقدم القاضي أبو بكر الباقلاني، فجزر الكسر، ورأب

الصدع، وسد النقص. فكان ذلكم الكتاب الذي بين أيدينا.

* * *

● أشهر من كتبوا في إعجاز القرآن المجيد:

كان القرآن المجيد - وما زال - ملتقى اهتمام علماء الإسلام، والقاسم المشترك بين هؤلاء العلماء، من حيث دراسته وتفسيره وكل ما يتصل به من علوم، وكل العلوم الإسلامية إنما تمت إلى القرآن بسبب أو أسباب؛ لأنه منبعها ومصدرها. يستوي في ذلك النحو والبلاغة والفقه والكلام والأصول وغير ذلك من علوم، فكل من كتب في شيء من ذلك إنما يضرب إلى القرآن المجيد بسبب، ويأخذ منه بشعب.

غير أن هذه العلوم جميعها شأن، والكتابة الخاصة بإعجاز القرآن شأن آخر.

● والذين كتبوا في إعجاز القرآن المجيد أشهرهم:

١ - أبو عبيدة، المتوفى: ٢٠٨ هـ. وكتابه: «إعجاز القرآن».

٢ - الجاحظ، المتوفى: ٢٥٥ هـ. وكتابه: «نظم القرآن».

وقد ذكر المؤلف أبو بكر الباقلاني كتاب الجاحظ هذا وعلق عليه بما يفيد

عدم رضاه عنه، وذلك بقوله:

«وقد صَنَّفَ الجاحظ في «نظم القرآن» كتابًا لم يزد فيه على ما قاله

المتكلمون من قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى».

وقد علق الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن» على

نقد الباقلاني للجاحظ بقوله:

«... وقد ذهب عن الباقلاني أن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه في أوائل

القرن الثالث غير الذي دعاه هو إلى التصنيف في أواخر القرن الرابع».

٣ - أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي، المتوفى: ٣٠٦ هـ. وكتابه:

«إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه».

- ٤ - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي، المتوفى: ٣٨٦ هـ. وكتابه: «النكت في إعجاز القرآن».
- ٥ - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، المتوفى: سنة ٣٨٨ هـ. وكتابه: «بيان إعجاز القرآن».
- ٦ - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، والمتوفى: ٤٧١ هـ. وكتابه: «الرسالة الشافية».
- ٧ - فخر الدين الرازي، المتوفى: ٦٠٦ هـ. وكتابه: «إعجاز القرآن».
- ٨ - ابن أبي الأصعب المصري، المتوفى ٦٥٤ هـ، وكتابه: «بديع القرآن».
- ٩ - ومن أشهر وأجمع من ألف في ذلك «إعجاز القرآن» للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، المتوفى: ١٩٣٧ هـ.

* * *

● مناقب القاضي أبي بكر الباقلاني:

كان القاضي أبو بكر الباقلاني من كبار المفكرين المعدودين في القرن الرابع الهجري. وكان متعدد الجوانب، كثير المناقب، مبرزاً في شتى المجالات الفكرية والعلمية، تدريسا، ومناظرة، وتأليفاً، وكان إلى جانب ذلك يمتاز بذكاء وفطنة وسرعة بديهة وقوة عارضة وغزارة علم، وأن ما يرويه عنه معاصروه والمؤرخون له ليقف شاهداً له على صدق توفر هذه السمات في الشيخ القاضي - رحمه الله - تعالى.. وقد كان شيخ الأشعرية في وقته المتحدث باسم المذهب الأشعري المنافع عنه ضد معارضيه، وبخاصة المعتزلة، ورغم أننا نختلف مع الباقلاني في آرائه الكلامية، ولا نتفق معه في الكثير مما ألزم به نفسه، وألزم به الأمة من مبادئ اعتبرها من الدين، وهي ليست منه في شيء، إلا أن ذلك لا يجعلنا نغمط الرجل حقاً هو له، ولا فضلاً أحرزه، ولا منقبة حازها. ومناقب القاضي التي تذكر له كثيرة. لكن أحسن ما يذكر له، وأفضل ما شهره ورفع ذكره بين معاصريه

حدثان:

الحدث الأول: اتصاله بالملك: فَتَأَخِّرُوهُ بن الحسن بن بُؤَيْه الملقب «عضد الدولة» أبو شجاع، وكان يملك على فارس والموصل والجزيرة، وهو أول من لقب نفسه «شاهنشا» أي ملك الملوك - نستغفر الله .. وأول من حُطِبَ له على المنابر بعد الخليفة، وكان بلاط الملك يفض بعلماء المعتزلة، وكذلك كان قاضي القضاة معتزليًا. وتكلم قاضي القضاة هذا ينقض مذهب الأشاعرة. فقال الملك للقاضي: إِنَّ مجلسنا عامر بالعلماء، لكننا لا نرى فيه أحدًا من أهل السنة - يقصد الأشاعرة - ينصر مذهبهم. فقال القاضي: إن أهل السنة عامة رعا عوغاء غوغاء أصحاب تقليد وأخبار وروايات، وأنهم يروون الخبر وضده ويعتقدونهما، وأحدهما ناسخ للثاني، ولا أعرف أحدًا منهم يقوم بهذا الأمر، فقال الملك «فناخسرو»: محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره، فانظروا أي موضع يكون فيه مناظر لنكتب إليه ليحضر مجلسنا، فلما رأى القاضي المعتزلي عزم الملك على ذلك، قال له: أخبروني أن بالبصرة رجلين، شيخًا وشابًا؛ أما الشيخ فيعرف بأبي الحسن الباهلي، وأما الشاب فيعرف بالباقلاني. وكانت حضرة الملك بشيراز، فكتب إلى عامله بالبصرة أن يشخصهما إليه، وأن يعطيهما ما يحتاجانه من نفقة. وما حدث بعد ذلك يحكيه القاضي الباقلاني بنفسه فيقول: «فلما وصل الكتاب إلينا قال الشيخ - يعني أبا الحسن الباهلي - وبعض أصحابنا: هؤلاء القوم فسقة، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال: إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان ذلك لله عَلَيْهِ خالصًا لنهضت، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفاتهم».

قال القاضي: فقلت لهم: كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهم من المتكلمين، قالوا: إِنَّ المأمون لا نحضر مجلسه، حتى ساق أحمد - الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه - إلى طرسوس حتى مات المأمون، ثم ردّوه إلى المعتصم، فامتحنه وضربه، فهؤلاء الذين أسلموه، ولو ذهبوا إليه وناظروه

لكفوه عن هذا الأمر، فإنه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على دعاواهم، وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ويقولون بخلق القرآن، ونفى رؤية الله - تعالى - أما أنا فخرج إليهم».

قال القاضي الباقلاني: فخرجت مع الرسول نحو شيراز عن طريق البحر حتى وصلنا إليها، ولقينا من ترحيب الملك...»، ثم ذكر القاضي الباقلاني ما كان من مناظرته مع المعتزلة في حضرة الملك فناخسرو، وقطعه إياهم وظهوره عليهم، مما كان سبباً في أن يميل الملك إلى مذهب الأشاعرة، وبلغ من إعجابه بالقاضي الباقلاني أن دفع إليه ابنه ليعلمه مذهب أهل السنة - يقصد مذهب الأشاعرة -، وتولّى القاضي ذلك، بل إنه ألف كتاب «التمهيد» لهذا الغرض.

وهذه الواقعة تدل على حسن تقدير الأمور من القاضي، وحسن بصر بعواقبها، كما تدل على طول باع في المناظرات وإفحام الخصوم.

ومما يدل على قوة عارضته في المناظرة ما نقله «ابن عساكر» عن الشيخ أبي القاسم بن برهان النحوي أنه قال: «من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء المترسلين، ولا الأغاني أيضاً، من طيب كلامه وفصاحته. وحسن نظامه وإشارته».

ومما يروى في هذا السبيل؛ أنه قد جرى بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة، فأكثر القاضي أبو بكر الكلام فيها ووسع العبارة وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: اشهدوا عليّ إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال.

* * *

● فطنته وسرعة بديهته:

مما يدل على فطنة الشيخ الباقلاني وسرعة بديهته، وذكائه، وحسن تصرفه فيما يعنّ له من أمور، ما يذكره الدقاق وغيره، وهو ما يمثل:

الحدث الثاني: من الحديثين الذين قلنا أنهما شهراه ورفعاً ذكره بين الناس.

ونقصد به سفارته إلى ملك الروم.

فإن الملك «فناخسرو عضد الدولة» كان قد بعث القاضي الباقلاني في سفارة له إلى ملك الروم. وكان من عادة ملك الروم أن كل من دخل عليه من السفراء والكبراء أن ينحنوا مرات وهم مقبلون عليه حتى تقارب رؤوسهم الأرض.

ولما وصل القاضي الباقلاني إلى ملك الروم في سفارته سأل عنه الملك وعرف أنه لن ينحني له كما يفعل كل من دخل عليه. ففكر الملك ومن معه في حيلة تجعل القاضي مضطراً لأن ينحني أمام الملك وهو داخل عليه.

وكانت الفكرة أو الحيلة تتمثل في أن يجعل السرير الذي يجلس عليه الملك وراء باب لطيف صغير لا يمكن لأحد أن يدخل منه إلا منحنيًا إلى حد الركوع، حتى إذا دخل القاضي على الملك اضطر أن ينحني شديدًا حتى يمر من الباب، وبذلك يتحقق للملك ما أراد من انحناء القاضي بين يديه. فلما وضع الملك سريره على هذا الحال أمر بإدخال القاضي عليه من هذا الباب الصغير. فلما رأى القاضي الباب تفكر قليلاً، ثم أدرك الحيلة، فأدار ظهره للملك. وحنى ظهره وطأطأ رأسه، ودخل من الباب وهو يمشي من الخلف وقد استقبل الملك بظهره بدلاً من وجهه، وظل سائرًا بظهره إلى أن وصل إلى الملك ورفع رأسه ونصب ظهره ثم استدار إلى الملك بوجهه، فعجب الملك من ذكائه وفطنته وسرعة بديهته. ووقعت له الهيئة في نفسه.

ومما يدل على ذكائه وفطنته أنه - وهو في سفارته إلى ملك الروم تلك - دخل على الملك يوماً فوجد لديه بعض المطارنة والرهابنة والقسس، فقال القاضي لكبيرهم: كيف أنت، وكيف الأهل والأولاد؟ فتعجب الملك وقال له: ذكر من أرسلك إلينا في رسالته أنك لسان الأمة، ومن علماء الملة، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد؟ فأجابه القاضي أبو بكر: رأيناكم لا تنزهون الله - تعالى - عن الأهل والأولاد، وترزعمون أنكم تنزهون هؤلاء عن

الأهل والأولاد فهل هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله - تَعَالَى ؟! فانكسر الملك وازدادت هيبة الملك في نفسه.

وفي هذه السفارة - أيضًا - أراد الملك الرومي أن يخزي القاضي ويوبخه فقال له: أخبرني عن قصة عائشة زوجة نبيكم وما قيل فيها.. فقال له القاضي على الفور: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا، ومريم ابنة عمران أم المسيح، فأما زوج نبينا لم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها. وقد برأ الله - تَعَالَى - كلا منهما مما رميت به. فانقطع الملك ولم يحرج جوابًا.

ونحن - وإن أعجبنا بذكائه وسرعة بديهته وحسن تخلصه - إلا أننا لا نوافق على أن يقيم تلك الموازنة بين اثنتين من أطهار النساء.

فهذه الوقائع - وغيرها كثير - مما يدل على ذكاء الشيخ القاضي أبي بكر الباقلاني وسرعة بديهته وحسن تخلصه وقوة فطنته.

* * *

● أوجه الإعجاز القرآني في رأينا:

اتفق العقلاء قديمًا وحديثًا على أن القرآن العظيم هو آية الله العظمى لخاتم النبيين محمد ﷺ، بل هي آية الله العظمى لسائر النبيين والمرسلين من لدن أبي البشر آدم ﷺ حتى خاتمهم محمد ﷺ، باعتبار أن القرآن المجيد مصدق لما بين يديه من الكتب - أي الكتب السابقة كلها - وناسخ لها ومهيمن عليها. وباعتبار آخر هام؛ وهو أن القرآن المجيد يعتبر هو السجل الوحيد الموثوق به ثقة مطلقة، والذي أورد في ثنايا آياته وسوره أخبار الكتب السابقة، وأخبار من نزلت عليهم تلك الكتب، وأهم من ذلك أنه أمرنا بالإيمان بهذه الكتب جميعها إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما ورد مفصلاً. يقول - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - في تصديق القرآن الكتب السابقة وهيمنته عليها:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ ﴿ [المائدة: ٤٥].

وقوله - تَعَالَى - عن بعض ما ورد في زبور داود عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء - عليهم السلام :- ١٥٥].

وقوله - سُبحَانَهُ - عن بعض ما ورد في صحف إبراهيم وموسى - عليهما

السلام :-

﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزُرُ وَرَزْرَةً

وَرَزْرَةً أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ

يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٢].

هذا، فضلاً عن الأخبار الدقيقة التفصيلية التي ورد بها القصص المعصوم عن

الرسول - صلوات الله عليهم - وأقوامهم، وسيرة الأقوام مع رسلهم. وما أنزل الله -

تَعَالَى - بكل قوم من عقاب شديد جزاء ما اقترفوا في حق أنبيائهم ورسولهم.

كل هذا يبين صدق ما قلنا من أن القرآن العظيم هو آية الله العظمى، ليس

لخاتم الرسل محمد عليه السلام، بل لكل الأنبياء والمرسلين من لدن أبي البشر آدم حتى

خاتمهم محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

ولأن القرآن المجيد كما قلنا، بل وفوق ما قلنا - لأنه من المسلم به أن ليس هناك

قول يوفي القرآن حقه -، فإن الله - تَعَالَى - قد اختص القرآن العظيم بخصائص لم

تكن لغيره من الكتب السابقة. ولسنا نزعم أن بإمكاننا أن نلم بتلك الخصائص

والمزايا التي فضل الله - سُبحَانَهُ - بها كتابه الخاتم وميزه، ولكننا - بقدر الإمكان

والطاقة - سنشير إلى أهمها إشارات موحية وإن لم تكن كافية.

١ - أن الله - سُبحَانَهُ - جعله الكتاب الخاتم المصدق لكل ما تقدم من كتب،

والمهيمن عليها - كما سبق بيانه -.

٢ - أن الله - تَعَالَى - ضمنه الدين الكامل، والرسالة الخاتمة الباقية التامة العامة.

يقول - تَعَالَى :-

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكانت الرسائل السابقة ممهدة لتلك الرسالة الخاتمة، لذلك نسخت تلكم الرسائل كما نسخت كتبها بما فيها من تشريعات، وجاءت الرسالة التامة العامة، الكاملة الشاملة مضمنة في ذلكم الكتاب المبين.

٣ - لأن القرآن المجيد هو المحتوي على الرسالة الخالدة الباقية؛ فقد تكفل الله ﷻ بحفظه من التحريف والتبديل، فضلاً عن الفقد والضياع. وفي ذلك يقول ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد كان الله - سُبْحَانَهُ - قادراً على حفظ الكتب السابقة. وهو الذي لا يعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض. ولكن الله - تَعَالَى - لم يحفظ الكتب السابقة لأمر أهمها:

أولاً: أن الكتب السابقة كانت تنزل على قوم بأعيانهم ولزمان ومكان بعينه، فكانت تلك الكتب بما تحويه من شرائع كتباً خاصة: أقواماً وزماناً ومكاناً. لذلك لم تكن ثمة حاجة إلى حفظ هذه الكتب بما تحويه من تشريعات منسوخة، جاءت بها رسالة خاصة نسخت بما جاء بعدها من رسالات.

ثانياً: أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لم يحفظ الكتب السابقة، حتى لا يصير بين أيدي الناس أكثر من كتاب إلهي يشتغلون به حفظاً له، وعملاً به، واجتهاداً في فهم ما يحويه من أحكام وتشريعات وقصص ومواعظ وإنذارات وتبشيرات وأوامر ونواه، إلا ذلك الكتاب الخاتم: القرآن العظيم.

٤ - أن الله ﷻ جعله المعجزة الخالدة الباقية لخاتم الرسل محمد ﷺ، وإذا كان لكل نبي جاء من قبل الله - تَعَالَى - معجزته أو معجزاته، وكانت معجزاتهم منها ما هو حسي، وما هو معنوي عقلي، ونعني بذلك ما أنزل عليهم من الكتب

السابقة التي هي كلام يحتوي على معان، وإنما تدرك المعاني بالعقل وليس بالحس، لذلك قلنا معنوية عقلية، نقول: إذا كان ذلك واقع حق ثابت، فقد أضحت هذه المعجزات بشقيها الحسي والمعنوي أخبارًا تؤمن بها ضمن ما تؤمن به من الغيب حين نتلقاها من أحد المصدرين المعصومين أو من كليهما: الكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، لكن يظل كل ذلك في دائرة الغيب، إلا معجزة واحدة، هي المعجزة الباقية الخالدة التي نعايشها بحواسنا وعقولنا، بأفئدتنا ومشاعرنا، تلکم المعجزة الوحيدة الباقية هي القرآن العظيم..

والقرآن العظيم المعجزة الباقية يصح بأن نصفه بأنه معجزة المعجزات، وآية الآيات، وهذا حق؛ لأن القرآن المجيد هو الذي نقل إلينا قصص الأنبياء والرسل السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، ونقل إلينا أخبارهم مع أقوامهم، وما يهمننا هنا - تحديدًا - أن القرآن الكريم هو الثابت الذي احتوى أهم معجزات الأنبياء والرسل السابقين، ونقلها إلينا، ومنها ما نقل بتفصيل كبير، مثل معجزات موسى عليه السلام إلى فرعون ثم إلى بني إسرائيل، سواء في عددها، أو في تفصيل ما جرى في بعضها مثل ما وقع بين موسى عليه السلام وفرعون ثم السحرة ثم دقائق ما حدث في هذه المعجزة العظيمة تمهيدًا لها، ثم أثنائها، ثم ما وقع بعدها نتيجة لها، كل ذلك لم نأخذه عن توراة موسى، أو غيره من كتب الله - تعالى - التي ذهبت، وإنما أخذناه عن القرآن المجيد، عرفنا منه تلکم المعجزات، وآمنا بها وأيقنا بوقوعها، من خلال القرآن الكريم..

لذلك قلنا: إن القرآن العظيم يصح لنا أن نصفه بأنه معجزة المعجزات من حيث إنه المعجزة الوحيدة الباقية، وأنه كذلك هو الثابت للمعجزات الماضية. هـ - أن القرآن المجيد هو المعجزة التي مازال التحدي بها للبشرية كلها قائمًا، وسيظل ويبقى قائمًا ما بقيت الحياة الدنيا، وكل إنسان على هذه الأرض، بل كل جني من أفراد الجن متحدى بهذا القرآن أن يأتي بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله.

فإنعجرات السابقات ذهبت وذهب التحدي بها، وبقي القرآن المجيد معجزة خالدة، وخلوده معجزة.. يعني - بالضرورة - خلوه التحدي به، وقيام هذا التحدي حتى قيام الساعة.

٦ - أن القرآن المجيد معجزات في معجزة، فإن كل معجزة لنبي من الأنبياء - صلوات الله عليهم - قد يكون لها وجه إعجاز واضح، مثل قلب عصا موسى عليه السلام حية، فهذا وجه واحد للمعجزة، ومثل ناقة صالح لها وجهان للإعجاز، ومثل نطق الضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه له وجهين للإعجاز، نطقه، وشهادته برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهكذا جملة المعجزات على اختلافها بين وجه ووجهين. أما القرآن المجيد فأوجه إعجازه كثيرة ومتعددة، وكل وجه من أوجه إعجازه يقوم مقام معجزة فذة. فكأنه - كما ذكرنا - معجزات في معجزة، بل إنه لذلك، بل إن الآراء لتختلف في إحصاء ما في القرآن من أوجه إعجاز، كل وجه هو بمقام معجزة في حد ذاتها، وهذه الآراء في أوجه الإعجاز هو ما سنشير إليه بعد الانتهاء من إحصاء مزايا وخصائص القرآن المجيد - على قدر الإمكان ..

٧ - أن القرآن العظيم كلام الله - سبحانه - غير مخلوق. فهو كلام الله - وكلام الله - تعالى - قديم وليس حادثاً. والقرآن مكتوب في لوح الله المحفوظ، كما قال ربنا صلى الله عليه وسلم في قرآنه:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

والقرآن في لوح الله - سبحانه - المحفوظ بلفظه ومعناه، فحروفه، وكلماته المكونة من الحروف، إنما هي موجودة في اللوح المحفوظ..

وليس صحيحاً ما يذهب إليه بعض طوائف المتكلمين، وبخاصة متأخرو الأشاعرة - ومنهم مؤلف كتاب إعجاز القرآن الذي بين أيدينا. أعني القاضي أبا بكر الباقلاني - نقول: ليس صحيحاً ما ابتدعوه وذهبوا إليه من القول بأن القرآن العظيم قديم بمعناه، حادث بألفاظه وحروفه. بمعنى أن معانيه قديمة، أما حروفه وكلماته فحديثة. فهذه بدعة اخترعها (ابن كلاب) المتكلم شيخ أبي الحسن

الأشعري. حين ابتدع ما سماه: (الكلام النفسي)، ثم انتشرت هذه البدعة بعد ذلك، ولقد رأينا القاضي الباقلاني يرددها ويحكم على من يعارضها بأنه مريض العقل، فاقد الصلاحية للمناقشة.

ولسنا ندري من أين جاءوا بهذا التقسيم العجيب الذي جعلوا به القرآن ﴿عِصِينَ﴾ فكانوا مع الذين قال الله - تَعَالَى - فيهم:

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهٗنَّ أَجْمِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

فأولئك جعلوا القرآن أقسامًا، وهؤلاء - الباقلاني ومن معه - جعلوا القرآن قسمين:

ألفاظه وحروفه قسم، ومعانيه قسم آخر. فقالوا: بحدوث القسم الأول، وبقدم القسم الثاني. مع أن القرآن اسم للألفاظ والمعاني معًا، وأن العقل يحيل وجود معاني خالية من الألفاظ، كما يحيل وجود ألفاظ ينطق بها عاقل تكون خالية من المعاني. وقد يوجد إنسان يركب ألفاظًا وأصواتًا ينطق بها تكون خالية من المعاني، لكنه يوصف بأنه معتوه أو ناقص التمييز، أو ضارب في طريق من طرق العبث. وحاشا أن يكون القرآن الكريم كذلك.. ولست أدري كيف تكون قراءتنا:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ألفاظًا وحروفًا خالية من المعنى الكريم المقدس الذي تحمله، أو كيف يمكن أن مجرد معناها الشريف فيكون خلوة من ألفاظه وحروفه؟

وإذ قد فرغنا من بيان ما تيسر لنا استحضاره من خصائص القرآن العظيم وميزاته - على قدر الطاقة -، فنستشير - فيما يلي بحول الله - تَعَالَى - إلى الآراء في أوجه إعجاز القرآن المجيد، متوخين الإجمال أولاً، ثم انتقاء الأشهر والأظهر من

الآراء ثانياً، والانتقاء من الآراء حول هذه القضية أمر ضروري، حيث إن القرآن المجيد منذ نزل، وقد شغل القلوب والعقول، واستولى على الأبواب والأفتدة، واهتم به وله المؤمنون وغير المؤمنين، أما المؤمنون فاشتغلوا به بحكم إيمانهم. بل بحكم فطرتهم. فإن القرآن نفذ إلى قلوبهم، وملك عليهم وجداناتهم ومشاعرهم، وأصبح نبراساً يستضيئون بنوره، ويهتدون بهديه، وينفذون أوامره، ويدعون نواهيه، ويتخذونه إماماً ومرشداً لهم في كل شئون حياتهم صغیرها قبل كبيرها، وحقیرها أسبق من خطیرها. ثم إنه للمؤمن دليل إيمانه، ومرشد فرائضه، وتبيان حلاله وحرامه، وفاروق جنته من النار، ويفصل حقه من الباطل، لذلك اشتغل به المؤمن، واهتم له المسلم، كأكثر ما يكون الاشتغال، وأخطر ما يكون الاهتمام، ومن جملة اشتغال المؤمن بالقرآن العظيم أن يتدبره ويتفكر فيه، فإن الله . سُبحَانَهُ . يخاطب المؤمنين:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٧٣﴾﴾
[الأعراف: ٢٠٤].

وقال ﷺ مبيّناً بعض سمات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا سُماً وَعُمِيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].

وأما غير المؤمن فقد اشتغل بالقرآن ليشغب عليه، وليجد فيه ثغرة ينفذ من خلالها للطعن فيه، وليعرف سبب تأثيره على النفوس ليعطل ذلك التأثير أو يقلل منه، وهيهات أن يجدوا من ذلك شيئاً، أو يحققوا من أهدافهم نزرًا، لذلك لجأوا إلى المبهمات يوارون عجزهم خلفها، ويعللون خيبتهم بها، فقالوا: إنه سحر، وإنه شعر، وإنه كهانة. فرد الله ﷻ عليهم قولهم. فقال - سُبحَانَهُ -: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣].

بل إن غير المؤمنين كانوا يشتغلون به يعللون أنفسهم بالبحث عن مطعن فيه، وهم في حقيقة أمرهم يشتغلون به إعجابًا وافتانًا بما يحويه من سبل الإعجاز،

حتى إن بعضهم بدأ الاشتغال به كراهية له وعداء، ثم لم يمض قليل حتى أسلم قياده، وخلع عناده، وآمن وصدق إيمانه. وهذا وحده من أوضح أوجه إعجاز القرآن المجيد، وليس من مثال على ذلك أظهر وأشهر من واقعة إيمان الفاروق ابن الخطاب عمر رضي الله عنه، فقد اشتغل بمعارضة المؤمنين وتخويفهم، ولما علم أن أخته آمنت اندفع إلى دارها تشتعل نار قلبه، ويغطي الغضب على نور عقله وفكره، حتى دخل الدار وضرب من ضرب، وأسأل دماء من في الدار، لكنه ما إن أمسك بذلك الرق وفيه آيات من القرآن، حتى حوله القرآن خلقاً جديداً، أمسك بالرق وهو أشد الناس عداوة ومقماً للقرآن، وإذا هو بعد نظرة في ذلك الرق يتحول إلى فاروق الإسلام، وناصر الإيمان الذي فرق الله به بين الحق والباطل.

* * *

وقد أشار صاحب كتاب: «إعجاز القرآن» الذي في أيدينا إلى أوجه من الإعجاز للقرآن بلغت عشرة، ونحن نشير إلى بعضها، ونضيف إليها، متوخين الإيجاز والانتقاء. كما ذكرنا، من حيث أن اشتغال الناس بالقرآن العظيم منذ نزل، مؤمنهم وكافرهم. على ما بيننا. قد خلف آراء في إعجاز القرآن قد تجل عن الحصر، وبخاصة في عجالة كهذه.

الوجه الأول: إن أول وجوه الإعجاز للقرآن المجيد. في نظرنا. قد يكون هو آخرها. عادة. في ترتيب الكاتبين في هذا المجال. ونعني به تأثير القرآن في النفوس والأفئدة، واستيلاءه على العقول والقلوب، حتى إنه ليخضع أعتى النفوس، ويلين أقسى القلوب، ويستولي على أغلظ الأكباد، ويحول في طرفة عين أعدائه إلى أولياء، ومحاربيه إلى مجاهدين في سبيله، كما ضربنا لذلك بابن الخطاب عمر رضي الله عنه، وكم من أمثال عمر في كل زمان ومكان يجلون عن الحصر يماثلونه في قضية إيمانهم تلك، وإن كانوا يقصرون عنه في الجوانب الأخرى التي اختص بها رضي الله عنه والتي من أجلها لم يكن في تاريخ الإسلام إلا ابن خطاب واحد.

وقد يختلف الباحثون حول السر في هذه القوة التي بها يستولي القرآن على العقول والقلوب، والتي يسلب بها النفوس من أصحابها، حتى إنهم لينكرون أنفسهم بعد قراءتهم القرآن المجيد وتأثيره فيهم، قد يختلف الناس في تفسير هذا السر، لكننا نزعم أنه ليس سرًّا بهذا القدر الذي يتخيلونه. ذلكم أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، إلى النفوس والقلوب التي صاغها وفطرها وخلقها رب العالمين، أحسن الخالقين، فخالق النفوس والقلوب والعقول هو وحده العليم بما يؤثر فيها وبما تتأثر به، ومن ثم فقد أنزل إليها ذلكم الكتاب على الهيئة التي بها يستطيع أن يؤثر فيها ويستولي عليها، وذلك وصف الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الإسلام الذي جاء به القرآن بأنه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ قال - سُبْحَانَهُ :-

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٤٠].

ولعل من مفاتيح ذلك السر العجيب أن الله - تَعَالَى - أنزل القرآن ليخاطب القلوب والعقول، فليس هو كتاب منطقي أرسطي، ولا فلسفة فارابية أو سينية، تتفلسف بقضايا جامدة ميتة، لكنه كتاب حي طلي يخاطب القلوب والعقول، والمشاعر والوجدانات، ويمسك بتلابيب الإنسان من جانبيه النفسي والعقلي، فيستولي عليه، ويجتذبه نحوه.

الوجه الثاني: بلاغة القرآن الفذة العجيبة، التي حار فيها البلغاء، وعجز عن وصفها الأدباء، وأسلم لها العقلاء والأذكياء، وخضع لها الناثرون والشعراء، ولم يجدوا لها تعليلاً، ولا إليها مدخلاً وسبيلاً، فأسلم لها البلغاء والفصحاء، وحصرها كل همهم ليس في معارضتها ومحاولات الإتيان بمثيل لها، بل في محاولة تفسيرها وإدراك شيء من أسرارها، وقد عبر عن ذلك الإمام الخطابي في كتابه «بيان إعجاز القرآن» بقوله: «ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه إعجاز القرآن من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيل ذلك، ورحم الله الخطابي. فإنه قرر بعبارته الموجزة أن الباحثين من البلغاء والفصحاء قد عجزوا عن

تفصيل سر بلاغة القرآن ووصف أسبابها، لذلك نكتفي بالإشارة إلى بلاغته دون محاولة تفصيلها أو تفسيرها، حيث عجز عن ذلك من أرسخ قديمًا وأعلا كعبًا في هذا الباب، لكننا وإن لم نشغل أنفسنا بتفسير أسرار تلك البلاغة الآسرة، فإننا نجد لازمًا علينا أن نبين آثارها في نفوس القوم الذين نزل عليهم القرآن، وكانوا أعلم الناس بالبلاغة والفصاحة وتصاريف القول في هذا الباب، ولأنهم كذلك تحداهم الله - تعالى - أن يأتوا في هذا الباب بما يماثل القرآن، أو عشر سور مثله، أو سورة من مثله، على ما نجده مفصلاً في غير هذا الموضوع، ولكنهم عجزوا إلى حد أن استبدلوا باللسان السنان، وبالمقال القتال، وضحوا بالأنفس والأموال، حين عجزوا على أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو شيء منه، وفيما يرويه الرواة عن حالهم حين نزول القرآن، وافتنانهم به دليل في مثل وضوح الشمس ظهيرة يوم صائف على أنهم مقرون معترفون ببلاغته وفصاحته وإعجازه، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون.

يروى أن أبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، وأبا سفيان بن حرب خرجوا ليستمعوا من رسول الله ﷺ القرآن وهو يصلي من الليل في بيته، فاتخذ كل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل منهم لا يدري بمكان صاحبه، ولا يعلم أن أحدًا يستمع غيره، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا عائدين فجمعهم الطريق، فتلاوموا على سماعهم من رسول الله. ثم قالوا: لا تعودوا لمثل هذا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في أنفسهم شيئًا. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية اتخذ كل منهم مجلسه الذي كان فيه البارحة، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا عائدين فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم ذهب كل إلى بيته، فلما كان الصباح أخذ الأخنس بن شريق عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان. فقال له: أخبرني يا أبا سفيان عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال أبو سفيان: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما

يراد بها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت كذلك...
وقد كانوا يدركون تأثير القرآن العجيب على النفوس وأثره في القلوب.
ولذلك كانوا يخشون سماعه، ويتجنبون وقوعه في آذانهم خشية أن يفقدوا
تماسكهم حياله ويدعنوا له. ولذلك تواصلوا فيما بينهم ألا يُعرض أحدهم نفسه
لمثل هذه التجربة التي ستؤدي به إلى التسليم والإذعان، كما تواصلوا أنه إذا تعرض
أحدهم للقرآن أن يسد أذنيه أو يصيح ويحدث من الجلبة ما يودي بصوت القارئ
فلا يصل إليه. يقول الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فيما تواصلوا به من ذلك:
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذا الخوف منهم فسرتهم كثير من الوقائع التي ما أن استمع المشرك فيها إلى
آية وربما بعض آية حتى يلين قلبه، وتزول الغشاوة من فوق عينه ثم يعلن إسلامه.
يروى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ قوله - تَعَالَى -:
﴿فَأُصْدِعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].
فخر الأعرابي ساجداً وقال: أسجدني فصاحته.
وروي أن رجلاً من المشركين سمع قوله - تَعَالَى -:
﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠].
فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل ذلك.

وفي حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه مثال على بلاغة القرآن، وشهادة بتأثيرها من
عارف بتلك البلاغة بارع فيها. فقد قال أبو ذر رضي الله عنه فيم يروي عنه: واللّه ما
سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعراً أنا أحدهم. وأنه ذهب
إلى مكة وجاء لي بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، قلت له: فما يقول الناس عنه؟ قال أخي أنيس:
يقولون: ساحر شاعر كاهن، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد
وضعت على قصائد الشعر فلم يلثم على لسان أحد يدعى أنه شاعر، واللّه إنه
لصادق. وإنهم ليكذبون.

وإذا كان الشيء يكون أوضح وأظهر إذا قورن بضده، وقوبل بنقيضه، كما قال الشاعر: «والضد يظهر حسنه الضد». فإننا لهذا فقط نسوق هنا كلامًا زعم صاحبه أنه وحى من عند الله - شُبْحَانَهُ - بعد أن زعم أنه نبي مرسل، وهذا الكلام الذي سنسوقه توفرت له كل الظروف التي توفرت للقرآن المجيد، عدا أن صاحبه كاذب في دعوى النبوة، وبالتالي في دعوى أن يكون ذلك الكلام وحيا من عند الله رب العالمين، لم ينقض هذا الكلام إلا هذه، ثم توفرت بعد ذلك أن صاحبه عربي قح، وأن الزمان زمان العربية الفصحى، والمكان مكان العرب الخالص، فليس - إذن - من فارق سوى أن هذا كلام رب العالمين، وذاك كلام كذاب مهين، إنه كلام مسيلمة. فماذا قال؟ إنه قال فيما يزعمه وحيا من عند رب العالمين - حاشا لله :-

«ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قریشًا قوم يعتدون». وهذه سماها الكذاب: سورة الضفدع.

وقال الكذاب أيضًا:

«والمبديات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والحابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنا، لقد فضلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فأوروه، والباغي فناوثوه»..

واجتمع مسيلمة الكذاب - قائل الغث السابق - مع «سجاح بنت الحارث» وكانت تدعي النبوة أيضًا، فلما اجتمع النبي بالنبية، قالت له ما أوحى إليك؟ قال: أوحى إليّ: «أن الله خلق النساء أفواجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعنا إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالًا نتاجًا» فلما سمعت المرأة حديثه هذا سارعت تقول له: أشهد أنك نبي.

إن هذا الكلام الصادر عن الكذاب مسيلمة ليدل بوضوح على البون الشاسع

بينه وبين كلام رب العالمين، ولذلك لما سمع أبو بكر رضي الله عنه كلام مسيلمة هذا قال لمن جاءه به: ويحكم إن هذا الكلام لا يخرج عن «آل» أي عن ربوبية، أي ليس هذا كلام رب العالمين، إن أقل الناس تمييزًا لا يذهب عنه، ولا يصعب عليه أن يدرك أن هذا كلام في غاية السخف والإسفاف.

إننا نفرز كلام ربنا - سُبْحَانَهُ - ونميزه، فنخصه بسطور مفردة تقديسًا له وإجلالًا أن يختلط بكلامنا، وكلام الكذاب هذا قد أفرزناه في فقرات خاصة به تكريمًا لكلامنا نحن أن يختلط بهذا السخف، وتنزيها له أن يمازج هذا الهراء.

الوجه الثالث: الإخبار بالمغيبات في الماضي. ونعني بذلك أخبار الأمم الماضية، والقرون السالفة، ومع كل أمة ذكر نبيها الذي أرسل إليها، ثم ما جرى بينه وبينهم، ثم ما وقع لهم نتيجة تكذيبهم إياه، كل ذلك يقصه القرآن العظيم، على هيئة تفصيلية دقيقة، بل إنه ليحكى مقالة القوم ردًا على مقالة نبيهم، ثم رد النبي عليهم، ثم ما قالوه إجابة على ذلك في تفصيل دقيق يعجز عن إحصائه وبيانه من قد كان حاضرًا تلك المحاورات بين الأنبياء وأقوامهم، فماذا عن محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء آخر الزمان بعد مضي تلك الأحقاب بالأنبياء وأممهم؛ كيف يقص هذه الأخبار بتلك التفصيلات الدقيقة المسهبة؟

إن علم هذه الأمور المغيبة في الماضي لم يكن يعرفه إلا فئة رجال الدين من يهود ونصارى، وكانت علومهم في ذلك يشوبها الكثير من النقص، وبخاصة في جانبين:

الجانب الأول: أنها كانت علومًا مستقاة من كتبهم التي حرفت وبدلت وغير ما فيها، إلى حد أن أضحت غير مأمونة على خبر تلقيه، أو قصة تقصها، ونتيجة للتحريف والتبديل الذي وقع لهذه الكتب؛ فقد أكمل الأحبار والرهبان القصص المبتورة غير الواضحة من خيالهم حتى تبدو كاملة. وبذلك حرف القصص وأصبح مدخولًا مكذوبًا.

الجانب الثاني: أن قصص الماضين لدى رجال الديانتين اليهودية والنصرانية -

رغم ما فيه من تحريف وخيال - فإنه مبهم غاية الإبهام، إضافة إلى أنه لا يتناول جميع الأمم السابقة، بل يختص بما كان لبني إسرائيل أو اليهود الخاصة. وإذا كانت هذه علوم علماء اليهود والنصارى بالنسبة لذلك القصص الماضي؛ فهل اختلف محمد ﷺ إلى أحد من الأحرار أو الكهان؟ هل تلقى علوم الأمم الماضية عن طريق معلم؟ أم هل ثقَّف محمد ﷺ نفسه عن طريق الكتابة والقراءة؟

إن شيئاً من ذلك لم يكن، فما كان له ﷺ صلة بالكهان أو الأحرار أو رجال الدين السابقين. كذلك لم يكن يختلف إلى معلم يعلمه أو قاص يقص عليه، كذلك كان من معجزات محمد ﷺ أنه لا يقرأ ولا يكتب، واعجب.. إنها أول وآخر حدث في التاريخ أن يكون فقدان العلم بالقراءة والكتابة فضيلة ومعجزة، ولقد ذكر الله - سبحانه - هذه الحقيقة وأكد عليها. فحين طعن الكفار في القرآن، أنزل الله على رسوله ﷺ قوله:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ بِهِ. فَقَدْ لَيْسَتْ فِيكُمْ عُمرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس العنكبوت: ١٦].
وقال ﷺ:

﴿وَمَا كُنْتُ تَلَوًا مِّن قَبْلِهِ مِّن كِتَابٍ وَلَا تَخْطُمُ بِمِيمِنِكَ إِذَا لَأَزَابَ الْمَبْطُلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولم يبق إلا أن تكون تلك الأخبار من عند الله رب العالمين.

الوجه الرابع: الإخبار بالغيوب الآتية:

فقد ورد من ذلك الشيء الكثير.

من مثل قوله - تعالى - إخبارًا بتغلب الروم على الفرس في بضع سنين:

﴿الْعَرَبُ ﴿١﴾ غَلِبَتِ الرُّومَ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ - ٤].

فقد كانت الحرب قائمة بين الفرس والروم، وكان الرسول ﷺ والمسلمون معه في مكة قبل الهجرة يحبون أن ينتصر الروم على الفرس؛ لأن الروم نصارى أهل الكتاب، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس الوثنيين الذين يعبدون النار، وكان مشركو مكة على العكس من هذا يحبون أن ينتصر الفرس المجوس على الروم النصارى، لأنهم مشتركون مع الفرس في الوثنية، ولما غلبت الفرس الروم فرح المشركون وحزن المسلمون، فأنزل الله فواتح سورة الروم يشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين. وقد كان وعد الله حقاً.

ومثل قوله - تَعَالَى - لرسوله ﷺ وأصحابه يشرهم بدخول المسجد الحرام:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ مَجْلِفَيْنِ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

ومن مثل قوله ﷺ عن غزوة بدر:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

الوجه الخامس: كشف الحقائق العلمية.

فقد جاء القرآن الكريم يخبر عن حقائق علمية دقيقة، لم يكشفها الناس إلا في العصر الحديث. وذلك مثل قوله - تَعَالَى -:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَقْنَ كُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

فقد أثبت العلم الحديث أن الرياح تحمل عناصر معينة تلتحق بها البخار في الجو فيتكثف ماءً ثم يسقط مطراً. وهذا واضح من ترتيب نزول الماء من السماء على تليقح الرياح كما في الآية الكريمة.

ومثل قوله - سُبْحَانَهُ -:

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [يس: ٣٦].

فقد أثبت العلم الحديث أن النبات أزواج ذكر وأنثى، وكذلك فينا تنعم
بالذرة فإن فيها السالب والموجب وهما يتجاذبان.

ومن الإعجاز في الآية الكريمة أنها ذكرت ﴿الْأَزْوَاجَ﴾ ولم تنص على
الذكورة والأنوثة. وبذلك دخل في الآية الكريمة كافة أشكال الخلق الإلهي القائم على
المتقابلين، يستوي في ذلك أن يكون المتقابلان ذكراً وأنثى، أو موجباً وسالباً، أو غير
ذلك من كافة الأشكال، ما نعرف وما لا نعرف.

ومثل قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى :-

﴿فَلَا أُنسِمُ بِالْشَّفَقِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨)
لَتَرَكَّبْنَ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿ (سورة الانشقاق: ١٦ - ١٩).

فهذه الآيات تدل على صعود الإنسان إلى أجواز الفضاء، وركوبه طبقات
الجو، واختراقه طبقة من بعد طبقة، طبقة الهواء الجوي، طبقة الجاذبية الأرضية،
وحوله طبقات الجاذبية لكوكب القمر حين هبوطه عليه أو اقترابه منه، على أن
قوله - تعالى - ﴿لَتَرَكَّبْنَ﴾ يصدق سواء ركبنا بأنفسنا أو ركبنا تلك الطبقات بالآتنا،
وبذلك يدخل في نطاق الآية تلکم الأقمار التي يرسلها العلماء إلى المريخ والزهرة
وغيرهما والتي تجوز طبقات بعد طبقات لا يحصيها ولا يرقبها إلا الله - سُبحانه ..

ومن ذلك قوله ﷻ في شأن أصحاب النار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا سَوَّغْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فإن الآية الكريمة عللت تبديل الجلود بذوقهم العذاب. كأنهم بدون
جلودهم لا يذوقون العذاب. وهذا ما أثبتته العلم الحديث، حيث أثبت أن مراكز
الإحساس في جسد الإنسان تتركز في الجلد فقط، وأنه بدون الجلد لا يحس
الإنسان شيئاً.

الوجه السادس: خلوه من التناقض والاختلاف رغم طوله، وتعدد الأغراض
التي تناولها، وتعدد الأساليب التي تناول بها كل غرض من هذه الأغراض،

يستوي في ذلك أن يكون إنذارًا، أو تبشيرًا، أو قصصًا، أو وعظًا وتذكيرًا، أو أحكامًا وتشريعًا، أو ترغيبًا في الجنة ونعيمها، أو ترهيبًا من النار وجحيمها... إلى تلکم الأغراض التي تناولها القرآن الحكيم.

ومن أعجب ما في القرآن العظيم؛ أنه يخلص من موضوع إلى موضوع آخر قد يشاكله أو يخالفه، وينتقل من غرض إلى غرض مختلف، قد يقترب منه أو يتعد عنه، وأنت لا تكاد تحس بفجأة الانتقال، ولا تشعر بطفرة التغيير، ولا بهزة التحول، كأن الموضوع الثاني - رغم بعده عن الأول - جزء منه أو بعضه، وكأن الغرض الآخر - رغم اختلافه عن سابقه - شيء منه أو عضوه..

وليس ذلك من القرآن في موضع دون موضع، أو سورة أو بضع سور، بل إن السورة الواحدة مهما بلغت من القصر شكلاً وكمًا، فإنك واجد فيها من تعدد المعاني والأغراض، وكثرة الأهداف والغايات، ما يوضح المعنى الذي نريد أن ننبه إليه.

ويكفي في هذا المعنى أن ننظر إلى أقصر سورة من القرآن المجيد، التي هي سورة الكوثر. يقول الله - سبحانه - مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

إن الناظر في هذه السورة يكاد يجد فيها من الأغراض والموضوعات التي اشتملت عليها وتناولتها، أكثر من الألفاظ التي تكونت منها. فقد تناولت فضل الله - تعالى - على رسوله ﷺ، ومن ذلك الفضل الخير الكثير الذي لا يحصى، أو الكوثر الذي هو نهر في الجنة، وفي ذلك استهلال إعزاز وتكريم من الله - تعالى - لرسوله ﷺ ردًا على ما زعمه المشركون من أن الله - تعالى - حرم محمدًا من البنين. ثم انتقلت السورة فأمرته بألا يلتفت إلى ترهات هؤلاء المشركين ومزاعمهم الباطلة، وأن يقيم دينه بالحفاظ على الصلاة التي هي عماد الدين، وقد يكون الأمر بالصلاة هنا أمرًا بشكر الله - تعالى - على نعمه إذ

أعطاه الخير الكثير. ثم أمره الله - تَعَالَى - بأن ينحر، ولذلك معان كثيرة ذكرها العلماء. هل هو نحر الضحية في عيد الأضحى؟ وتكون الصلاة هنا صلاة العيد، أم المراد توجه بنحرك إلى القبلة في الصلاة، والأغلب أن يكون المراد نحر الضحايا، فتكون الآية على صغرها تناولت الصلاة والصدقات، ثم إن قلب الآية الصغيرة لفتت الأنظار إلى أهم ما في العبادة، وهي أن تكون خالصة لله رب العالمين. ثم انتقلت السورة إلى غرض آخر، فردت على المشركين ودفعت عن رسول الله ﷺ زعم المشركين بأنه الطَّيْلُ أبت. وفرقت الآية الكريمة بين نوعين من البتر: بتر البنين، وبتر الإيمان الذي هو مناط الخير كله، فرسول الله ﷺ إن كان حرم حياة البنين، فإن الله - تَعَالَى - قد أعطاه الخير الكثير أو الكوثر، بينما المشركون، وإن كان لديهم البنون، فقد حرموا الإيمان الذي هو الخير كله، وهم كفار، وبنوهم كفار، وكلما زاد بنوهم زاد عدد الكافرين، وضمنت جهنم المزيد من الحصب.

إن هذا الذي ذكرناه أغراض السورة أو بعض أغراضها، وما يشعر الإنسان وهو يقرأ إلا بانسياب المعاني داخل الألفاظ، وتآلف الألفاظ والآيات. وهذا الذي قصدنا بيانه بهذا الوجه.

الوجه السابع: ما يشتمل عليه القرآن العظيم من الأحكام والتشريعات التي ضمنمت السعادة للمؤمنين بها، المطبقين لها في الدنيا، والنجاة في الآخرة. الوجه الثامن: وهذا وجه يعتمد على إحصاء حروف العربية ومعرفة خصائصها. وهو يبين أن ثمة حكمه ونظامًا دقيقًا وراء كل حرف وكلمة في القرآن المجيد.

فالحروف في العربية تسعة وعشرون حرفًا. والصور التي افتتحت بهذه الأحرف تسع وعشرون سورة. هي: البقرة، آل عمران، الأعراف، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، يس، ص، غافر،

فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، ن.
فالسور التي افتتحت ببعض الأحرف يبلغ عددها عدد جميع أحرف العريية.
والأحرف التي ذكرت في أوائل السور يبلغ عددها أربعة عشر حرفاً. بعضها
مكرر.

وهي الأحرف: أ، ل، م، ص، ر، ك، هـ، ي، ع، ط، س، ح، ق، ن.. فكأنها
نصف أحرف المعجم.

وهذه الأحرف الأربعة عشر صلاتها ببقية الأحرف تستدعي النظر
والاعتبار، فهي تحتوي على نصف الأحرف المهموسة. والأحرف المهموسة
عشرة يجمعها قولهم: «فحثه شخص سكت».

والنصف الموجود ضمن أوائل السور من المهموس هو الأحرف: ص، ك، هـ
س، ح.

ثم هي كذلك تحتوي على نصف الأحرف المجهورة التي بقيت بعد
المهموسة. ثم إنها تحتوي على نصف حروف الحلق التي هي: العين، والحاء،
والغين، والحاء، والهمزة، والهاء. ففي أوائل السور منها ثلاثة هي: العين، والباء،
والحاء. ثم هي كذلك تحتوي على نصف الأحرف الشديدة التي هي: الهمزة،
والباء، والجيم، والذال، والطاء، والظاء، والقاف، والكاف.. ففي حروف أوائل
السور منها: الطاء، والقاف، والكاف، والألف.

ثم هي تحتوي كذلك على نصف الحروف المطبقة الأربعة وهي: الصاد،
والضاد، والطاء، والظاء. ففيها منها حرفان هما: الصاد، والطاء.. إلى آخر هذه
العلاقة الغريبة التي لا تأتي ارتجالاً ولا تأتي لعباً ولا لهواً، وإنما تأتي لحكمة يعلمها
الخبير - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبعد؛ فإنه هذا هو ما تمكنا من الإشارة إليه من أوجه الإعجاز القرآني الكريم.
الكتاب الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد، ولا يعني ذلك أننا جمعنا وأحصينا أوجه إعجاز الكتاب العزيز، فإن وراء

كل وجه أشرنا إليه، أوجهًا كثيرة أغفلناها إما اختصارًا، وإما عجزًا منا عن الوصول إليها والإحاطة بها.

* * *

على أننا ينبغي ألا نترك هذا الموضوع الشريف حتى نشير إلى بعض الآراء الشاذة حول إعجاز القرآن المجيد. وإشارتنا إليها ليس اهتمامًا بها أو تقديرًا لها، وإنما هو من باب تكملة الموضوع من جميع جوانبه، وإلا؛ فهذه الآراء من الإسفاف والسفه حيث لا يقام لها قيمة ولا وزن.

من هذه الآراء ما ذهب إليه «الجمعد بن درهم» حيث زعم أن القرآن ليس معجزًا بوجه من الوجوه، وأن العربي قادر على أن يأتي بمثله دون عناء كبير. وهذا الرأي الشاذ ليس غريبًا من هذا الرجل الذي تربى ودرس على يد رجل من يهود الشام، وتلقى عن أستاذه اليهودي نفثات الحقد اليهودي على الإسلام والمسلمين، ثم جاء يردد ما لقنه أستاذه اليهودي إياه. ولم يكن شذوذ «الجمعد بن درهم» في هذه المقالة فقط، بل إنه هو الذي نقل عن أستاذه اليهودي القول بالجبر، وأن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وأن التكليف عبث، والحساب عبث، والجنة والنار عبث؛ لأن الإنسان غير مسئول عن عمله. وقائل مثل هذا السفه ليس غريبًا عنه أن يطعن في إعجاز القرآن. لكن الذي نسيه هذا الكذاب أنه عاش يردد هذه المقالة سنين، ولم يحاول أن يقيم الدليل على صدقها فيعارض القرآن بشيء ليبين أنه محق في مقالته.

ومثل هذا الرأي الشاذ، ما ذهب إليه «النظام» الفيلسوف المتكلم عن مذهب الاعتزال، من أن القرآن الكريم غير معجز في أسلوبه وبيانه وبلاغته، وأن العرب قادرون على أن يأتوا بمثله، لكنه معجز بـ «الصُرْفَةِ». والمراد بهذه الكلمة: «الصرفة» في زعمه، أن العرب قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لكنهم كلما هموا بأن يؤلفوا كلامًا مثله صرفهم الله - تعالى - عن ذلك، وشغلهم بأمر تمنعهم من الإتيان بما يماثل القرآن.

وهذا الرأي لاقى قبولاً من بعض مدخولي الإسلام وضعفاء الإيمان، وروح له بعض مرضى القلوب، لكنه انتهى بانتهاه صاحبه وتلامذته، ولم يبق منه إلا تاريخ يروى للدلالة على ما يفعله ضعف الإيمان بأصحابه.

● الباقلاني وكتابه:

وإذ قد انتهينا من بيان وجهة نظرنا في إعجاز القرآن المجيد، وأهم أوجه ذلك الإعجاز، فقد بقيت كلمة نختم بها حديثنا عن الكتاب الذي بين أيدينا. فلقد وضع القاضي أبو بكر الباقلاني كتابه لبيان إعجاز القرآن المجيد. وإن أردنا الدقة، فإن الرجل قد وضع كتابه هذا لهدفين هامين: الأول: إثبات أن القرآن الكريم معجز، والرد على كل من جحد ذلك أو شك فيه، أو أثار الشبهات حوله.

الثاني: بيان أوجه ذلك الإعجاز من وجهة نظره.

وهذان الأمران جاء عنوان الكتاب «إعجاز القرآن» ليعبر عنهما. لكننا أحببنا أن نلفت النظر إلى أمر غاية في الأهمية بالنسبة للكتاب الذي بين أيدينا.

ذلكم أن الكتاب كما هو في إعجاز القرآن، كذلكم هو - وعلى نفس المستوى - في النقد الأدبي والموازنات الشعرية، فهو كتاب في النقد الأدبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وقد تناول موضوعات النقد الأدبي بكل دقة وخبرة وعلم وتخصص، وقد تبحر في الموازنات الشعرية بين عدد كبير من فطاحل الشعراء، كما تناول بالنقد والتقويم عددًا لا يكاد يحصى من أبيات الشعر وأغراضه للشعراء المعدودين، لا نعني نقده قصيدة أمراء القيس والبحثري فقط، فإنه في إطار نقده هاتين القصيدتين تناول جمهرة الشعراء المعدودين في أزهى عصور الشعر، ونقدهم ووازن بينهم ورجح بعضًا وأزرى بآخرين. وقد استغرق في ذلك صفحات الكتاب كلها إلا قليلًا.

قد يقال: إن النقد الأدبي، وسوق كثير من قصائده وأبياته وأغراضه إنما هو لخدمة الهدف الأصلي والغاية الأم للكتاب وهي إعجاز القرآن: تحقيقاً وبياناً، لكن الحق أن هذا لا يفسر صرف الكثرة الكاثرة من صفحات الكتاب لهذه المجالات والأغراض الأدبية البحتة، وذكر قرابة الثلاثمائة من أسماء الشعراء والأدباء ونقاد الشعر ورواته، وترديد أسماء هؤلاء على صفحات الكتاب ما يزيد على الألف بكثير. والقارئ الكريم سوف يجد في آخر الكتاب ثبناً بأسماء الأعلام الواردة في طياته من الشعراء ونقاد الشعر والأدباء والرواة ومقابل كل اسم عدد مرات وروده، وسيجد القارئ الكريم أننا لم نبالغ في عدد مرات ورودهم.

إنه مما لاشك فيه أن بعض ذلك، بل وأقل كثيراً من ذلك كان يكفي المؤلف الفاضل - رحمه الله - تعالى .. وكذلك يكفي القارئ ليفهم عن المؤلف ما يريد إيفاهمه إياه.

لكن المؤلف القاضي أبا بكر - رحمه الله - تعالى - كان أدبياً، ولوعاً بالأدب بأصنافه وأنواعه، وبخاصة الشعر والشعراء، ولذلك اغتنم حديثه عن إعجاز القرآن ليشبع هواه من الشعر والأدب، وليفسح لنفسه صفحات الكتاب يعيش من خلالها مع عشرات وعشرات من الشعراء يروي أشعارهم، ويقابل بينها ويوازن، ويبين خللها، ويشبع رغبته وهواه.

لكن يبقى بعد ذلك كله أن إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني من عيون ما كتب في الموضوع، وبخاصة وأن كاتبه من المعدودين المتخصصين في المجال الذي عاجله الكتاب، وقد قضى حياته منافحاً ضد الفرق المناوئة للإسلام، وقد عالج بكتابه هذا مرضاً كاد يستشري في عصره، ونعني به الزعم بأن القرآن المجيد ليس معجزاً، وجاء كتاب الرجل فتحاً في هذا الباب، فجزاه الله عن نيته وعمله وما قدم للإسلام والمسلمين خيراً.

إعجاز القرآن

للقاضي أبي بكر الباقلاني

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم إليه من إيمان. والمتمم إحسانه بما أقامه لهم من جلي البرهان. الذي حمد نفسه^(١) بما أنزل من القرآن ليكون بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وهاديًا إلى ما ارتضى لهم من دينه، وسلطانًا أوضح وجه تبيينه، ودليلاً على وحدانيته، ومرشدًا إلى معرفة عزته وجبروته، ومفصلاً عن صفات جلاله، وعلو شأنه، وعظيم سلطانه، وحجة لرسوله الذي أرسله به، وعلماً على صدقه، وبينة على أنه أمينه على وحيه، وصادع بأمره، فيما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحملة، ورسالة تشتمل

(١) أي أن الله - سبحانه - قد حمد نفسه في القرآن المجيد.

حيث وردت فيه آيات كثيرة تحتوي على حمد الله ﷻ. منها ما في أوائل السور. من مثل قوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ فاتحة الفاتحة. وقوله - سبحانه -: ﴿لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فاتحة سورة الأنعام، وكذا فواع الكهف، وسبأ، وفاطر. ومنها ختام بعض السور، مثل سورة الزمر: ﴿وَرَبِّي الْمَلَكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الآية: ٧٥].

ومنها ما في أواسط السور مثل قوله - سبحانه - في سورة غافر: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَذَّبُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الآية: ٦٥]. لكن هذا المعنى كان يقتضي أن تكون الصلة «في» وليس «الباء» فيقال: «الذي حمد نفسه فيما أنزل» أما وقد جعل المؤلف الصلة بالياء التي تفيد السببية، فإن المعنى يكون: الذي حمد نفسه بسبب إنزاله القرآن الذي هدى الناس إلى الدين القويم، وأقامهم على الصراط المستقيم. وضمن لهم السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. وبسبب ذلك تلهج ألسنة الخلق بحمد الله - تعالى - والثناء عليه. في كل لحظة وحين، كما قال الرسول ﷺ: ﴿لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ..﴾ فكان الله - سبحانه - قد حمد نفسه لما أنزل على الناس ما بسببه حمدوه.

على تصحيح قول مؤديها. بين فيه - شُبْحَانَهُ - أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بيّنة تعدوها، أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات^(١). ولذلك قال عز ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال ﷺ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [٤] ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [٥] [الحجر: ١٤، ١٥]...^(٤) فله الشكر على جزيل إحسانه وعظيم منته، والصلاة على سيدنا المصطفى وآله وسلم.

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كَشْفُهُ، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قوامًا، ولقاعدة توحيدهم عمادًا ونظامًا، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانًا، ولمعجزته ثبًا وحجة^(٥)، لاسيما والجهل ممدود الرواق شديد النفاق^(٦) مستوٍ على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس وأهله في

(١) يقرر المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أن الإيمان بأن القرآن كتاب الله الحق. بعث به النبي الحق، من الأمور الضرورية البديهية التي لا تحتاج إلى دليل، وأن المتشكك فيه كمن يشك فيما تراه عينه. ويشاهده بصره.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ٧.

(٣) سكرت؛ أي: فقدت القدرة على الإبصار؛ بسبب أن أعينهم سحرت، أو أنهم بجملتهم قد أصابهم السحر.

(٤) والمعنى في الآيتين أن المكذبين بالقرآن. الشاغبين عليه وعلى الرسول الذي بعث به. قد أنكروا الأمور الضرورية، وشككوا في الحقائق التي يشاهدونها بأبصارهم، فهؤلاء لا سبيل لهديتهم، ولا أمل في إيمانهم. وهكذا حال كل المعاندين الجاحدين.

(٥) يريد القرآن المجيد، فإن الاشتغال به يجب أن يكون في المقدمة من اهتمام المسلمين.

(٦) وصف الجهل بأنه شديد النفاق كناية عن انتشاره وشيوعه وصعوبة القضاء عليه.

وأصل هذا الوصف إما من قولهم: «سلعة نافقة» أي رائجة مطلوبة، و«نفقت المرأة» أي كثر خطابها، بمعنى أن النفاق شاع وذاع وأضحى محل إقبال الناس.

جفوة الزمن البهيم^(١)، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم^(٢) حتى صار ما يكابدونه قاطعًا عن الواجب من سلوك مناهجه، والأخذ في سبله. فالتناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته. فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وقد قل أنصاره^(٣)، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عادوا على مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائل قال: إنه سحر، وقائل يقول: إنه شعر، وآخر يقول: إنه أساطير الأولين، وقالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٤) إلى الوجوه التي حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا فيه، وتكلموا به، فصرفوه إليه.

= وإما من الأصل الذي اشتقت منه كلمة «نفاق» وهي جحرة اليربوع أو بيت اليربوع، فإن اليربوع يجعل لبيته باين يظهر أحدهم ويطم الآخر ويخفيه. فإذا جنته من الظاهر هرب من الذي أخفاه. والعرب تسمي بيت اليربوع أو جحرتة «ناقء اليربوع» ومنه اشتقت لفظة «نفاق» لما أن المنافق صاحب وجهين يظهر أحدهما ويخفي الآخر.. وكلمة «نفاق» لم تكن معروفة لدى العرب قبل الإسلام في المعنى الذي أطلقها الإسلام عليه، فإطلاق هذه الكلمة على من يظهر الإسلام ويطم الكفر، وعلى كل من له وجهان، ظاهر يبيده للناس، وباطن يخفيه عنهم، إطلاق إسلامي لم يكن معروفًا لدى العرب قبل الإسلام.

(١) أي الذي فسدت أمور الناس فيه وسدت السبل إلى إصلاحه.. والبهيم: هو اللون الخالص الذي لا يخالطه لون آخر، سواذا كان أو غيره، وغلب إطلاقه على اللون الأسود إذا جاء وصفًا لليل.

(٢) أي الكريه الوجه. وأصل المادة «شتم» للدلالة على كل كرية بغيض، وإنما سمي الكلام المحتوي على السب والنقص «شتما»؛ لأنه كلام كرية بغيض.

(٣) الضمير للقرآن العظيم.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١. والآية اشتملت أيضًا على قولهم: أساطير الأولين التي أشار إليها المؤلف.. وتام الآية: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِنَّ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وذكر لي بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى ذلك حتى يفضله عليه، وليس هذا ببديع^(١) من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم، إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف في نفسه الحق بغريزة طبعه، وقوة إتقانه لا لتصرف لسانه، بل لهداية ربه، وحسن توفيقه. والجهل في هذا الوقت أغلب، والمليحدون فيه عن الرشد أبعد، وعن الواجب أذهب، وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده، من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يسيطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه فهو أحق بكثير ممن صنفوا فيه، من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأعراض^(٢)، وكثير من بديع الأعراب وغامض النحو^(٣). فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب. وقد قصر بعضهم في هذه المسألة، حتى أدى ذلك

(١) أي: جديد غريب. والأصل أن الإبداع في اللغة هو إيجاد الشيء على غير مثال سابق. وكلمة «بديع» صيغة مبالغة من الفاعل مثل: قدير، وعليم، وسميع. ومن ذلك قوله - سُبحَانَهُ -: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: بعض آية: ١٠١]؛ أي: موجدتهما وخالقهما على غير مثال سابق.

(٢) يشير إلى علماء الكلام الذين أغرقوا في تصنيف المطولات، وأجهدوا أنفسهم - والناس من بعدهم - في وضع المتون وشروحها حول الألفاظ الدخيلة من أمثال: الجوهر، والعرض، والجزء الذي لا يتجزأ، إلى غير ذلك مما لا طائل وراءه، وتركوا العناية بالقرآن المجيد وبيان أوجه إعجازه، والدفاع عنه ضد المشككين والطاعنين الذين لا يخلو من ضلالهم زمان.

(٣) يشير إلى علماء اللغة، ممن ألفوا المطولات في النحو والبيان، وإن كان أمر هؤلاء مختلفاً عن أمر علماء الكلام. فإن العناية باللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان أمر مطلوب، والحاجة إليه ماسة في فقه اللغة العربية، بل هو آلة من الآلات الكاشفة عن أوجه إعجاز القرآن، فلاشتغال بذلك هو من باب الاشتغال بالقرآن.

إلى تحول قوم منهم إلى مذهب البراهمة فيها، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصره هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها، ولا وجه لها، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنّفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفى في وجهه، قد أخلّ بتهديب طرقه، وأهمّل ترتيب بيانه^(١)، وقد يُعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المآخذ.

وإذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول في هذا الشأن. وقد صنّف الجاحظ في «نظم القرآن» كتابًا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى.

وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرج للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم، من الطعن في وجه المعجزة. فأجبناه إلى ذلك^(٢)، متقربين إلى الله ﷻ، ومتوكلين عليه، وعلى حُسن توفيقه ومعونته. ونحن نبين ما سبق في البيان من غيرنا ونشير إليه، ولا نبسط القول، لثلا يكون ما ألفناه مكرراً ومقولاً، بل يكون مستفاداً من

(١) يشير إلى أن بعض الذين اشتغلوا بعلم الكلام، وعلوم اللغة قد بذلوا جهوداً في الاشتغال بالقرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه. لكن المنطلع على وجودهم يجدهم قد برعوا وبلغوا الغاية في علومهم الكلامية واللغوية، بينما جهودهم في علوم القرآن وبيان إعجازه جهود ضعيفة متهافئة. ولعل المؤلف هنا يشير إلى الكتاب الذي وضعه الجاحظ في بيان أوجه إعجاز القرآن، وسماه «نظم القرآن»، وسوف يرد ذكره في الفقرة التالية.

(٢) يبين السبب الذي دعاه لتأليف الكتاب الذي بين أيدينا، وأن بعض المشتغلين بالقرآن، المهتمين بالبحث عن أسرار إعجازه لما لم يجدوا بغيتهم فيما وضعه السابقون لجأوا إليه طالبين أن يكتب لهم مبيّناً أوجه الإعجاز وأسراره.

جهة هذا الكتاب خاصة. ونضيف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع، ثم ما اختلف به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب، وغير ذلك من مجال الخطاب، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصيل، وتقصد فيه البلاغة؛ لأن هذه أمور يتعمل لها في الأغلب، ولا يتجاوز فيها، ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم، والتفاوت فيه أكثر؛ لأن التعمل فيه أقل، إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنع وتكلف. ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق، ليعرف عظم محل القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشبهه ذلك على متأمل. ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، وأردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً، وعن وجه اللسان غافلاً؛ لأن ذلك مما لا سبيل إليه^(١)، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليها مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين، وإنما ضمن الله ﷻ في البيان لمثل من وصفناه، فقال:

(١) بين المؤلف أنه لم يضع كتابه هذا لجميع القراء على اختلاف ثقافتهم وتنوعها. وإنما وضعه لفئة خاصة من القراء، وهم الذين لهم صلة وثيقة باللغة العربية وعلومها من نحو وصرف وأدب وبلاغة وبيان. فهؤلاء فقط يمكنهم أن يقرأوا كتابه ويفيدوا منه. أما الذين لا صلة لهم بالعربية، أو من كانت صلتهم بالعربية واهية فلن يفيدوا من كتابه ولن يفهموه..

وهذا صحيح تماماً، لأن الرجل وضع كتابه في إعجاز القرآن، والبحث فيه سيكون منصفاً على اللغة وأسرارها. ومن ثم لن يفهمه إلا من له باللغة صلة وثيقة.

﴿ كَتَبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].
 وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة
 الزخرف: ٣]^(١).

* * *

(١) والرجل يستدل بهاتين الآيتين - وأمثالها في القرآن كثير - على أن إدراك أسرار القرآن وفهم معانيه لا يتيسر إلا لقوم يعلمون أسرار العرية كما في الآية الأولى، ولمن يعقل معانيه ومراميها كما في الآية الثانية.

فصل

أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا ﷺ بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة، ونقل بعضها نقلًا متواترًا يقع به العلم وجودًا، وبعضها مما نقل نقلًا خاصًا، إلا أنه حُكي بمشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حُكي لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر أصل النقل فيه، وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، وكان وقوعه بين يدي الآحاد^(١). فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين^(٢)، وبقيت بقاء

(١) يشير المؤلف هنا إلى معجزات الرسول ﷺ غير القرآن، ويبين منزلتها من التواتر وغيره. وقد أشار إلى أنها - من هذه الحثيثة - ثلاثة أنواع:

أ - معجزات متواترة: وهي التي نقلت على سبيل التواتر اللفظي، وذلك يتحقق إذا نقلنا في كل طبقة من الرواة جماعة يحيل العقل تواطؤهم على الكذب، وهذا النوع من التواتر اللفظي يوجب العلم ويفيد اليقين، وهو حجة قاطعة على من اطلع عليه وعرفه، ولا سبيل لإنكاره، ومن أنكره كان جاحدًا ومعاندًا.

ب - معجزات نقلها عدد كثير لكن بألفاظ مختلفة، فالتواتر اللفظي لم يتحقق، وإن كان المحتوى والمضمون واحد، وهذا يلحق بالحكم في النوع الأول؛ إذ إنه يفيد التواتر المعنوي، والتواتر المعنوي حكمه حكم التواتر اللفظي، وإن كان اللفظي في المرتبة الأولى.

ج - معجزات لم تنقل بطريق التواتر اللفظي أو المعنوي، وإنما نقلت بطريق الآحاد، وذلك كالمعجزات التي وقعت من الرسول ﷺ بحضور عدد قليل لا يتحقق بهم التواتر، وأخبار الآحاد مفيدة للعلم عند علماء السنة والجماعة، وإنما شُغِبَ عليها وأنكرها في العقائد جمهور المعتزلة وكثير من علماء الكلام، ولا عبرة بما ذهبوا إليه.

(٢) المراد بالثقلين: الجن والإنس. ومنه قوله - تعالى -: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَيْنِ﴾ ﴿١٧﴾ =



العصرين^(١).

ولزوم الحجّة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد^(٢)، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالتة، فيغني ذلك عن نَظَر مجدد في عَجْز أول^(٣) العصر عن مثله، وكذلك قد يغني عَجْز أهل

[الرحمن: ٣١]. وإنما عمت معجزة القرآن الجن والإنس لأنهما الصنفان المكلفان من خلق الله - تَعَالَى - برسالة محمد ﷺ.

والأصل أن الله - تَعَالَى - قد خلق من أصناف العقلاء أربعة: صنف يطيع ولا يعصي وهم الملائكة، قال - تَعَالَى - فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وصنف يعصي ولا يطيع، بذلك سبقت كلمة الله فيه، وهم إبليس وذريته الشياطين. قال - تَعَالَى - مخاطبًا إبليس - لَقِنَهُ اللَّهُ :: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٣٥]. وصنفان فيهما الطاعة والعصيان، وهما المكلفان برسالات الرسل وخاتمهم محمد ﷺ وهما الثقلان: الجن والإنس.

(١) كلمة: «العصر» إذا أفردت دلت على فترة زمنية معينة، قد تقصر حتى جزء من النهار كالفترة بين انكسار الشمس ناحية الغروب حتى غروبها، فهذه الفترة تسمى العصر ومنها سميت صلاة العصر، وقد تطول حتى تشمل عهدًا من عهود التاريخ مثل: عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الخلفاء الراشدين.. أما إذا ثبتت فإنها تعني: الليل والنهار، وهو المعنى الذي قصده المؤلف. أما إذا جمعت فإنها تعني الأحقاب التاريخية المتتالية المتتابعة. مثل: عصور ما قبل التاريخ.

(٢) أي أن التحدي بالقرآن الكريم قائم منذ نزول القرآن وتحدى الله - تَعَالَى - به الخلق حتى قيام الساعة، فليس التحدي به مقصورًا على عهد نزوله، وهذا التحدي بالقرآن لا يعتوره تغير، فهو قائم على مستوى واحد ودرجة ثابتة. في زماننا مثل ما كان في زمان نزوله.

(٣) يبدو أن هاتين اللفظتين نقلتا خطأً. والصواب فيهما: «في عجز أهل العصر» كما أثبتتها المؤلف في السطر التالي مباشرة بعد بضع كلمات. والمقصود به «أهل العصر الأول» عصر النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

والمقصود به «أهل هذا العصر» العصر الذي وجد فيه المؤلف ووضع فيه كتابه هذا. وقد عاش المؤلف في القرن الرابع الهجري وتوفي عام ٤٠٣ هـ.

هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول^(١). وإنما ذكر هذا الفصل لما حُكي عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه. ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم. ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه، فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله - تَعَالَى - حين ابتعثه^(٢) جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه، سور كثيرة، وآيات نذكر بعضها، ونبهه بالمدكور على غيره، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه.

فمن ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾^(٣) فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة. وقال ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾^(٤)، فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، وقال ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٢٢ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٢٣﴾^(٥). وهذا يبين جدًا فيما قلناه، من أنه

(١) لما كان القرآن المجيد قد تحدى الله - تَعَالَى - به الخلق منذ نزوله وحتى قيام الساعة. فإن هذا يعني أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله في كل العصور وليس في عصر دون عصر ولأن الناس متقاربون في القدرات والإمكانات، والمعجز يشملهم جميعًا عن الإتيان بمثل القرآن؛ فإن الباحث في إعجاز القرآن من يعلم أن أهل العصر الأول - عصر الرسول ﷺ - قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك يغنيه ويكفيه مؤنة البحث في أهل العصور التالية، وهل عجزوا أم لا، فإن عجز الناس في عصر من العصور عن الإتيان بمثل القرآن دليل كاف على عجزهم عن ذلك في كافة العصور.

(٢) المراد: بعث الرسول ﷺ غير أن «ابتعث» تختلف عن (بعث) في أنها تفيد النشاط والاندفاع في تلبية الأمر والسرعة في تنفيذه.

(٣) سورة إبراهيم السجدة الآية: ١، ٢.

(٤) سورة التوبة. جزء الآية: ٦.

(٥) سورة الشعراء. الآيات: ١٩٢ - ١٩٤.

جعله سببًا لكونه منذرًا، ثم أوضح ذلك بأن قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٥٠﴾﴾^(١)، فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة^(٢) إلا وقد أشبع فيها ما قلناه، ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، وكثير من هذه السور إذا تأملته، فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته.

فمن ذلك سورة المؤمن، قوله ﷻ: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾^(٣) ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾^(٤)، ثم إلى أن قال: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٥)، فدل على أن الجدل في تنزيله كفر وإلحاد. ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسالتها بقوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١﴾﴾^(٦) إلى آخر الآية، فتوعدهم بأنه أخذهم في الدنيا بذنبيهم في تكذيب الأنبياء. ورد براهينهم، فقال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٧﴾﴾^(٧). ثم توعدهم بالنار فقال: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٨﴾﴾^(٨). ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم، وما

(١) سورة الشعراء. الآية: ١٩٥.

(٢) الحروف المقطعة في أوائل السور تبلغ أربعة عشر حرفًا. وقد تدرجت في أوائل السور من حرف واحد حتى خمسة أحرف. فالحرف الواحد مثل: ص، ن. والحرفان مثل: طه، حم، يس. والثلاثة أحرف مثل: ألم، الر. والأربعة أحرف مثل: المص، المر. والخمسة أحرف مثل: كهيعص، أول مريم، حم عسق، أول الشورى.

(٣) سورة غافر. الآيتان: ١، ٢، وتسمى أيضًا: سورة (المؤمن) ويقال أيضًا: سورة مؤمن آل فرعون.

(٤) سورة غافر. الآية: ٣.

(٥) سورة غافر. بعض الآية: ٤.

(٦) سورة غافر. بعض آية: ٥.

(٧) سورة غافر. بعض آية: ٥.

(٨) سورة غافر. آية: ٦.

وعدهم عليه من المغفرة فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾^(١)، فلولا أنه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه، ولم يحمد المؤمنين على المصير إليه، ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة للمؤمنين.

ثم عطف على وعيد الكافرين، فذكر آيات، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾^(٢)، فأمر بالنظر في آياته وبراهينه، إلى أن قال: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴿١٥﴾﴾^(٣)، فجعل القرآن والوحي به كالروح؛ لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولأنه لا فائدة للجسد بدون الروح، فجعل هذا الروح سبباً للإنذار، وعلماً عليه، وطريقاً إليه^(٤)، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الإنذار والإخبار عما يقع عند مخالفته، ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عن ردهم دلالته من الوعيد حجة، ولا معلوماً صدقه، فكان لا يلزم قبوله، فلما خلاص من الآيات في ذكر الوعيد على ترك القبول ضرب لهم المثل

(١) سورة غافر. الآية: ٧.

(٢) سورة غافر. بعض الآية: ١٣.

(٣) سورة غافر. الآية: ١٥.

(٤) وردت كلمة «الروح» في القرآن العظيم بمعان عدة:

- منها ما به الحياة. من ذلك قوله - تعالى - عن آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلٰٓصِلٍ مِّن حَمَلٍ مَّتَّسِتُونَ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سٰٓجِدِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].. وهذه الروح هي التي وسوس اليهود للمشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عنها، فلما سأله المشركون عنها أنزل الله - تعالى - في شأنه قوله - سبحانه -: ﴿وَرَبِّتَلُوٰنَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

- ومنها أمين الوحي وسفيره جبريل عليه السلام. من ذلك قوله ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

﴿١٩﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

- ومنها القرآن العظيم تشبيهاً له بالروح التي تكون بها الحياة، فكما أن الروح تكون بها =

بمن خالف الآيات، وجحد الدلالات والمعجزات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى آخر الآية^(١)، ثم بين أن عاقبتهم صارت إلى السوآى، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات، وكانوا لا يقبلونها منهم، فعلم أن ما قدم ذكره في السورة بيّنه رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام، ومجيئهما بالبينات، ومخالفتهم حكمها^(٢)، إلى أن قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُتُبًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٣)، فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لا يقع

حياة البدن، فالقرآن الكريم به حياة القلب، بل به حياة البدن والقلب جميعًا. ومن ذلك قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

(١) سورة غافر. الآية: ٢١.

(٢) أورد الله - سبحانه وتعالى - قصص الماضين في سورة غافر من الآية: ٢١ وحتى الآية: ٥٤. على ثلاث صور:

الأولى: صورة مجملة تمامًا. في الآيتين: ٢١، ٢٢. وفيهما أجمل الله - تعالى - قصص الأمم الماضية مع رسلها. وقد جمع الله - سبحانه - هذه القصص في أمور ثلاثة:

أ - إتيان الرسل - صلوات الله عليهم - أممهم بالبينات والهدى من قبل الله - تعالى - .

ب - تكذيب الأمم رسلهم بما جاءوهم به من العقائد والشرائع.

ج - أخذ الله - سبحانه - الأمم بذنوبهم وإنزاله شديد العقاب بهم.

الثانية: صورة بين التفصيل والإجمال، وذلك في الآيتين: ٣٤، ٣٥ حيث ورد الحديث فيهما عن نبي الله يوسف عليه السلام ومجيئه قومه بالبينات، وتكذيب قومه إياه وزعمهم أنه آخر الرسل وأن الله لن يعث من بعده رسولاً، وكيف عاقبهم الله - تعالى - بأن طبع على قلوبهم التكبر بطابع الكفر فأضلهم وأعمى أبصارهم.

الثالثة: صورة مفصلة. في الآيات من ٢٣ حتى ٥٤ عدا آيتي: ٣٤، ٣٥.

وفي هذه الآيات أورد الله - تعالى - قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه.

(٣) سورة غافر. الآية: ٣٥.

بحجة، وإنما يقع عن جهل، وأن الله يطبع على قلوبهم، ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجهودهم^(١) وعنادهم واستكبارهم. ثم ذكر كثيرًا من الاحتجاج على التوحيد^(٢)، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ ﴿١٩﴾^(٣).

ثم بين هذه الجملة، وأن من آياته الكتاب، فقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾^(٤) إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٥)، فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضروري، وأنها إذا جاءت ارتفع التكليف، ووجب

(١) في كلام المؤلف الفاضل نظر. حيث قرر أن يوسف عليه السلام وقوم موسى عليهم السلام كانوا يجادلون عن «جهل»، ثم وصفهم بأنهم «جاحدون» بقوله: «الجهودهم». والحق أن الجهود لا يجتمع مع الجهل، بمعنى أن الجهود لا يكون عن جهل، وإنما يكون عن علم بالحق ومعرفة به. فالذين يجادلون عن جهل لا يوصفون بالجهود، وإنما الجاحدون هم الذين يعرفون الحق ثم ينكرونه رغم معرفتهم إياه عنادًا واستكبارًا. وقد كانت هذه حال مشركي مكة. حيث كانوا يعرفون صدق رسول الله ﷺ فيما جاءهم به، ولكنهم جحدوا ذلك وكذبوه ظلمًا وعلوًا واستكبارًا، وقد وصف الله - تعالى - حالهم تلك لرسوله ﷺ بقوله: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُجَادِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكذلك أخبر الله - تعالى - عن حالهم تلك بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أي أن أنفسهم مستيقنة بصدق رسالة محمد ﷺ، فليسوا يعلمون صدقها فقط، بل يعلمونها علم اليقين. ورغم ذلك جحدوها بسبب ظلمهم واستعلائهم..

(٢) الدعوة إلى التوحيد في السورة الكريمة تركزت في الآيات من: ٥٤ وحتى ٧٤ في مجموعة آيات متتابعات، وإلا فالدعوة إلى التوحيد مبثوثة في ثنايا السور كلها. بل في القرآن العظيم جميعه، ولا تخلو سورة من تلك الدعوة التي هي لب الدين وجوهره.

(٣) سورة غافر. الآية: ٦٩.

(٤) سورة غافر. الآية: ٧٠.

(٥) سورة غافر. جزء الآية: ٧٨.

الإهلاك، إلى أن قال: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾^(١)، فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف^(٢)، وحققت العقوبة على الجاحدين. كذلك ذكر في حم السجدة^(٣)، على هذا المنهاج الذي شرحنا، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْسَدُوا وَآنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٤)، فلولا أنه جعله برهاناً لم يكن بشيراً نذيراً، ولم يختلف بأن يكون عريثاً مفصلاً أو بخلاف ذلك، ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله - تعالى -: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمًّا لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٥)، ولولا أنه حجة لم يضرها الإعراض عنه. وليس لقاتل أن يقول: قد يكون حجة ويحتاج في كونه حجة إلى دلالة أخرى، كما أن الرسول حجة ولكنه يحتاج إلى دلالة على صدقه، وصحة نبوته، وذلك أنه إنما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجة غيره^(٦)، وبين

(١) سورة غافر. جزء الآية: ٨٥.

(٢) المراد بالآيات التي يزول التكليف عند مجيئها هي أشرطة الساعة الكبرى. من مثال ظهور الدابة التي قال الله - تعالى - في شأنها: ﴿وَإِنَّا وَقَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. وكذلك خروج الشمس من مغربها. فإن هذه الآيات حين تجيء يختم على كل نفس بما كانت عليه. ويفلق باب التوبة. ويحق القول على كل إنس وجن بما كان منه قبل ذلك.

(٣) في القرآن العظيم سورتان باسم «السجدة». الأولى: التي بعد لقمان وقبل الأحزاب. وترتيبها بين سور القرآن المجيد الثانية والثلاثون. والثانية: التي بعد غافر وقبل الشورى. وهذه تسمى «فصلت» ويفرق بينهما بذكر فاتحة كل منهما من أحرف المعجم. فيقال في الأولى: «ألم السجدة» ويقال في الثانية «حم السجدة».

(٤) سورة فصلت التي هي حم السجدة.. الآيات: الأولى، والثانية، والثالثة، وبعض الرابعة. (٥) السورة نفسها: بقية الآية الرابعة.

(٦) حاصل الكلام: أنه قد يعترض البعض بأن القرآن محتاج إلى دليل يدل على أنه حجة. وهذا الدليل يجب أن يكون من خارج القرآن وليس منه. مثل الرسول ﷺ، فإنه حجة على الذين بعث إليهم، لكن كونه حجة احتاج إلى دليل يدل على ذلك سوى الرسول، وهو القرآن. فكما أن الرسول ﷺ حجة وقد احتاج إلى دليل على كونه حجة، فكذلك القرآن المجيد حجة، وهو محتاج إلى دليل من خارجه يدل على تلك الحجية. =

ذلك أنه قال عقيب هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(١)، فأخبر أنه مثلهم لولا الوحي، ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

= والكلام على ما أثاره المؤلف الفاضل من عدة وجوه:

أولاً: أن ما أثاره الاعتراض من أن كل حجة تحتاج إلى دليل يدل على حجيتها، كلام صحيح. لكن ليس يلزم أن يكون الدليل من خارج الحجة نفسها، بل قد يكون في ثناياها. مثل القرآن الكريم. فالدليل على كونه حجة للرسول ﷺ ومعجزة له تدل على صدق دعواه النبوة، موجود داخل القرآن وفي ثنايا آياته، وذلك متمثل في أوجه إعجازه التي لا تكاد تحصى، فإعجازه البياني، وإخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلية، وخلوه من الاختلاف على طوله وتنوع أغراضه وكثرة موضوعاته، إلى غير ذلك من الأوجه التي هي دلائل على كونه معجزاً، وعلى أنه من عند الله رب العالمين. تأييداً لسيد الأولين والآخرين.

ثانياً: الزعم بأن كل حجة تحتاج إلى حجة أو دليل يؤكد حجيتها زعم يؤدي إلى تسلسل الحجج تسلسلاً لا نهاية له. وهو تسلسل باطل. وما يؤدي إلى الباطل باطل. ثالثاً: الرسول ﷺ حجة على الذين أرسل إليهم وبلغتهم دعوتهم. والرسول ﷺ أيده الله - تعالى - بآيات وحجج تدل على صدقه في دعوى النبوة مثل المعجزات. ومعجزة المعجزات القرآن العظيم. وهذه الحجج المؤيدة لرسول الله ﷺ هي خارج عن شخصه، ومنفصلة عن ذاته، لكن هذا لا يعني أن رسول الله ﷺ ليست له حجج من ذاته. فإن المدقق في سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها يجد أن حياته قبل البعثة وسيرته هي في حد ذاتها حجة من أقوى الحجج على صدق دعوته. فظهره وعفافه ونقاؤه واستقامته وأمانته في مجتمع يقوم على الزنا والسكر والعصبية والظلم، مقياس العلاقات فيه قول الشاعر: «وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ» ثم استقامته على أخلاقه العظيمة طوال أربعين عاماً أو تزيد. دون أن يقارف شيئاً من جهالات بيته حتى قيل: إنه الصادق الأمين. وحتى قبل أشياخ قريش تحكيمه عليهم في قضية الحجر الأسود المشهورة، وهو فتى حديث السن في مجتمع للسن فيه المنزلة والمكانة، كل ذلك وغيره حجة من ذات الرسول ﷺ كان من شأنها أن تكفي دليلاً على صدقه لدى الناس جميعاً لو كانوا يعقلون.

(١) سورة فصلت. الآية: ٦. وكذلك بعض الآية: ١١٠ خاتمة سورة الكهف.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾^(١)، ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل، وعرفوا هذه الحجة، ثم تصرف في هذا الاحتجاج على الوجدانية والقدرة^(٢)، إلى أن قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾^(٣)، فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد وثمود في الدنيا^(٤). ثم توعدهم بأمر الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٤﴾﴾^(٥) إلى انتهاء ما ذكره فيه. ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَى فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾^(٦). ثم أتى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا ﴿٧﴾﴾^(٧). ثم قال: ﴿وَلِئَمَا يَبْزَغَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾﴾^(٨)، وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف إعجاز القرآن، وأنه دلالة على جهة الاستدلال؛ لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان^(٩)، ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل في

(١) سورة فصلت. الآية: ٨. وممنون: منقوص أو مقطوع أو مسحوب. وقد ورد نفس المعنى في آيات كثيرة بنفس الألفاظ تقريباً: مثل قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٢٥]، وقوله - سبحانه -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [التين: ٦].

(٢) الاحتجاج على الوجدانية والقدرة مبثوث في السورة كلها. ولكن المؤلف الفاضل يشير إلى الآيات من ٩ - ١٢.

(٣) سورة فصلت. الآية: ١٣.

(٤) سورة فصلت. من الآية: ١٣ وحتى الآية: ١٨.

(٥) سورة فصلت. الآية: ١٩.

(٦) سورة فصلت. الآية: ٢٦.

(٧) سورة فصلت. بعض الآية: ٣٠.

(٨) سورة فصلت. الآية: ٣٦.

(٩) في كلام المؤلف الفاضل نظر؛ فإن القرآن المجيد حجة على صدق النبي ﷺ. وحجة القرآن، وكونه معجزاً أمر ثابت على مستوى الضرورة والاستدلال جميعاً، وليس على مستوى الاستدلال فقط كما ذهب المؤلف - رجحه الله تعالى - ..

= أما كون القرآن العظيم حجة ومعجزة على جهة الضرورة؛ فذلك ثابت من سيرة المشركين الذين كانوا يسمعون القرآن فيذهلون ويفجأون، ويدركون مباشرة وللوهلة الأولى أنه ليس من كلام بشر، ثم يسلم ويؤمن منهم من شاء الله - تعالى - له الهداية، ومنهم من لم يشأ الله أن يهديه يذهب وقبيله يحثون عن تعلقه يتعللون بها في كفرهم فمن قائل: سحر، وقائل: شعر، وقائل: كهانة.. إلى آخر هذه الدعاوى التي كانوا هم أول من يعرف كذبها وبطلانها، وليست قصة الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن من رسول الله ﷺ ثم مسارعتة إلى منع الرسول من الاسترسال في القراءة، ثم خروجه إلى قومه يقرر أنه سمع كلاماً ما هو من قول البشر.. وكذلك قصة إيمان الفاروق عمر ابن الخطاب ؓ من أوضح الأدلة على أن إدراك إعجاز القرآن لا يحتاج إلى نظر واستلال، بل هو أدخل في باب الضرورات والبدهيات لدى من له معرفة بأساليب اللغة وأوجه استعمالاتها. وهل هناك أوضح على ذلك من لجوء المشركين إلى إثارة الضجيج واللغظ حول الرسول ﷺ حين كان يقرأ القرآن عند الكعبة خشية أن يسمعه الحاضرون فلا يملكون إلا أن يسلموا، ذلك الذي سجله القرآن في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٦٦] [فصلت: ٢٦]. وهذه الوقائع - وغيرها لا يحصى - دليل على أن القرآن معجزة وحجة لرسول الله ﷺ وإدراك ذلك إنما يقع بالضرورة، كما يقع بالنظر العقلي أو الاستدلال.

أما كون القرآن العظيم حجة ومعجزة على جهة الاستدلال؛ فإنما يكون ذلك - أكثر ما يكون - لهؤلاء الذين لا يدركون أسرار اللغة، وكذلك يجهلون مسيرة القرآن مع هذه الأمة، وآثاره البعيدة المدى في نفوس أفرادها سواء في إقبالهم على اعتناق الإسلام، أو في نشرهم الإسلام وجهادهم في سبيله بالنفس والمال.

أما دعوى المؤلف الفاضل: أن الضروريات لا يقع فيها نزغ فإنها دعوى تحتاج إلى إعادة نظر؛ لأن الشيطان ينزغ في الضروريات كما ينزغ في النظريات أو الاستدلالات. وهل كان نزغ الشيطان لأبي البشر آدم عليه السلام إلا في أمر ضروري بدهي؟ وهل طاعة الله فيما نهى، وترك الأكل من الشجرة التي نهى آدم وزوجه عن الأكل منها، بل عن الاقتراب منها وهل كان ذلك أمر يحتاج إلى نظر واستدلال؟ أليس أمراً بدهياً ضرورياً؟ ومع ذلك فقد نزغ الشيطان آدم وزوجه ودلاهما بغرور حين أطاعاه.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾^(١)، إلى أن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُبٌ عَرِيبٌ﴾^(٢) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٣). وهذا وإن كان متأولاً على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أفاصيص الأولين، وأخبار المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف^(٣) فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أبتأ أنها تقع في الثاني، فلا يخرج على أن يكون متأولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه ما يطله من شبهة سابقة تقدر في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالاته، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه^(٤).

ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ﴾^(٥)، فأخبر أنه لو كان أعجباً لكانوا يحتجون في رده: إما بأن ذلك خارج على عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه؛ لأنه ليس من شأنهم ولا لسانهم أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به، على ما نبينه في وجه هذا الفصل، إلى أن قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ

(١) سورة فصلت. بعض آية: ٤٠.

(٢) سورة فصلت. الآيات: ٤١، ٤٢.

(٣) أي أن كل ما أخبر القرآن المجيد من المغيبات في المستقبل قد وقع كما أخبر، لم يختلف من ذلك شيء.

(٤) بين المؤلف الفاضل المراد بقول الله - تَعَالَى -: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ من الآية السابقة. فهو يرى أن المراد بـ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي حين نزول القرآن. فلا يوجد ما يعارضه أو يظعن في إعجازه وقت نزوله. والمراد بـ ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ما بعد نزوله مستقبلاً حتى قيام الساعة. فلن يوجد ما يظعن في إعجازه أو يعارضه باعتباره الكتاب الإلهي المهيم.

(٥) سورة فصلت. بعض آية: ٤٤. والمراد بقوله - تَعَالَى -: ﴿ءَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ﴾ أي لو أنزل الله - سُبْحَانَهُ - القرآن أعجباً لاعترض المشركون وقالوا: أقرآن أعجمي ولساننا عربي؟

كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلَّ مَعَنَ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ ﴿١﴾.

والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سرود القول فيها^(٢)، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك.

ثم مما يدل على هذا^(٣) قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٧﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(٤)، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم، ويدل عليه قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾^(٥)، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾^(٦)، فدل على أنه جعل قلبه مستودعًا لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره، وكان له حكم دلالاته على تحقيق الحق وإبطال الباطل، مع صرفه عنه. ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها.

فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالاته على نفسه وصدقه^(٧) أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله - تعالى -، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد، ووصف مضاف إليها؛ لأن نظمها ليس معجزاً^(٨)، وإن

- (١) سورة فصلت. الآية: ٥٢.
- (٢) أي أن ما نبه عليه من أوجه الإعجاز في سورتي غافر وفصلت كاف في بيان ذلك في سور القرآن جميعها، فلا حاجة إلى ذكر شيء من السور الأخرى خشية الإطالة.
- (٣) أي على أن القرآن العظيم هو معجزة رسول الله ﷺ وآية على صدقه في دعوى النبوة.
- (٤) سورة العنكبوت. آية: ٥١ وبعض آية: ٥٢.
- (٥) سورة الفرقان. فاتحة السورة.
- (٦) سورة الشورى. بعض الآية: ٢٤.
- (٧) الضمير للقرآن العظيم.
- (٨) يقيم المؤلف الفاضل موازنة بين القرآن العظيم وغيره من الكتب السابقة عليه مثل التوراة =

كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزًا، وليس كذلك القرآن؛ لأنه يشار إليها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وحل في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك من يسمع

= والإنجيل، وذلك من حيث الإعجاز. فيقرر المؤلف أن القرآن وكذلك الكتب السابقة كلها معجز، وكلها حجج من الله - تَعَالَى - لرسله - صلوات الله عليهم - لكن القرآن المجيد يختلف عن الكتب السابقة في أن دليل إعجازه موجود فيه نفسه، وليس أمرًا زائدًا عليه؛ لأن نظم القرآن معجز، وإعجاز نظمه دليل على كونه من عند الله - تَعَالَى - .. أما الكتب السابقة فدليل إعجازها، وكونها من عند الله - تَعَالَى - ليس أمرًا في داخلها. وإنما دليل ذلك أمر خارج عنها وزائد عليها ومضاف إليها، لأن نظمها ليس معجزًا، ولأن الله - سُبْحَانَهُ - لم يتخذ القوم بهذه الكتب ويعجزهم أن يأتيوا بمثلها في النظم. هذا كلام المؤلف - رِجْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ..

لكن الأمر فيه نظر؛ فإن كتب الله - تَعَالَى - كلها معجز، وكل كتاب هو حجة للرسول الذي أنزل عليه. ودليل إعجاز كتب الله - تَعَالَى - كلها هو في داخلها وفي نفسها وليس خارجًا عنها - فيما نرى -، غير أن أوجه الإعجاز في كتب الله - تَعَالَى - كثيرة، من هذه الأوجه ما هو مشترك بين القرآن العظيم وإخوته من الكتب السابقة، ومنها ما هو خاص بالقرآن الكريم وحده. فمن الأوجه الإعجازية المشتركة بين الكتب كلها: اشتمالها جميعها على الإخبار بالمفيات سابقة ولاحقة، وأوضح مثال على ذلك اشتمالها كلها على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم اسمًا وصفة، وعلامات ظهوره زمانًا ومكانًا، وكذلك اشتمالها على التشريعات والأحكام التي تضمن السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وكذلك خلوها عن التناقض والاختلاف، إلى غير ذلك من الأوجه التي توجد في كتب الله - تَعَالَى - كلها، وهي أوجه موجودة داخل الكتب وفي ثناياها، وليست خارجة عنها. أما ما هو خاص بالقرآن الكريم؛ فذلك ما يتصل باللغة وأساليبها والنظم وأوجه التصرف فيه. ولقد أشار المؤلف - رِجْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إلى بعض أوجه الإعجاز التي هل داخل الكتب السابقة - وليست منفصلة عنها - حيث قال: «وإن كان ما يتضمنه - غير القرآن من الكتب - من الأخبار عن الغيوب معجزًا».

القرآن يعلم أنه كلام الله. وإن اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه؛ لأن موسى عليه السلام سمعه من الله تعالى، وأسمعه نفسه متكلمًا، وليس كذلك الواحد منا.

وكذلك قد يختلفان^(١) في غير هذا الوجه، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل، والذي نرومه الآن ما يبيننا من اتفاقهما في المعنى الذي وُصفنا، وهو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال^(٢).

(١) أي: القرآن الكريم والكتب السابقة.

(٢) أقام المؤلف الفاضل مقارنة بين معرفة موسى عليه السلام أن ما أنزل عليه من التوراة هو كلام الله - تعالى -، ومعرفة محمد صلى الله عليه وسلم أن ما أنزل عليه من القرآن هو كلام الله - سبحانه -.. فقرر المؤلف أن موسى عليه السلام عرف أن التوراة كلام الله بالضرورة وليس بالاستدلال؛ لأن موسى عليه السلام سمعها بنفسه من ربه - سبحانه -، فهو قد سمع كلام الله - تعالى - مباشرة، ثم بعد ذلك تلا الكلام على نفسه، فعلم أن ذلك الذي تلاه على نفسه هو كلام الله الذي سمعه من الله - تعالى - قبل ذلك.. قال المؤلف: «وليس كذلك الواحد منا».. أي أن القرآن لم يسمعه محمد صلى الله عليه وسلم من ربه، ولم يتكلم الله به إلى محمد كما وقع ذلك لموسى. ولذا لم يعرف محمد صلى الله عليه وسلم أن القرآن كلام الله ضرورة كما وقع ذلك لموسى، ولكنه علم ذلك عن طريق الاستدلال..

وقد سبق أن بينا أن إعجاز القرآن المجيد، وأن كونه حجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إدراك أنه كلام الله - تعالى - كل هذه أمور ثابتة على مستوى الضرورة أولاً، ثم على مستوى الاستدلال ثانياً.. ولسنا نعرف أو نتصور كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أن القرآن الذي ينزل عليه هو كلام الله - تعالى - إلا على جهة الاستدلال العقلي ونصب الأدلة النظرية؟ إن الله - سبحانه - يلهم الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك كل رسول أنزل عليه كتاباً أن ما يلقي عليه هو كلام الله حقاً، فيعلم الرسول علمًا ضروريًا يقينياً أن الذي يلقي عليه هو كلام الله وليس كلام غيره، ومحال أن يلتبس الأمر عليه في ذلك.

ولعل المؤلف - رحمه الله تعالى - قد استحضر في ذهنه حال الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاءه جبريل عليه السلام أول مرة في غار حراء وقرأ عليه فوائح سورة العلق. حيث أصيب الرسول =

* * *

ﷺ بالخوف والرهبة، وسارع إلى زوجه السيدة خديجة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - ليلقي إليها بما حدث، ويسألها النصيحة. وأن خديجة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - بعد أن طمأنته ذهبت به إلى ابن نوفل ورقة فسألاه النصيحة في ذلك.. والقصة أشهر من أن تذكر. نقول: لعل هذا الأمر هو الذي لبس على المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - حتى ذهب إلى أن الرسول لا يعلم أن القرآن الذي يلقي عليه هو كلام الله إلا بالدليل النظري. لكن الذي حدث حال البعثة في غار حراء كان مفاجئا له ﷺ، وكان شديداً وصعباً، ولم يكن الرسول ﷺ يستعلم عن الآيات التي أُلقيت عليه فقط، بل كان يستعلم عن الأمر برمته، فلما استقر الأمر وتتابع الوحي هدأت نفس النبي ﷺ وأنس إلى الوحي النازل عليه، بل إن السيرة النبوية الشريفة لتخبرنا بأن الرسول ﷺ كان يستوحش إذا فتر الوحي ويستشرف لتزوله.

فصل

في الدلالة على أن القرآن معجزة

قد ثبت بما بينا في الفصل الأول أن نبوة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن، فيجب أن نبين وجه الدلالة من ذلك.

وقد ذكر العلماء أن الأصل في هذا هو أن تعلم أن القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثاً وعشرين سنة^(١)، والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به، وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشبهه على أحد، ولا يحتمل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصابقة^(٢) لهم، كملك الروم والعجم^(٣) والقبط

(١) القول بأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ استغرق ثلاثاً وعشرين سنة هو الذي أطبق عليه جمهور العلماء. لكن هناك من يرى أن الوحي استغرق اثنتين وعشرين سنة، وهناك أقوال آخر. وهذا راجع إلى اختلافهم حول تحديد السن التي بعث عندها رسول الله ﷺ والثابت يقيناً أن رسول الله ﷺ ولد في ربيع الأول، وأنه ﷺ بعث في رمضان بعد أن أكمل من سنه الشريفة الأربعين. فهو قد بعث بعد أن أقضى من عمره الشريف أربعين عامًا وستة أشهر وبضعة أيام.. وهذا الذي عليه الجمهور، والأقوال الأخرى - بجانب أنها لا تمس جانباً هاماً من الرسالة النبوية الشريفة - لا تغل لها عند المحققين.

(٢) أي: المجاورة. من: «صَقَبَ» إذا اقترب ودنا. ومنه قولهم: الجار أحق بصقبه. أي بما يليه ويلاصقه. يقولونها في الشفعة التي هي حق الجار فيما يجاوره.

(٣) العجم: خلاف العرب، وإن عاش وسط العرب وتكلم العربية فهو أعجمي. فالكلمة بهذا المعنى تشمل كل الذين ذكرهم المؤلف الفاضل من: الروم والقبط والحيش وغيرهم ما لم يكونوا عربياً. لكن هناك من يطلق كلمة: «عجم» على الفرس خاصة. وهو نفس =

والحبش وغيرهم من ملوك الأطراف، ولما ورد ذلك مضاداً لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر، وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفصيله، وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير، إذ كان عمدة دينهم، وعلماً عليه، والمنفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم، ثم تناقله خلف عن سلف، ثم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا ما وصفنا من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك أحد مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله، فهذا أصل.

وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً فإننا نقول: أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم^(١) على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوك بذلك. والذي يدل على هذا الأصل أنا قد علمنا أن ذلك مذكور في القرآن، في المواضع الكثيرة، كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾^(٢)؛

= المعنى الذي قصده المؤلف الفاضل حيث ذكر الروم والعجم الذين هم «الفرس» والقبط والحبش.. والأصل في المادة أنها في الصمت وعدم الإصابة. ومن ذلك قولهم: «صلاة النهار عجماء».

(١) أي: أوجعهم باللوم والتوبيخ والتعنيف.

(٢) سورة البقرة. الآيتان: ٢٣، ٢٤.

والقرآن الكريم قد تحدى العرب أن يأتوا بما يماثله على مراحل ثلاث متتلاً معهم من مرحلة إلى مرحلة حتى وصل بهم إلى مستوى لا يمكن التنزل دونه. فقد تحداهم الله - تعالى - في كتابه الكريم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا. وذلك في قوله - سبحانه -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِدَلٍّ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ۚ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]. كذلك تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا عن ذلك. كما جاء في =

وكقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلُوبًا فَاتَّوُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَيْكُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾^(١). فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه، ودليلاً على وحدانيته، وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوجدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أو لا^(٢)، فقلنا إذا ثبت بما نبينه إعجازه وأن الخلق لا يقدر أن عليه، ثبت أن

= قول الله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلُوبًا فَاتَّوُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣]. ثم تحدهم أن يأتوا بسورة واحدة ولو من أصغر سورة، وذلك في قوله - سبحانه -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلُوبًا فَاتَّوُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس السجدة: ٣٨ وبعض آية: ٣٩]، وكذلك ورد التحدي في الآية التي ذكرها المؤلف في سورة البقرة، ورغم هذا التحدي، ورغم هذا التدرج معهم من القرآن كله. إلى عشر من سورة، إلى سورة صغيرة مثل سورة الكوثر، ورغم أنهم ادعوا أن في استطاعتهم أن يأتوا بمثله إن شاءوا. كما أخير القرآن المجيد في قوله: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١]. نقول: رغم كل هذا وذاك فإنهم عجزوا عن الإتيان بشيء مما يماثل القرآن أو يقاربه. ولجأوا إلى الطريق الأشق وهو القتال والتضحية بأنفسهم وأموالهم، ولو كان بإمكانهم أن يعارضوا القرآن بمثله أو شيء من مثله لفعلوا ذلك ووفروا على أنفسهم القتل والأسر، لكن لجوءهم إلى الطريق الأشق والأصعب دليل في وضوح الشمس على عجزهم، تصديقاً لقوله ﷻ: ﴿قُلْ لِيُنِزِلَ آيَاتُ الْإِنشِ وَالْحِجْرِ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَعِزُّ ظُهُورًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

(١) سورة هود. الآيات: ١٣، ١٤.

(٢) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إلى ما ذهب إليه بعض علماء الكلام من أن الاستدلال على وجود الله - تَعَالَى - وعلى وحدانيته لا يكون إلا من جهة العقل. ولا يصح أن يكون من جهة الشرع أو السمع، وحجتهم في ذلك أن الاستدلال على وجود الله - تَعَالَى - ووجدانيته من خلال القرآن يؤدي إلى الدور، وهو باطل لأن الإيمان بالقرآن كلاماً لله =

الذي أتى به غيرهم، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقاً، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من الوجهين^(١)، وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل؛ لأنه خارج عن مقصود كلامنا، ولكننا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه.

ومن ذلك قوله **عَلَيْكُمْ**:

﴿قُلْ لِيْنَ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰى اَنْ يَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهٖ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظٰهِرًا ﴿٨٨﴾﴾^(٢)، وقوله: **﴿اَمْ يَقُوْلُوْنَ نَقُوْلُكُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٣٣﴾﴾** فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صدقيك **﴿٣٣﴾﴾**^(٣).

فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله. وفي هذا أمران: أحدهما التحدي إليه، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل، والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين. **وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ**

= . تَعَالَى . متوقف على معرفة الله، وأنه منزله، فإذا توقفت معرفة الله . تَعَالَى . ووحدانيته على القرآن تم الدور، فيكون العلم بالقرآن متوقفاً على معرفة الله، ومعرفة الله متوقفة على معرفة القرآن. فيكون دوراً باطلاً.

وكلام علماء الكلام فيه نظر. ولا يخفى ما فيه من سفسطة ومغالطة، فإن كون القرآن معجزاً للبشر، دل على أنه من كلام غيرهم. وغيرهم لا يكون مثلهم. فثبت بالقرآن أنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام غيرهم وهو الله . سُبحَانَهُ وَتَعَالَى .، وقد أشار المؤلف الفاضل إلى أن معرفة الله . تَعَالَى . وأسمائه الحسنی وصفاته العلی يكون عن طريق القرآن وعن طريق العقل جميعاً. أو عن طريق السمع والعقل. وهو عن طريق السمع أولى، وعن طريق العقل أقطع، وليس هناك تعارض بين الطريقتين. ولا بين المعرفة الناتجة عنهما.

(١) أي: وجه السمع ووجه العقل.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) سورة الطور. الآيات: ٣٣، ٣٤.

عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان كذلك قولاً باطلاً، يعلم بطلانه، مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جمل، وأنه كتم وسيظهره المهدي^(١)، أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان - رضي الله عنهما - حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصاناً، وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه^(٢)، ووعد الحق. وحكاية قول من قال ذلك

(١) يشير المؤلف إلى ما يعتقد كثير من الشيعة في مصحف غير المصحف الشريف، يسمونه «مصحف فاطمة» نسبة إلى الزهراء ابنة الرسول - صلى الله وآله وسلم، ورضي الله - تعالى - عنها ..

وقصة ذلك المصحف - فيما يزعمه الشيعة - أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، و- رضي الله عنهما - بعد وفاة أبيها وقبل أن تلحق به لقيت من الأحزان والآلام ما لا يعلمه إلا الله - سبحانه -، وفي هذه الفترة - ما بين موت أبيها وموتها - كان جبريل عليه السلام ينزل عليها - بإذن ربه - ليجالسها طوال اليوم يواسيها ويسري عنها. وكانت وسيلة جبريل للتسرية عن السيدة فاطمة - رضي الله عنها - أن يحدثها بكل ما كان وما هو كائن وما سوف يكون، حدثها عما كان قبل ما يخلق الله السموات والأرض، وكيف خلقهما، ثم ماذا جرى من قصص الماضين تفصيلاً، ثم عما هو كائن، ثم عما سوف يكون، حتى عرفها آجال الناس وأرزاقهم، وأهل الجنة بأسمائهم وصفقتهم وأهل النار كذلك... إلى آخر ما يزعمون من هذا القبيل. قالوا: وبينما كان جبريل عليه السلام يحدث فاطمة بكل ذلك. كان علي عليه السلام يحرس على أن يجلس خلف باب الحجره يسمع من جبريل ويسجل كل ما يسمع، حتى انتقلت الزهراء - رضي الله عنها - إلى جوار ربها. فانقطع مجيء جبريل عليه السلام، لكن بعد أن تكوّن لدى الإمام علي عليه السلام مما نقل عن جبريل مصحف يعدل المصحف الشريف الذي أنزل الله - تعالى - على رسوله محمد ﷺ عدة مرات، قالوا وهذا المصحف خاص بالأئمة يتوارثونه إماماً عن إمام، حتى كان الإمام الثاني عشر غائب، فأخذ معه حين غاب، ويعود الإمام - حين يعود - ومعه ذلك المصحف الذي يعلم منه الأئمة أخبار الماضي والحاضر والمستقبل.. هكذا زعموا، والحق أحق أن يتبع.

(٢) يشير المؤلف الفاضل إلى قوله - سبحانه - في وعده بحفظ القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ =

يعني عن الرد عليه. لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الأسفار وفي الحضرة، وضبطوه حفظًا من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشبهه على أحد منهم حرف، لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا لظهر.

وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسها إلى القرآن، لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت، لا بل لو غير فيه لفظ، لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه، فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرئ القيس ونظائره، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن مع شدة الحاجة إليه في أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتغال الهمم المختلفة على ضبطه.

فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها^(١)، ومنهم من يحفظه للشرائع والفقهاء^(٢)، ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه^(٣)،

= وَإِنَّا لَمُرُّ لِحَفِظُونَ ﴿١٠﴾ [الحجر: ٩]. كما يشير إلى الآية الكريمة التي يقول الله - تعالى - فيها عن القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ عَذِيبًا لَّا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٠﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(١) يشير المؤلف الفاضل إلى علماء التجويد والقراءات. فإن علماء التجويد عملهم بيان كيفية أداء القرآن المجيد على الوجوه الشرعية الصحيحة، وعلماء القراءات همهم بيان أوجه القراءات الواردة للقرآن والمعتبرة شرعًا، وكلا التجويد والقراءات لا يكون إلا عن طريق التلقي تلقينًا من الشيخ لطلابه، ولا يصح فيه أبدًا الأخذ عن الكتب، وإلا تحول الطالب إلى حافظ لقواعد لا يدري كيفية تطبيقها.

(٢) يشير إلى علماء الفقه وأصوله. فإن عملهم هو استنباط الأحكام الفقهية وأدلتها الشرعية من القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة.

(٣) يشير إلى علماء التفسير الذين وقفوا أنفسهم على تفسير القرآن العظيم. كل حسب اتجاهاته وإمكاناته، فمنهم من يفسر القرآن العظيم بآثاره. أي يفسر القرآن بالقرآن =

ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة^(١)، ومن الملحدون من يحصله لينظر في عجب شأنه^(٢).

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم، أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟ وبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور، مما بيننا ومن نظائره، في ردّ قومه عليه^(٣) ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ دَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٤)، وقول بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلُقُ﴾^(٥). إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه:

فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الإتيان بمثله، ومنهم من يزعم أنه مفترى فلذلك لا يأتي بمثله.

ومنهم من يزعم أنه دارس وأنه أساطير الأولين، وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديه، لئلا يقع التطويل، ولو جاز أن يكون بعضه مكتومًا جاز على كله، ولو جاز أن يكون بعضه موضوعًا جاز ذلك في كله. فثبت بما بيناه أنه تُحَدِّي إليه،

= السنة. وذلك مثل تفسير: أبي حاتم، وابن كثير.

ومنهم من يفسره بالرأي، مثل تفسير الرازي والزمخشري، ومنهم من يخلط بين هذا وذاك من أمثال تفسير الطبري في ترجيحاته بين الآراء، ومنهم من يفسر بالرمز كابن عربي وأمثاله، وهؤلاء الأخيرون إنما يفسرون أنفسهم ولا يفسرون القرآن العظيم.

(١) يشير إلى علماء اللغة.

(٢) يشير إلى الملاحدة في كل زمان. وأشهرهم في زماننا العلمانيون والشيوعيون الذين إن نظروا في القرآن فإنما ليبحثوا عن مطعن أو ثغرة ينفذون من خلالها إلى الطعن في القرآن والإسلام، وهيهات أن يجدوا ضالتهم أو يمسخهم الله خزائير وقردة.

(٣) الضمير للرسول ﷺ، أي أقوالهم ومزاعمهم التي زعموها على تحدي القرآن الكريم لهم وكذلك ردود الملاحدة في كل زمان.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١.

(٥) سورة ص. بعض الآية: ٧.

وأنتهم لم يأتوا له بمثله، وفي هذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه، فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعدهم أن تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه. والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته، وتضمنت أحكامه استباحة دمايتهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكليف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم، علم أنهم عاجزون عنها، يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكاييد، لاسيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجبيء^(١) من خلع آلهته، وتسفيه رأيه في ديانته، وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته، والتصرف على حكم إرادته، والعدول عن إلفه وعادته، والانخراط في سلك الأتباع بعد أن كان متبوعاً، والتشيع بعد أن كان مشيئاً^(٢)، وتحكيم الغير في ماله، وتسليطه إياه على جملة أحواله، والدخول تحت تكاليف شاقة، وعبادات متعبة^(٣)،.....

(١) الضمير في (استعظامه) لكفار مكة، والضمير في «أبدعه» للرسول ﷺ أو للإسلام. والمعنى: أن كفار مكة استعظمو ما جاء به الرسول ﷺ أو ما جاء به الإسلام من خلع آلهتهم... إلى آخر الأمور التي ذكرها المؤلف.. ولفظه: «أبدعه» إشارة إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ أمور مستحدثة لم تكن معروفة لدى العرب قبلاً.

(٢) التشيع: المناصرة والتأييد والمتابعة. ومنه «الشيعة» أتباع علي بن أبي طالب ومؤيدوه ومناصروه وآل بيته من بعده - فيما يزعمون -.

(٣) أي أن الإسلام جاء إلى مشركي مكة بأمر شاقة كان كل منها سبياً في أن يعارضوا القرآن بمثله لو أنهم قدروا. الأول: أنه سفه أحلامهم، وسب آلهتهم، وطعنهم في أقدس ما يدافع عنه الإنسان بنفسه وماله وهو دينهم. الثاني: أن الإسلام كلفهم زعاماتهم التي

بقوله^(١).

وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعوا إلى سلب النفوس دونه. هذا والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة همهم، وقد بذلوا له السيف، وأخطروا بنفوسهم وأموالهم^(٢)، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه، وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهائية التي ليس وراءها مطلع، والرتبة التي ليس وراءها منزع^(٣)، ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله، وتفريق جمعه، وتشتيت أسبابه، وكان من صدق به يرجع على أعقابهم، ويعود في مذهب

= يفتخرون بها ويحرصون عليها، وقضى على مكاتتهم الاجتماعية، حيث حولهم من رؤساء إلى مرؤوسين، ومن متبعين إلى تابعين. الثالث: أن الإسلام وضع عليهم تكاليف شاقة من الصلاة والصيام والزكاة والجهاد.. إلى غير ذلك من الواجبات الشرعية التي يصاحبها التعب والمشقة. فلو كان في مقدورهم أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الأمور كلها بمقالة يقولونها يعارضون بها القرآن ويطلقون تحديه إياهم لفعلوا.

(١) كلمة: «بقوله» راجعة إلى عبارة المؤلف قبل ذلك ببيضة أسطر حيث قال: «يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه» أي يقصد لدفع قول عدوه بقوله هو.. فالجار والمجرور «بقوله» معمول للمصدر هناك الذي هو: «الدفع».

(٢) أي جعلوا أنفسهم وأموالهم عرضة للهلاك والضياح، وهو استعمال صحيح، ولو قيل: خاطروا لكان أولى. ومن معاني كلمة «أخطره» المقارنة والمراهنه فيقال: أخطر فلان لفلان، أي جعل نفسه غدلاً له وقريناً فبارزه وقاتله. ويقال: أخطر فلان لي وأخطرت له: تراهننا.

(٣) أي الرتبة العليا التي ليس وراءها رتبة ينزع إليها. أي يسمى إليها. ومن معاني نزع: السعي إلى الشيء، والكف عنه. فيقال: نزع إليه، أي سعى إليه واجتهد في تحصيله. ويقال: نزع عنه. أي كف ونقض منه يده. ومن معانيها إخراج الشيء من مكانه. قال - تعالى - عن موسى **الطَّيْرُ**: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨، الشعراء:

أصحابه، فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة، ووقوع الفسحة، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً، ويعلو شيئاً فشيئاً؛ وهم على العجز عن القدح في آيته، والطمع في دلالته، علم ما بينا أنهم كانوا لا يقدرّون على معارضته، ولا على توهين حجته. وقد أخبر الله - تعالى - عنهم أنهم قوم خصمون^(١)، وقال: ﴿وَسُيِّرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾^(٢)، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

وعلم أيضاً أن ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن، مما حكى الله ﷻ عنهم، ومن قولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤)، وقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٥)، وقالوا: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٦)، وقالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾^(٧)، وقالوا: ﴿أَيْنَا لَنَارِكُوا إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ نَجْتُنُّهُ﴾^(٨)، وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٩)، وقال الظالمون إن نتبعون إلا رجلاً

(١) أي في طبعهم حب المحاصمة مع الآخرين والسعي إلى ذلك. والخصم هو الذي يجب الخصام ويرع في أسبابه.

(٢) سورة مريم. بعض الآية: ٩٧، و(لُدًّا) جمع: لُدٌّ. والألد هو شديد العداوة التي ترتكز عداوته على حقد وضمينة، ولا يقف في عداوته عند حد.

(٣) سورة النحل: الآية: ٤، ومثل تلك الآية قوله - تعالى - من سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾^(٧) ٧٧.

(٤) سورة الأنفال. بعض الآية: ٣١.

(٥) سورة القصص. بعض آية: ٣٦.

(٦) سورة الحجر. بعض الآية: ٦.

(٧) سورة الأنبياء. بعض الآية: ٣.

(٨) سورة الصافات. بعض الآية: ٣٦.

(٩) سورة الفرقان. الآيتان: ٤، ٥.

مَسْحُورًا ﴿١﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٢﴾، إلى آيات كثيرة في نحو هذه الأمور، من تعليل وتعذير، ومدافعة بما وقع التحدي إليه، وعرف الحث عليه، وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، وجأهروه، ونابدوه، وقطعوا الأرحام، وأخطروا بأنفسهم. وطالبوه بالآيات والإتيان بغير ذلك من المعجزات، يريدون تعجيزه، ليظهروا عليه ﴿٣﴾ بوجه من الوجوه، فكيف يجوز أن يقدرُوا على معارضته القرية السهلة عليهم، وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه، من الأمور التي ليس عليها مزيد في المناظرة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاهه ﴿٤﴾ من العقلاء. وإلى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام، وأكثرُوا في هذا المعنى وأحكموه. ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته، والإتيان بمثل ما أتى به، لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة، وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة، والمعرفة بوجوه الفصاحة، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته، وأنهم يضعفون عن مجاراته، ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به

(١) سورة الفرقان. بعض الآية: ٨. وفي بعض الطبعات: (إن تتبعوا) وهو خطأ. والصحيح:

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾؛ لأن (أن) في الآية نافية وليست شرطية.

(٢) سورة الحجر. الآية: ٩١.

وقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أي فرقوه وجزأوه عضة عضة، أي أجزاء آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. فالتعضية هي التفريق والتقطيع. ومنه الحديث الشريف «لا تعضية في ميراث» أي لا تقسموا ما لا يحتمل القسمة أو القطع مثل السيف والرمح وغيرها. وقيل: إن العضة هي الكذب. وجعلهم القرآن عضيّن، أي جعلوه كذبًا. وجمع عضة: عضون. لكن الأول أولى. وعليه جمهور المفسرين.

(٣) أي لينتصروا عليه.

(٤) أي لا يتفق وقوع ذلك منهم مع كونهم عقلاء.

ويقرعهم ويؤنبهم عليه، ويدرك أماله فيهم^(١)، وينجح ما يسعى له بتركهم المعارضة، وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه، وتفخيم أمره، حتى يتلو قوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾^(٢)، وقوله: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٩١﴾﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾﴾^(٤)، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴿٩٦﴾﴾^(٥)، وقوله: ﴿لَذِكْرُكَ﴾^(٦)، وقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٧)، وقول: ﴿مَثَانِي﴾^(٨)، إلى غير ذلك من الآيات التي تضمن تعظيم شأن القرآن، فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها، ومنها ما ينفرد فيها، وذلك مما يدعوهم إلى المباراة، ويحضهم على المعارضة، وإن لم يكن متحدثاً إليه^(٩).

(١) أي يصل إلى ما يريد فيهم بإظهار عجزهم عن معارضة القرآن المجيد، وتأکید أن القرآن كلام الله الحق.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) سورة النحل. الآية: ٢.

(٤) سورة الحجر. الآية: ٨٧.

(٥) سورة الحجر. الآية: ٩.

(٦) سورة الزخرف. الآية: ٤٤.

(٧) سورة البقرة. بعض الآية: ٢.

(٨) سورة الزمر. بعض الآية: ٢٣.

(٩) الواقع أن القرآن كله قد وقع به التحدي، في جملة، وفي أبعاضه من السور والآيات. غير أن التحدي وقع صريحاً ومباشراً في مثل قوله - تَعَالَى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ. وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ووقع التحدي بطريق غير مباشر في كل آية من القرآن المجيد، حيث إن الله - تَعَالَى - قد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأصغر سورة يقع بها المعارضة هي سورة الكوثر. وقد ذهب العلماء إلى أن هذه المعارضة تتحقق أيضاً بآية في مثل سورة الكوثر.. فكل آية في مثل سورة الكوثر وما فوقها في الطول هو مما وقع به التحدي إما مباشرة، وإما ضمناً.

ألا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضًا، ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وأيام منقولة، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجحون بذلك، ويتفاخرون بينهم، فلن يجوز - والحالة هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحداهم إليها أو لم يتحدهم، ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر، وهو أنه لو كان مقدورًا للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، وتعمل نظمه في الحال، فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق، وخطبة متقدمة، ورسالة سالفة، ونظم بديع، ولا عارضوه به، فقالوا هذا أفصح مما جئت به، وأغرب منه، أو هو مثله، علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل، وأنه لم يوجد له نظير، ولو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، ولعرفناه، كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، وأدى إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد، وغير ذلك من أنواع بلاغتهم، وصنوف فصاحتهم^(١).

(١) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بقوله: «ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر... إلى آخر الفقرة» إلى معنى جديد في التحدي - هو أنه لو كان لدى العرب قدرة على الإتيان بمثل القرآن لما لزمهم أن يحاولوا معارضته بكلام ينشئونه حين نزول القرآن، بل لكفى العرب الذين عاصروا نزول القرآن وتحديه إياهم أن ينقبوا في أقوال السابقين منهم من نثر وشعر، ولوجدوا من ذلك الشيء الكثير، فإن العرب حين نزول القرآن كان لديهم ذخائر ونفائس من أقوال سابقهم من الشعراء والناترين في أغراض شتى، وكانوا يحتفظون من ذلك بمأثورات كتبها بالذهب وعلقوها في جوف الكعبة مما سمي بالمعلقات، بل وصل افتتاحهم ببعض شعرائهم إلى الحد الذي زعموا فيه أن الجن تنفت على لسانه، فلو كان القرآن مما يعارض لما انتظروا حتى يتكلفوا بالإتيان بما يعارضه، بل لجاءوا من أقوال سابقهم بما يعارضه، ولأبطلوا تحديه إياهم، أما وإن ذلك لم يقع فقد ثبت أن القرآن معجز، وأنه لا يعارض. وبذلك أشار المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى أن القرآن معجز، وأن تحديه للعرب لم يكن =

فإن قيل: الذي بني عليه الأمر في تثبيت معجزة القرآن أنه وقع التحدي إلى الإتيان بمثله، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدي إليه، فإذا نظر الناظر، وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه، وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدي، وأن ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال^(١).

قيل: إنما احتيج إلى التحدي بإقامة الحجة، وإظهار وجه البرهان؛ لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي؛ لأنه لا تزال بذلك الشبهة على الكل، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة، وإلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب، ويتقن مصارف الكلام، وكان كاملاً في فصاحته، جامعاً المعرفة بوجوه الصناعة، لو أنه احتج عليه بالقرآن، وقيل له إن الدلالة على النبوة، والآية على الرسالة، ما أتوه عليك منه، لكان ذلك بلاغاً في إيجاب الحجة، وتماماً في إلزامه فرض المصير إليه.

ومما يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعى الآحاد إلى الإسلام، محتجاً عليهم بالقرآن. لأنا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليداً، ونعلم أن السابقين الأولين إلى

= مقصوفاً على المعاصرين، بل تحدى معاصريه والسابقين على نزوله، وهذا معنى طيب يحسب للمؤلف فضله في لفت الأنظار إليه.

(١) هذا اعتراض افتراضي من المؤلف الفاضل، بناه - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - على ما سبق أن قرره من أن العرب كانوا عاجزين عن معارضة القرآن قبل وبعد نزوله.

وبيان الاعتراض: أن معجزة القرآن المجيد ثبتت عن طريق تحديه العرب أن يأتوا بمثله، والتحدي لا يكون إلا لمن يظن فيه القدرة على المعارضة، أما وإن العرب قبل نزول القرآن لم يكن في أقوالهم وأشعارهم ما يوهم قدرتهم المعارضة، فإن عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ثابت قبل نزول القرآن. وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن تحديهم أن يأتوا بمثل القرآن لا تأثير له، بل هو من باب العبث؛ لأنه طلب إيجاد شيء مما عرف سلفاً أنهم عاجزون عن إيجادها، وبذلك يصبح التحدي فاقد التأثير؛ لأنه وقع على غير محله.

الإسلام لم يقلدوه، وإنما دخلوا على بصيرة، ولم نعلمه قال لهم: ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتي، بل لما رأهم يعلمون إعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه، وتابعوا الحق وبادروا إليه مستسلمين، ولم يشكوا في صدقه، ولم يرتابوا في وجه دلالته، فمن كانت بصيرته أقوى، ومعرفته أبلغ، كان إلى القبول منه أسبق، ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز، واشتبه عليه بعض شروط المعجزات، وأدلة النبوات، كان أبطأ إلى القبول حتى تكاملت أسبابه، واجتمعت له بصيرته، وترادفت عليه مواده^(١).

وهذا فصل يجب أن يتم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له. ويبين ما قلناه؛ أن هذه الآية عُلِّمَ^(٢)، يلزم الكل قبوله، والانقياد له، وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته؛ لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم، وجرى مجراهم، في توجه الحجة عليه، وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربما حل في ذلك محل الأعجمي، في أن لا تتوجه إليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل

(١) بين المؤلف الفاضل أن القرآن المجيد معجز، وأن ذلك واضح لكل من يعرف العربية وأسرارها، لكن العرب حين نزول القرآن العظيم لم يكونوا على مستوى واحد في إدراك إعجاز القرآن. فمنهم من أدرك أنه معجز للوهلة الأولى فأسلم سريعا، ومنهم من أدرك ببطء واحتاج الأمر لديه إلى رؤية، فذلك احتاج لوقت ليسلم، وهكذا اختلفت مدارك العرب أفرادا في إدراك كون القرآن معجزا، ومدى الاستجابة لما يوجهه ذلك الإعجاز من الإسلام لله رب العالمين.. كذلك بين المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أن إدراك إعجاز القرآن لم يكن تقليدا ممن أسلموا، ولكن كان عن فهم ووعي لخصائص الإعجاز في الكتاب الخالد.

(٢) الإشارة إلى القرآن الكريم باعتباره معجزة لرسول الله ﷺ. والآية: المعجزة. والعلم: للدلالة. أي أن هذا القرآن آية وعلم على صدق رسول الله ﷺ.

وحدهما، غور هذا الشأن ما يعرف من استكمال معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام، وطرق البراعة. فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارِع في هذه العلوم كلها عنه. فأما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه، وإن لم نقل ذلك أدى هذا القول إلى أن يقال: إن النبي ﷺ لم يعرف إعجاز القرآن حين وصل إليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه. وهذا خطأ من القول. فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى إليه القرآن عرف كونه معجزًا، وبأن قيل له: إنه دلالة وعلم على نبوتك، أنه كذلك من قبل أن يقرأه على غيره، أو يتحدى إليه سواه، ولذلك قلنا: إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاسيح، متى سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو، وإن كان يحتاج بعد هذا إلى استدلال آخر على أنه علم على نبوة ودلالة على رسالة، بأن يقال له: إن هذه آية لنبيه، وإنها ظهرت عليها وادعاها معجزة له وبرهانًا على صدقه.

فإن قيل: فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه، فكذلك البليغ، وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره^(١).

(١) اعتراض بيانه؛ أن معرفة إنسان ما بعجزه عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ليس دليلًا على عجز غيره، فقد يدرك الكثيرون أنهم عاجزون عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، لكن ذلك لا يمنع أن يكون غيرهم قادرًا على ما عجزوا هم عنه. ومثلاً لذلك؛ فإن الكثيرين يقرأون أشعار الشعراء الفحول ويدركون أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها، مع أن أمثالهم من الشعراء قادرين على الإتيان بمثلها وأشعر منها. فعجز البعض عن الشعر ليس دليلًا على عجز غيرهم عنه.

قيل: هو مع مستقر العادة، وإن عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم، فإنه يعلم أن الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم، ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره؛ لأنه كهو؛ لأنه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء، إذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه، فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يجوزه من نفسه، وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة. وهذا وإن كان يفارق فلق البحر وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك، من وجه، وهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه، لكونه ناقصاً للعادة، ومن غير تأمل شديد ولا نظير بعيد، فإن النظر في معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل، ويفتقر إلى مراعاة مقدمات، والكشف عن أمور، نحن ذاكروها بعد هذا الموضع، فكل واحد منها يؤول إلى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدمنا.

ومما بين (ذلك) ما قلناه، من أن البليغ المتناهي في الفصاحة يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه إذا تُحَدِّي إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدي في غيره. وما الذي يصنع في ذلك الغير^(١).

= وقد رد المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - على الاعتراض بكلام طيب واضح مبني على أن ثمة مستوى لما تعود عليه الناس من مقدوراتهم وإمكاناتهم التي يتفاوتون فيها، فبعضهم يعجز عن فعل، ويدرك في نفس الوقت أن غيره قادر عليه، وهذا مادام الفعل في مستوى ما ألف الناس وتعودوا، ولكن هناك أمور تخرج عن عادات الناس وقدراتهم، وهذه يدرك الجميع أنها خارج إمكاناتهم وفوق قدراتهم. ومثالاً لذلك أنني قد لا أستطيع أن أحمل ثقلاً وزنه مئة من الكيلوات، وأعلم أن ثمة مَنْ يستطيع أن يحمله، لأن ذلك داخل في إطار الإمكانيات البشرية، أما إذا وصل الأمر إلى وزن قدره طن. فإنني أدرك أنني عاجز عن حمله، وأدرك أن غيري كذلك.

(١) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى أن قضية التحدي التي أقامها اللهُ - تَعَالَى - بكتابه، ونسبها على آياته. إنما هي موجّهة للأفراد باعتبارهم أفراداً. وكذلك موجّهة إلى الجماعة =

وهو ما رُوي في الحديث أن جبير بن مطعم^(١) ورد على النبي ﷺ في مُعْتَى^(٢) حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة: ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورًا ۝٢﴾^(٣) في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨﴾^(٤)، قال خشيت أن يدركني العذاب. فأسلم. وفي حديث آخر: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة «طه» فأسلم. وقد روي أن قوله ﷺ في أول «حم السجدة»^(٥) إلى قوله: ﴿فَاعْرُضْ أَكْثَرَهُمْ فَهَمُّ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٦)، نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن

= فالإنسان الذي يعرف العربية ويرع في وجوه تصاريدها ويصل من ذلك إلى متنها. لاشك أنه بمعرفته تلك سيدرك - ضرورة - أن القرآن معجز للمخلوق. ومعرفته تلك تلزمه الإيمان والتسليم؛ لأنه بتلك المعرفة لزمته الحجة. من أن القرآن تحده، وعرف هو عجزه عن معارضته. فموقفه من تحدي القرآن إياه هو التسليم والإيمان، وهذا واجب عليه بالنظر إلى شخصه هو، واقتناعه بما أوصلته إليه معرفته بالعربية. ولا صلة له بعد ذلك بموقف غيره من تحدي القرآن، فسواء عرف غيره إعجاز القرآن وآمن، أو عرف وعاند، أو جهل ذلك، فإن هذه الاحتمالات بالنسبة للغير لا ينبغي أن يكون لها تأثير في موقف من علم آية القرآن، وأدرك تحديه إياه، وعجزه عن معارضته. وقد ذكر المؤلف الفاضل عقب ذلك أمثلة لأنواع من مواقف المشركين الذين بلغوا في الفصاحة مبلغها. فمنهم من أدرك أن القرآن معجز فأذعن وأسلم، ولم ينظر إلى مواقف غيره من المشركين. وذلك مثل الفاروق عمر بن الخطاب وجبير بن مطعم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، ومنهم من أدرك ذلك لكنه عاند وجحد وأخذ يبحث عن ثغرات لجحده وعناده أمثال من ذكرهم بعد ذلك.

(١) جبير بن مطعم رضي الله عنه: صحابي جليل من المعمرين بعد رسول الله ﷺ. والحديث رواه الإمام أحمد رضي الله عنه: (٨٣/٤)، ورواه أصحاب التقارير.

(٢) المُعْتَى: الأسير، وكذلك: العاني. وفي الحديث الشريف: «عودوا المرضى، وفكوا العاني». ومؤنث العاني: العانية، والجمع: عوان.

(٣) سورة الطور. الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة الطور. الآيتان: ٧، ٨.

(٥) هي سورة فصلت.

(٦) سورة فصلت. بعض آية: ٤.

حرب، وأبي جهل. وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعثة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب الشأن، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ سورة «حم السجدة» من أولها، حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾^(١)، فوثب مخالفة العذاب، فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يسمع مثله كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه، ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله؛ إذ لم يهتد لجوابه^(٢).

وأين من ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾^(٣)، فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل

(١) سورة فصلت الآية: ١٣.

(٢) الواقعة وردت بروايات متعددة، والرواية كما أوردها «الكشاف» في تفسيره أوائل سورة «حم السجدة، أو فصلت» كما يلي:

«رُوي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالسحر والشعر والكهانة فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد علمت السحر والشعر والكهانة، وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي. فأثنى عتبة رسول الله ﷺ فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فتكون رئيسنا، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت. فلما فرغ عتبة من كلامه قال رسول الله ﷺ: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم. ورجع إلى أهله ولم يرجع إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ. فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت. فغضب وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً. ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إن قال شيئاً لم يكذب. فخفت أن ينزل بكم العذاب» «الكشاف» للزمخشري: (٤٤٨/٣).

(٣) سورة التوبة. بعض آية: ٦.

على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه.

فإن قيل: لو كان على ما كنتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه، قيل: لا يجب ذلك؛ لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يشكون: منهم من يشك في إثبات الصانع^(١)، وفيهم من يشك في التوحيد^(٢)، وفيهم من يشك في النبوة^(٣)،

(١) هؤلاء هم الملاحدة الذين لا يؤمنون برب خالق لهذا الوجود، ويسمون لدى علماء الملل: «الدّهريون» نسبة إلى «الدهر»، أخذًا من قوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا أَدْنَىٰ نَوْتٍ وَخَيًّا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنّية: ٢٤]. وهذه الطائفة «الدّهريون» كانت موجودة في جزيرة العرب تمثل كثرة.

(٢) وهؤلاء هم المشركون، وكان شكهم في التوحيد من حيث الألوهية. أي من حيث العبادة حيث كانوا يعبدون آلهة كثيرة مثل: (اللات، العزّة، مناة، هبل) أما من حيث الربوبية فكانوا موحدين. أي مؤمنين بأن خالق الوجود واحد لا شريك له في الخلق. قال - تعالى -: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، والزمر: ٣٨].

وقد كانوا يعبدون الأصنام مع إيمانهم بأن الخالق المدير واحد - سبحانه - زعمًا منهم أن الأصنام تقربهم إلى الخالق وتشفع لهم عنده، قال - تعالى - حكاية عن عقيدتهم تلك: ﴿وَيَسْجُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس الطيّب: ١٨]، ويقول - تعالى - مبيّنًا زعمهم أن الأصنام تقربهم إلى الله - سبحانه -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

(٣) الذين كان يشكون في النبوة فريقان: فريق كان يشك في مبدأ النبوة، فهو لا يعتقد في بعثة الأنبياء إلى البشر، ويرفض المبدأ نفسه، ومن ثم فهو لا يؤمن بأي نبي. والفريق الثاني: يعتقد في مبدأ النبوة والأنبياء ويسلم به، ولكنه يشك في نبوة محمد ﷺ تحديداً ويرفض الإيمان بها. وذلك لأسباب مختلفة. منها ما حكاه القرآن عن رفضهم الإيمان برسول الله ﷺ لغفرة وقلّة ماله، كما قال الله - تعالى - حكاية عن هؤلاء: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (١٦) أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].. يضاف إلى هذين النوعين أو الفريقين فريق ثالث لم يكن يشك =

ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ﷺ ليسلم، عام الفتح، قال له النبي ﷺ: «أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قال: بلى، فشهد، قال: «أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قال: أما هذه ففي النفس منها شيء. فكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم مَنْ قَلَّتْ شَبْهُهُ، وتأمل الحجة حق تأملها، ولم يستكبر، فأسلم، ومنهم مَنْ كَثُرَتْ شَبْهُهُ، وأعرض عن تأمل الحجة حق تأملها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتناول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عَجْزَ غيره عن الإتيان بمثله، فلذلك وقف أمره، ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة، لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

فإن قيل: فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه إعجاز القرآن، وما الوجه الذي يتطرق به إليه، والمنهاج الذي يسلكه، حتى يقف به على جلية الأمر فيه؟ قيل: هذا سبيله أن يفرد له فصل. فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قاتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف^(١)، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع

= في أن محمدًا ﷺ نبي صادق. لكنه كان يجحد ذلك حقًا واستكبارًا. قال - تَعَالَى - مخاطبًا رسوله ﷺ في شأن هؤلاء: ﴿فَأَنبَأَهُمْ أَنَّ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِجَحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

(١) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إلى ما ذهب إليه بعض المبتدعة من أن القرآن العظيم ليس فوق مستوى البشر في البلاغة والفصاحة، وأن العرب كانوا قادرين في زمان نزول القرآن على الإتيان بمثله أو أبلغ منه، ولكن الله - تَعَالَى - منعهم عن معارضته أو الإتيان بمثله رغم مقدرتهم على ذلك، بأن صرف همهم عن محاولة معارضته. وهذه هي معجزة القرآن أو هذا هو وجه إعجازه - في زعمهم .. فليس إعجاز القرآن في عدم مقدرة العرب عن معارضته بمثله، بل في صرف الله - تَعَالَى - هم العرب عن معارضته ومنعهم =

قدرته عليه، ليتكامل ما أَرادَه اللهُ من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن مَنْ قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعد عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة. حتى يتكامل قدر الآية أو السورة؟

فالجواب: أنه لو صح ذلك، صح لكل مَنْ أمكنه نظم ربيع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار. وضح لكل ناطق، قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة، والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ، ولا ممكن.

على أن ذلك لو لم يكن معجزًا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطَّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار البلاغة في نظمه، أبلغ في الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب. على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه، لم يكن مَنْ قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدثوا إليه، ولم تلزمهم حجته. فلما لم يوجد في كلام مَنْ قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرف ظاهر البطلان^(١).

⁼ من ذلك. وهذا المذهب معروف لدى العلماء بمذهب «الصرفة» في إعجاز القرآن، وقد رد المؤلف الفاضل على هذا الزعم ردودًا موفقة في الفقرة التالية.

(١) يرد المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - على أصحاب مذهب «الصرفة» في إعجاز القرآن. وجملة رده في أمرين: الأول: أنه لو كان إعجاز القرآن في أن الله - تَعَالَى - صرف همم العرب ومنعهم من معارضته والإتيان بمثله رغم قدرتهم على ذلك؛ لما كان هناك داع إلى أن يأتي الله - تَعَالَى - بالقرآن في المرتبة العليا من البلاغة والفصاحة لأن ذلك قد يشكك في قضية الصرفة، وقدرة الله - تَعَالَى - على منعهم، بأن يقال: إنهم امتنعوا لعجزهم وليس لصرف الله إياهم، وكان الأولى أن ينزل الله - تَعَالَى - القرآن في أدنى مرتبة من البلاغة، وأحط منزلة من الفصاحة، بحيث يكون في قدرة الغاية والضعفاء في العربية أن يأتوا =

وفيه معنى آخر: وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن إذا سمعوا كلامًا مطعمًا لم يخف عليهم، ولم يشبهه لديهم. ومن كان متناهيًا في فصاحته لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال.

فإن قال صاحب السؤال: إنه قد يطمع في ذلك. قيل له: أنت تزيد على هذا، فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه في الفصاحة، ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء وفي الطفرة هو أبداع وأغرب من القرآن لفظًا ومعنى، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه، ويحسبه ظان في أمره، والمرجع في هذا إلى جملة الفصحاء، دون الأحاد.

ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، وتميزه في ذلك من سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ، يَبِّغُ الغلط، وأن هذا التقدير من جنس مَنْ حكى الله - تَعَالَى - قوله في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾^(١)، فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر؛ لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.

* * *

⁼ بمثله. ثم يمنعهم - رغم ذلك - عن الإتيان بمثله ومعارضته. هنا يكون أثر الصرفة أو منع الله - تَعَالَى - إياهم واضحا بيّنا. الثاني: أننا لو سلمنا بأن العرب الذين أنزل القرآن في عصرهم لم يأتوا بمثل القرآن لأنهم كانوا مصروفين بصرف الله إياهم، فلم لم نجد في أشعار أسلافهم وأقوالهم الماثورة ما يماثل القرآن أو يقاربه؟ هل كان أسلافهم - أيضًا - مصروفين ممنوعين قبل أن ينزل القرآن؟ إن عجز السابقين واللاحقين دليل على أن الإعجاز ليس بالصرفة أو المنع - كما زعموا - ولكن لأن القرآن كلام الله - تَعَالَى - لا يستطيعه أحد من خلقه.

(١) سورة المدثر. الآيات: ١٨ - ٢٥.

ومما ييطل ما ذكروه من القول بالصرفة: أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.

وليس هذا بأعجب مما ذهب فريق منهم: أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب، لو تعلموه لوصلوا إليه به. ولا بأعجب من قول فريق منهم: إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله - تَعَالَى - في هذا الباب، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد^(١).

* * *

فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله ﷻ معجز، كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن الإخبار بالغيوب، وإنما لم يكن معجزاً؛ لأن الله - تَعَالَى - لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأننا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن، ولمعنى آخر وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز، ولكنه يتقارب. وقد

(١) يشير المؤلف - رَجَمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى مذاهب أخرى جاء بها المبتدعة حول إعجاز القرآن المجيد. فذكر أنه من هؤلاء من زعم أن العرب جميعهم قادرون على الإتيان بمثل القرآن من حيث اللغة وتصاريفها، ولكن الذي يعجزهم إنما هو النظام القرآني في ترتيب الجمل وتنسيق الآي. ولو علموا ذلك لجاءوا بمثل القرآن خواصهم وعوامهم على ذلك سواء. ثم ذكر أن من هؤلاء من زعم أن قضية الإعجاز مطروحة في كلام البشر كما هي في كلام الله القرآن، فمن البشر من يستطيع أن يؤلف كلاماً لم يأت القرآن بمثله، كما أن في القرآن كلاماً لم يأت البشر بمثله، ويصح أن يكون المراد أن كل واحد من البشر قادر على أن ينظم كلاماً يتحدى به الآخرين ويعجزهم عن الإتيان بمثله، كما وقع ذلك في القرآن.

رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة، ويقولون ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب.

ويمكن بيان ذلك^(١) بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة (العربية)، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجيء تفصيلها بعد هذا^(٢).

ويشهد لذلك من القرآن أن الله - تَعَالَى - وصفه بأنه: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٣)، وكرر ذلك في مواضع كثيرة وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًا، فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله: «إنه عربي مبين» أنه مما يفهمونه، ولا يفترقون فيه

(١) أي قلة تصاريف الكلام في اللغات الأخرى إلى الحد الذي يجعل التفاوت في وجوه الفصاحة لدى الناطقين بها ضيقًا وغير ذي بال.

(٢) من أوضح الأدلة على تميز اللغة العربية وتفرداها من بين اللغات جميعها في ثرائها وكثرة تصريفاتها وشدة التفاوت بين ألسنة الناطقين بها؛ التنافس الشديد بين العرب فيما يتصل بطرق استعمالاتها شعريًا ونثريًا، والاهتمام الذي ليس له مثيل في السابقين واللاحقين بالبراعة فيها، إلى الحد الذي كان شرف القبيلة ومجدها يتوقف على براعة شاعرها، مما جعل القبيلة تقيم الولائم وتنحر الذبائح حيث ظهر فيها شاعر مجيد، وقد ينقذ بيت من الشعر يقول شاعر مجيد قبيلة مما لحق بها من خزي وعار. كما لحق بقبيلة تسمى «أنف الناقة» من خزي بسبب ذلك الاسم الذي كان مثار السخرية بها. حتى جاء أحد الشعراء فأنقذها بيت يقول فيه:

قوم هم الأنف والأذنب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
فكان هذا البيت مثار أفراح وولائم أقامتها هذه القبيلة، وهل سمع أحد في لغة من اللغات أن أقيمت أسواق ليس فيها بيع ولا شراء ولا منافسة إلا للغة واستعمالاتها وتصاريفها شعريًا ونثريًا، سوى ما كان عند العرب؟

(٣) سورة الشعراء. الآية: ١٩٥.

إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى من سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضًا، كما أفاد بظاهره ما قدمناه.

ويبين ذلك أن كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية.

ومعنى آخر: وهو أننا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم^(١)، ولا ادعى لهم المسلمون، فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن.. ويبيّن هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على ما يأتي في العربية.

فإن قيل: فإن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت^(٢)، وكتاب ماني^(٣) معجزان، قيل: الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرنجات^(٤) وضروب من الشعوذة^(٥)، ليس يقع فيها إعجاز. ويزعمون أن في الكتاب الحكم، وهي حكم

(١) واضح أن العبارة لا تستقيم كما هي مكتوبة. ولعل هناك سقطًا في الكلام، ولعل

العبارة: «.. وهو أننا لم نجد أحدًا من أهل التوراة أو أهل الإنجيل ادعى الإعجاز لكتابهم».

(٢) زرادشت: مصلح اجتماعي فارسي. كانت له نظرات وآراء أراد بها إصلاح مجتمعه -

من وجهة نظره، تحولت آراؤه إلى ديانة لدى أتباعه سميت «الزرادشتية» وقد عاش

زرادشت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

(٣) ماني: فيلسوف فارسي جاء بتعاليم زعم أن فيها إصلاح المجتمعات والقضاء على ما فيها

من عداوات وحروب. ولكنه فشل. وخلف مذهبًا ينسب إليه اسمه: (المانوية).

(٤) التيرنجات: نوع من التخيل والإيهام يزاوله بعض من يوهمون الناس أنهم سحرة.

والتيرنجات ليس سحرًا ولا يدخل في بابه، لكنه تليس على الناس عن طريق الحيل

والإيماءات.

(٥) الشعوذة، ويقال أيضًا: الشُّبْنَدَة: خفة في اليد وسرعة في الحركة مع استعمال بعض =

منقولة متداولة على الألسن، لا تختص بها أمة على أمة، وإن كان بعضهم أكثر اهتمامًا بها، وتحصيلًا لها، وجمعًا لأبوابها.

وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فرغوا إلى الدرّة اليتيمة^(١) وهما كتابان: أحدهما يتضمن حكمًا منقولة، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى. والآخر: في شيء من الديانات، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل. وكتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، فأني صنع له في ذلك، وأي فضيلة حازها فيما جاء به؟

وبعد؛ فليس يوجد له كتاب يدّعي مُدّع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره، فإن كان كذلك فقد أصاب، وأبصر القصد. ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء، ثم يلوح له رشده، ويبين له أمره، وينكشف له عجزه، ولو كان بقي على اشتباه الحال

= الأشياء المساعدة مما يخيل للناس بوقوع أشياء عن طريق الوهم والتخييل، ويغلب أن يكون تأثير المشعوذين منصبًا على من يحضرهم، فيوقعونه تحت تأثيرهم ويجعلونه يرى ما يريدون هم أن يراه، وإن كان غير حقيقي.

(١) هناك سقط في الكلام؛ لأن المذكور كتاب واحد، بينما الإحالة بعد ذلك إلى كتابين. والمعروف أن ابن المقفع كان من أبلغ أهل زمانه، وكان فارسًا شعويًا. أي ممن يكره العرب ويتعصب ضدهم. وقد كانت براعته في العربية وثناء أهل زمانه عليه في ذلك سببًا في اغتراره بنفسه، إلى الحد الذي زعم أن بإمكانه معارضة القرآن بمثله، وقد قيل إنه ألف كتبًا كثيرة لتحقيق هذا الغرض الخبيث لديه، من ذلك - فيما نقل - كتاب «الأدب الصغير» الذي قيل له حين ألفه: إنه ليس له حلاوة القرآن. فقال: دعوه تلوكه الألسن مثل الزمان الذي لاكت الألسن القرآن وسترون أنذاك حلاوته. وقد أخزاه الله وقبيله فسقطت مزاعمه لديه هو قبل غيره، لأن معرفته بالعربية وفنونها جعلته يدرك قبل غيره أن ما فعله مجرد عبث لا طائل وراءه.

عليه، لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشبهه لدينا وجه شبهته^(١). ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في تأليفه وعجيب نظمه؟

فصل

في جملة وجوه إعجاز القرآن

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاث أوجه من الإعجاز: أحدهما، يتضمن الأخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

فمن ذلك ما وعد الله - تَعَالَى - نبيه ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢)، ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق ﷺ إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه^(٣)، فكان سعد بن أبي وقاص - رحمه الله - وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر

(١) المؤلف الفاضل يأخذ موقع المدافع عن ابن المقفع في دعوى معارضته القرآن ببعض كتاباته. ويقول بأن ليس للمقفع كتاب في هذا القبيل، ولو فرض وكان له اشتغال بمثل هذا الغرض؛ فلعل ذلك كان لفترة في حياته اشته عليه أمر إعجاز القرآن فيها، ثم اتضحت له حقيقة إعجازه فرجع عن ذلك. ولو كانت له كتابات في هذا المجال ما خفي علينا أمرها، وكنا قد استطعنا أن نرد عليه ونفند مزاعمه فيها.

(٢) سورة التوبة. الآية: ٣٣، وسورة الصف. الآية: ٩.

(٣) أي حتى أخذ قواد جيشه عنه هذه الطريقة. فكانوا يعرفون جنودهم وعد الله بالنصر. كما كان عمر ﷺ يعرفهم ذلك.

في مواجهاتهم، حتى فتح إلى آخر أيام عمر رضي الله عنه إلى بلخ^(١) وبلاد الهند، وفتح في أيامه مَزَوَ والشاهجان ومرو الروذ، ومنعهم من العبور بجيخون^(٢) .. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى^(٣) وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين^(٤) من الفرات^(٥) إلى جيخون: وأزال ملك ملوك الفرس، فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبداً إن شاء الله - تَعَالَى -، ثم إلى حدود أرمينية^(٦) وإلى باب الأبواب^(٧)، وفتح ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر، وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر، وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية فأخذ الضواحي كلها، ولم يبق دونها إلا ما حجزه دونه البحر، أو حال عنه جبل منيع، أو أرض خشنة، أو بادية غير مسلوكة.

وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۗ وَيَبْتَئَسُ الْيَمَّهَادُ ﴿١٢﴾^(٨)، فصدق فيه، وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِنَّهُ إِحْدَىٰ الْأَطَافِينَ فِي الْأَرْضِ لَأَنهَآ لَكُمْ ﴿٩﴾، ووفى لهم بما وعد.

وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الأخبار عن الغيوب يكثر جداً، وإنما

- (١) بلخ. من بلاد فارس. وهي أشهر بلاد خراسان، تقع قريبا من مدينة كابل عاصمة أفغانستان. ويمر بها نهر جيخون.
- (٢) نهر كبير مشهور، يمر بالكثير من أقاليم فارس، ويصب في بحر قزوين.
- (٣) كل البلاد المذكورة هي من أعمال إقليم فارس الذي كان في ذلك الوقت تحت حكم كسرى ثم قوضه المسلمون واستولوا عليه بفضل الله - سبحانه - ..
- (٤) إمارة البحرين حاليا. وكانت أيام الفتح الإسلامي تحت ملك كسرى.
- (٥) النهر المشهور بالعراق. يوازي في جانب كبير منه نهر دجلة ويصبان في مصب مشترك. ويحصران فيما بينهما أرض الجزيرة بالعراق.
- (٦) أحد أقاليم بلاد فارس. وهو محصور بين بحر قزوين والبحر الأسود.
- (٧) مدينة القسطنطينية، سميت بذلك لأنها المفتاح إلى ما حولها من أصقاع.
- (٨) سورة آل عمران: الآية: ١٢.
- (٩) سورة الأنفال. بعض آية: ٧.

أردنا أن ننبه بالبعض على الكل^(١).

والوجه الثاني، أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ^(٢). وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من

(١) إخبار القرآن العظيم عن الغيوب نوعان:

الأول: إخبار عن الغيوب الماضية. والمقصود بذلك ما مضى من أخبار الأمم الماضية والممالك الغابرة، وتفاصيل حياتهم، وسيرهم مع أنبيائهم، وما جرى لهم.. ويدخل في ذلك قصص الأنبياء من لدن أبي البشر آدم حتى آخرهم قبل رسول الله ﷺ عيسى بن مريم عليه السلام كل هذه غيوب لم يكن رسول الله ﷺ يعرف عنها شيئاً. بل ولم يكن لدى غيره عنها إلا شذرات قليلة تصيب فيما ندر، وتخطئ فيما شاع وكثر، وليس لأحد أن يتهم الرسول ﷺ بأنه أخذ أخبار الماضين عن توراة اليهود أو أناجيل النصارى أو حكايات هؤلاء وأولئك. وذلك لأمرين: أولاً: أن رسول الله ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتب؛ ولم يجلس إلى معلم، ولم يأخذ عن قصاص. وثانياً: أن ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الماضين اختلف كثيراً وجوهياً مع الروايات التي وردت في كتب اليهود والنصارى، والتي قصتها مروياتهم، وقد نبه المؤلف الفاضل إلى الأمر الأول، وأغفل عن الثاني.

النوع الثاني: إخبار عن الغيوب المستقبلية. وقد عنى المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بها في هذه الفقرة. كما عنى بالغيوب الماضية في الفقرة التالية. ومن الغيوب المستقبلية التي لا تغفل في هذا المجال، ما وقع من انتصار الفرس على الروم في عهد الرسول ﷺ بمكة. وقد فرح المشركون لأنهم تجمعهم مع الفرس عبادة الوثنية، وقد حزن رسول الله ﷺ وأصحابه لانتصار الوثنية على أهل الكتاب وهم الروم، ونزل قول الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَكْفُورُونَ فِي بَعْضِ سِنِينَ﴾ فرح المسلمون.. وقد تحقق هذا الوعد وانتصر الرومان على الفرس.

(٢) عبارة المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - توهم أن رسول الله ﷺ كان لا يكتب ألبته، ولا يقرأ قراءة جيدة. فهي توهم أنه كان يقرأ، لكن ليس بصورة حسنة وذلك غير صحيح، فإن رسول الله ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب ألبته. كما قال عنه القرآن المجيد: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِسَبِيلِكَ﴾. والأفضل أن تكون عبارة المؤلف، أنه ﷺ: «كان أمياً لا يكتب ولا يقرأه بدلاً من قوله: «كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأه».

كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبأهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وما حدث من عظيماات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه، وما صار إليه أمره من الخروج من الجنة، ثم جملة من أمر ولده ^(١)، وأحواله وتوبته ^(٢)، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمره، وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء - صلوات الله عليهم -.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابشاً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال عليه السلام: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ ^(٣)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ ^(٤). وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم، ويشغل بملايسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يختلف عندهم مذهبه، وقد كان

(١) يشير المؤلف إلى قصة ابني آدم وما جرى بينهما مما أوردته سورة المائدة من قوله - تعالى -:

﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ...﴾ الآيات من: ٢٧ - ٣١.

(٢) يشير إلى ما وقع من آدم عليه السلام من الأكل من الشجرة التي نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها. وبعد أن أكل منها وأحس بذنبه ندم وأراد أن يتوب إلى ربه من ذنبه، لكنه عليه السلام لم يكن يدري كيف يتوب؟ فأوحى الله - تعالى - إليه بكلمات التوبة، فلما قالها هو وزوجه تاب الله عليهما.

يقول - تعالى -: ﴿فَلَمَّعَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:

٣٧] وكلمات التوبة هي ما ورد في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: [الآية: ٢٣].

(٣) سورة العنكبوت. الآية: ٤٨.

(٤) سورة الأنعام. بعض الآية: ١٥٠.

يعرف فيهم من يحسن هذا العلم وإن كان نادراً، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعليم، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره.

والوجه الثالث، أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة^(١). ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها. فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

منها: ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، خارج عن المجهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم. وله أسلوب يختص به ويتميز عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إسلاً فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة، على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمّل ولا يتصنّع له. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه، وكذلك من قبيل الشعر؛ لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي أن فيه شعراً كثيراً، والكلام عليهما يذكر بعد هذا الموضوع، فهذا إذا تأمله المتأمل، تبيّن - بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذا خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف

(١) أي أن العلماء حين قالوا: إن القرآن معجز. أرادوا بإعجازه جملة الأمور التي ذكرها وهي: (بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة) وهذه الأمور المحملة هي ما سوف يفصله بعد.

البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما تكشفه من الاختلاف، ويقع فيه ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبًا مع الفصاحة، على ما وصفه الله - تعالى - به، فقال - عز من قائل :-

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودٌ لَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢).. فأخبر أن كلام آدمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبأن عليه الاختلال، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفضل.

* * *

(١) سورة الزمر. بعض آية: ٢٣.

ومعنى قوله - تعالى - : ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضا في الحسن والإعجاز وأخذ الخلق إلى طريق الهداية.

والوصف بالمتشابه هنا يختلف عن الوصف بالمتشابه في الآية السابقة من [آل عمران: ١]: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. فإن وصف القرآن بالمتشابه في آية الزمر أن شامل لجميع آياته. والوصف في آل عمران لبعض آياته، وهي قليلة في القرآن العظيم، وكذلك معنى المتشابه في الزمر أن آيات القرآن تمثل قمة عالية في البلاغة والجزالة وإرشاد الخلق إلى الحق على ما بينا. وأما في آل عمران فيقصد بالمتشابه ما ظهر المعنى في الآية وخفي الكيف. من مثل قوله - تعالى - : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾^(٣) فإن الاستواء معلوم. ولكن الكيف مجهول. وعلى المسلم أن يفوض الكيف إلى علم الله - تعالى - مع القطع بمخالفته لجميع الكيفيات التي عليها الخلائق.

(٢) سورة النساء. بعض الآية: ٨٢.

وفي ذلك^(١) معنى ثالث: هو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وأعدار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأيين، ومنهم من يجود في التأيين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتداوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وبزهير إذا رغب^(٢)، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم؛ لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم. فإذا كان الاختلال بيتاً في شعرهم، لاختلاف ما يتصرفون فيه، استغنيا عن ذكر من هو دونهم، وكذلك يُستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.

ثم نجد في الشعراء من يجود الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً، ومنهم من

(١) الإشارة إلى ما ذكره قبل ذلك من: بديع النظم، وعجيب التأليف والتناهي في البلاغة.

(٢) تدور الرواية في كتب الأدب حول خمسة، مع تقديم وتأخير، وحذف البعض وإضافة البعض. فالثلاثة الذين ذكرهم المؤلف: امرؤ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب، يضاف إليها: عترة إذا كلب، والأعشى إذا طرب.

ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله، ومن الناس وجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاً عجيباً، ومنهم من وجود بضد ذلك. وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدر عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار، وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب^(١).

* * *

ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترى أن كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى - مع جودة نظمه وحسن وصفه - في الخروج من النسب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء. وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى، وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب. ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبين أن القرآن - على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين

(١) بين المؤلف ذلك بإجمال في الفقرات السابقة مباشرة، لكنه يأتي بعد ذلك يفصل ما أجمله ويوضحه.

كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد^(١). وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج به الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

* * *

ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢) فإن قيل: هذه دعوى منكم، وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن مثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإن كنا عاجزين. كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة، وأسباب غامضة دقيقة، لا نقدر نحن عليها، ولا سبيل لنا للطفها^(٣) إليها. وإذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل. قيل: قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله ﷻ، وقد يمكن أن يقال: إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر، ويحكون عنهم من الكلام، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها، ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم، ويقع بينهم وبينهم

(١) أى يجعل المتنافر في الأفراد متقاربا متماثلا كأنه عن شيء واحد وليس عن أشياء. وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿وَأَحْسَبُ الْيَسِينَ مَا أَحْسَبُ الْيَسِينَ﴾^(١٧) في سبدر مَنصُور^(١٨) وَطَلْحِ مَنصُور^(١٩) وَظَلِّ مَنصُور^(٢٠) وَمَاوِ مَنصُور^(٢١) وَفَكِهَوِ كَثِير^(٢٢) لَا مَقْطُوعِ وَلَا مَمْنُوعِ^(٢٣) وَفُرْشِ مَرْفُوعِ^(٢٤) يَا أَنَا أَنَا أَنَا إِنَّا^(٢٥) فَصَلْتَهُنَّ أَكْثَارًا^(٢٦) عُرْبًا أَتْرَابًا^(٢٧) لِأَضْحَابِ الْيَسِينَ^(٢٨) ثَلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ^(٢٩) وَثَلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ^(٣٠) ﴿الواقعة: ٢٨ - ٤٠﴾. وأمثال ذلك في القرآن مما لا يحصى.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨.

(٣) أي لدقتها وخفائها.

محاورات في عهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات^(١)، علي أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، ولهم أشعار محفوظة، مروية في دواوينهم، قال تأبط شراً^(٢):

وأدهم قد جبث جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعل^(٣)
إلي أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأليلا^(٤)
علي شيم نار تنورثها فبت لها مدبراً مقبلا^(٥)
فأصبحت والغول لي جارةً فيا جارتا أنت ما أهولا^(٦)
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تهوّل واستغولا^(٧)
فمن سال أين ثوث جارتني فإن لها باللوى منزلا^(٨)

(١) أي في حياة الأنبياء - صلوات الله عليهم -، فإن الله - تعالى - يظهر على أيديهم المعجزات التي هي نقض للعادة وخرق للقوانين التي ألفها الناس.

(٢) شاعر جاهلي مجيد في شعره. كثر تناوله الحديث عن الغيلان في شعره.

(٣) الأدهم: الأسود اللون. وهو هنا الليل. وجلباب الليل ظلامه. الكاعب: الفتاة التي بدا ثديها في الظهور. والخيعل: الثوب المشقوق الجانبين. أو الذي خيط جانب منه وترك الآخر.. يقول: رب ليل مظلم قد جال فيه غير خائف فاحتواه ظلام الليل كما احتوى الثوب الفتاة.

(٤) حدا: أي جاء. الأليل: شديد الظلمة. أي: إلي أن ظهر الصباح وأضاء ظلام الليل.

(٥) شام الشيء: تطلع نحوه في ترقب. وتنورتها: رأيته من بعيد وتتبعته. أي: رأى نارا بعيدة فأخذ يدور حولها تارة مقبلا وتارة مبتعدا.

(٦) يقول: بعد أن طلع النهار نظر حول النار فوجد الغول بائمة بجواره طوال الليل، وشكلها مفزع.

(٧) يقول: أنه طلب من «الغول» أن يجامعها ففضبت وازداد شكلها هولاً وأضحت أكثر فزعا.

(٨) يقول: إذا سألتني سائل أين تعيش تلك الغول. قلت له: إن لها منزلا باللوى. واللوى: كنبان الرمال المتتوية في الصحراء.

وكنت إذا ما هممت اعتزمت وأحر إذا قلت أن أفعل^(١)
 • وقال آخر:

عشوا ناري فقلت مَنون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلما^(٢)
 فممت إلي الطعام، فقال منهم زعيم يحسد الإنس الطعاما^(٣)
 ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمرو الجني، وأشعارا لهما كرهنا ذكرها
 لطولها.. وقال عبيد بن أيوب:

فلله دُرُّ الغول أي رفيقة لصاحب قفرٍ خائف يتقفر^(٤)
 أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالِي نيرانا تبوخ وتزهري^(٥)
 وقال ذو الرمة بعد قوله:

قد أعسف النازح المجهول معسفه في ظل أخضر يدعو هامه البوم^(٦)

(١) يمدح نفسه بالشجاعة بعد أن حكى واقعه مع الغول. فيقول: إنه إذا نوى على شيء نفذه دون تردد، وأنه إذا قال فعل.

(٢) عشوا ناري: أي أقبلوا عليها من بعيد. و«منون» جمع من الاستفهامية. على غير قياس، فإنها لا تجمع؛ لأنها على صيغة واحدة للمفرد والجمع. وعموا ظلما: تحية منه للجن. مثل قول العرب: عموا مساء. يقول بأنه نزل ليلا في سفر وأوقد ناره فإذا حول النار عدد كبير. فسألهم من أتم؟ قالوا: نحن الجن. قال عموا ظلما. ولم يقل مساء لأن الجن حياتهم ونشاطهم في الظلام.

(٣) يقول: إنه قام إلى طعامه ليأكل. فقال زعيم الجن المجتمعين حول ناره وهو يتشوف إلى طعامه ويحسده عليه. وقد وقف حديث المؤلف في هذا الشعر عند هذا البيت. فلم يذكر ماذا قال زعيم الجن للشاعر.

(٤) القفر: الصحراء المجدبة لا ماء ولا نبات. والمتقفر: الذي يمشى في القفر.

(٥) اللحن: صوت الغناء. وتبوخ وتزهري: أي ترتفع وتخبو. يشي الشاعر على إحدى الغيلان التي أدركته في صحراء مقفرة خائفا، فأوقدت له النار وانسته بالغناء.

(٦) أعسف: تنكب الطريق ومال عنه. والأخضر هنا: سواد الليل. والبوم: طائر معروف، =

للجنِّ بالليل في حافاتِها زجلٌ كما تناوح يومَ الرِّيحِ عَيْشُومٌ^(١)
 دوية ودجا ليلٍ كأنهما يَمُّ تراطُنَ في حافاتِهِ الرُّومِ^(٢)
 وقال أيضًا:

وكم عرست بعد النوى من مُعْرَسٍ لها من كلام الجن أصوات سامر^(٣)
 وقال:

ورمل عزيز الجن في عَقَبَاتِهِ هزيز كتضراب المغنين بالطبل^(٤)

= والهام، والهامة، أرواح القتلى الذين لم يؤخذ بثأرهم تتحول إلي طير أسود يطوف بالليل وينادى نداء اليوم يطلب الأخذ بثأره، هكذا كانت تزعم العرب، فلما جاء الإسلام أبطل هذه الخرافة. وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة..» الحديث. يقول الشاعر: إنه ضل طريقه في صحراء شاسعة في ليل مظلم تتجاوب فيه أصداء اليوم والهامة، أي أرواح القتلى - في زعمهم -

(١) حافاتِها: جنباتها وأنحائها. زجل: أصوات مرتفعة وضوضاء. والتناوح: التمايل والاصطدام. والعيشوم: الشجر الذي انتشر جفاف فروعه، والنبات الكثير الملتف. يقول: إن أصوات الجن وضوضاءها في تلك الصحراء كانت تشبه أفرع الأشجار الحافة التي تصطدم بفعل الرياح الشديدة.

(٢) الدوية: الفلاة - والدجا: الظلام الحالك. واليم: البحر. والرطانة: رفع الصوت بكلامهم لا يفهم يشبه أصوات الجن وضوضاءها في الصحراء بجماعه من الروم يرطنون بلغتهم التي لا يفهمها وقد ركبوا وسط اليم فاختلطت أصوات الموج برطانتهم. وذو الرمة قائل هذه الأبيات هو: غيلان بن عقبة من بني صعيب بن مالك ابن عدى بن عبدمناة، ويكنى: أبا الحارث.

(٣) التعريس: النزول في آخر الليل للاستراحة بعد تعب المسير. والمعرس: مكان التعريس. والنوى: البعد، والانتقال من مكان إلى آخر. والسامر: مجلس السمار أو السمار أنفسهم. يقول: بأن ناقته وقفت للراحة من آخر الليل بعد مسيرها طوال الليل والانتقال من مكان إلى مكان. وكان الجن الذين يسكنون المكان الذي عرست فيه يصدرون أصواتا حسبها الناقه أصوات السمار. أي القوم الذين جلسوا يتسامرون.

(٤) العزيف صوت العود، وصوت القوس، وصوت الريح. والمراد هنا: صوت الجن. والعقبة: الشيء الصعب. والمراد هنا: المراقى الصعبة من الرمال والجبال. والهزيز: الصوت الشديد، =

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم، ويحكون عنهم، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه، كعجز الإنس. ويبين ذلك من القرآن أن لله - تَعَالَى - حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٦٦﴾﴾^(١) إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه، فإذا ثبت أنه وصف كلامهم، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن يوصف الشيء المؤلف بأنه ينحط عن درجه الفصاحة. وهذان الجوابان^(٢) أسدٌ عندي من جواب بعض المتكلمين عنه: بأن عجز الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز، فلا يعتبر غيره، ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه، فقال لنا قائل: فدلوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله، لم يكن لنا في الجواب غير هذا الطريقة التي قد بينها.

وإنما ضعفنا هذا الجواب؛ لأن الذي حكى وذكر، عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه، كما علمنا عجز الإنس عنه، ولو كان وصف عجز الملائكة عنه، لوجب أن نعرف ذلك أيضًا بطريقه.

فإن قيل: أنتم قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز في التفاصيل، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز في الجملة. قيل: هذا كما أنه يدل على الجملة، فإنه يدل على التفصيل أيضًا، فصح أن يلحق هذا القبيل، كما كان يصح أن يلحق بباب

= وصوت الريح وصفيرها. والتضراب: الضرب الشديد.

(١) سورة الاحقاف. الآية: ٢٩.

(٢) الجوابان المشار إليهما هم:

أ - إخبار الله ﷻ في كتابه الكريم أن الجن لا تستطيع أن تأتي بمثل القرآن. في قوله - شَيْخَانَهُ -: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ب - ما حكاه الشعراء من كلام الجن ومخاطبتهم، مما يدل على أنهم مثل الإنس في عجزهم عن معارضة القرآن.

الجملة.

* * *

ومعنى سادس: وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب: من البسط والاقتصاد والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة. وقد ضمنا بيان ذلك بعد؛ لأن الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل^(١).

ومعنى سابع: وهو أن ورود تلك المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر، ويمنع ذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة. فلو برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المقرر المتصور، ثم إن انضمام إلى ذلك التصرف البديع، في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يُبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما علي الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم^(٢).

* * *

ومعنى ثامن: وهو أن الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذ الأسماع، وتشوف إليه النفوس، ويرى وجه رونقه باديًا غامرًا سائر ما يقرب به، كالدرة التي ترى في

(١) لا يخفى على فطنة القارئ أن هذا الوجه هو تفصيل لبعض ما يتناوله الوجه الثالث الذي مر الكلام عليه.

(٢) وهذا الوجه - أيضًا - تفصيل لما أجمل في الوجه الثالث.

سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي علي نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله، واعتراضه في جنسه ومائه^(١).

وهذا الفصل أيضًا مما يحتاج فيه إلي تفصيل وشرح ونص، ليتحقق ما ادعيناه منه؛ ولولا هذه الوجوه التي بينها لم يتحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة، والتصنع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم يراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضًا في معارضته، ويتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور، لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على من لم يكن بارعًا فيهم ولا متقدمًا في الفصاحة منهم هذه الحال^(٢)، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، حتى يعرف حال عجز غيره، إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك، تحققًا بظهور العجز، وتبينًا له.

وأما قوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾^(٣)، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدل على عجزهم، ولذلك أورده الله مورد تقريرهم؛ لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدي، وتداول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه، علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك

(١) أي: وأصله.

(٢) أي: امتناع الفصحاء عن معارضته. وحاصل كلام المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -، أن الفصحاء لمعرفة فنون الكلام يدركون أن القرآن معجز ولا سبيل إلى معارضته فيسلمون القياد، وأما غير البارعين في العربية قد يظنون - لجهلهم باللغة وتصاريقها - أن القرآن يمكن معارضته، فيعجبون لتعاضد الفصحاء عن معارضته، وربما حاولوا هم معارضته، وهذا وذلك منهم سببه جهلهم بالعربية وهبوط مستواهم في العلم بها.

(٣) سورة الأنفال. بعض آية: ٣١.

لم يقتصروا على الدعوى فقط، ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيات، وفي وصف الأزمة^(١) والأنساع^(٢) والأمور التي لا يؤبه لها ولا يحتاج إليها، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس، ويتبححون به أشد التبجح، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضة في هذه المعاني الفسيحة والعبارات الفصيحة، مع تضمن المعارضة تكذيبه والذب عن أديانهم القديمة، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم وتضليله إياهم، والتخلص من منازعته، ثم من محاربتة ومقارعتة، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل، ويعللونها بالأباطيل؟

* * *

ومعنى تاسع: وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة^(٣)، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشر حرفاً^(٤)، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم. والذي ينقسم إليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية، وبنوا عليها وجوهها، أقسام نحن ذاكروها:

فمن ذلك أنهم قسموها إلى: حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة

(١) الأزمة: الضيق والشدة وقد تكون بتشديد الميم. ويراد بها زمام الدابة وما شابه. وهي بذلك أشبه.

(٢) الأنساع: جمع نسع بكسر فسكون. والنسع: سير ينسج عريضاً على هيئة رباط النعل، لكنه طويل تشد به الرحال.

(٣) إنما هي تسع وعشرون سورة. وهي بترتيب المصحف الشريف: سور: البقرة - آل عمران - الأعراف - يونس - هود - يوسف - الرعد - إبراهيم - الحجر - مريم - طه - الشعراء - النمل - القصص - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة - يس - ص - عافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف - ق - ن.

(٤) الحروف التي في أوائل السور. هي بترتيب وجودها في المصحف الشريف: أ - ل - م - ص - ر - ك - هـ - ع - ط - س - ح - ق - ن.

منها عشرة، وهي: الحاء، والهاء، والحاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين^(١). وما (غير) ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور^(٢)، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لزيادة ولا نقصان^(٣). والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت.. والمهموس كل حرف ضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى معه النفس، وذلك مما يحتاج إلي معرفته، لتبنتي عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف يقولون: إنها على ضربين: أحدهما: حروف الخلق، وهي ستة أحرف: العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والحاء، والغين. والنصف من هذه الحروف مذکور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور^(٤)، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الخلق^(٥)

(١) جمعها علماء التجويد في قولهم: فحثة شخص سكت.

(٢) وهي الحروف: ص - ك - ه - س - ح.

(٣) وهي بقية الحروف الأربعة عشر بعد إخراج الخمسة المهموسة منها. أي تسعة أحرف. وقول المؤلف - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى -: لا زيادة ولا نقصان. رجوع منه عما سبق أن ذكره من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً. ويبين أنها ثمانية وعشرون؛ لأن الحروف المجهورة ثمانية عشر حرفاً بعد إخراج العشرة المهموسة. ونصفها يكون تسعة، وهي الباقية من أحرف أوائل السور بعد إخراج الخمسة المهموسة منها.. لكن المؤلف إن جعل الحروف ثمانية وعشرين يكون قد جعل الألف والهمزة حرفاً واحداً، وهذا مما سيخالفه هو بعد ذلك، وهو الحق.

(٤) وهي الحروف: ع - ح - هـ. ولم يعد الهمزة منها. مما يدل على أنه يراها غير الألف. وهو الصواب - لأن الألف من حروف أوائل السور.

(٥) لأن حروف الخلق ستة. فإذا طرحناها من حروف المعجم الثمانية والعشرين - كما يعتبرها المؤلف - سوف يبقى منها اثنان وعشرون حرفاً. نصفها أحد عشر حرفاً. وهي التي تحصل لدينا من الأربعة عشر التي في أوائل السور إذا ما طرحنا فيها الثلاثة المهموسة التي أشرنا إليها قبلاً.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما حروف غير شديدة، وإلى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي: الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والذال، والطاء، والباء.. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضًا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور^(١). ومن ذلك: الحروف المطبقة، وهي أربعة أحرف، وما سواها منفتحة فالمطبقة: الطاء، والطاء، والضاد، والصاد. وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور^(٢). وإذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها، بعد الزمان الطويل، من عهد النبي ﷺ، رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصفنا. دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه، بعد العهد الطويل، لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب. وإن كان إنما نبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان. فذلك أيضًا من البديع، الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان. فإن كان أصل اللغة توقيفًا فالأمر في ذلك أبين، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضًا؛ لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله - تَعَالَى -^(٣)، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه

(١) تكون نصف تلك الحروف ضمن حروف أوائل السور إذا احتسبنا الهمزة من أحرف أوائل السور. وذلك لأن الذي من أوائل السور من الأحرف الثمانية التي ذكرها هنا هي: القاف - والكاف - والطاء.. فلا تكون نصفًا إلا إذا أضفنا إليها الهمزة بمعنى الألف.. وقد بينا قبل ذلك أن المؤلف فرق بينهما - وهو الصواب..

(٢) وهي: الطاء - والصاد.

(٣) بشير المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى أن الله - تَعَالَى - قد كتب القرآن في لوحه المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. وقبل وجود العرب ولسانهم، فكيف قسم الأحرف العربية =

الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه، وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصصها في النظم إذا كانت حروفاً، كـنحو: **وَألم**؛ لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة. فبها بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم، بما يتعارفون من الحروف، التي تتردد بين هذين الطرفين، ويشبه أن يكون التصنيف وقع في هذه الحروف دون الألف؛ لأن الألف قد تُلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعاً واحداً^(١).

* * *

ومعنى **عاشر**: وهو أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس. وهو مع ذلك ممتنع

= في كتابه هذه التقسيمات البديعة التي طابقت لغة العرب من مهموس ومجهور وقوي وضعيف وحلقي وغير حلقي.. إلى آخر هذه التقسيمات التي جاءت على غاية من الحكمة؟ ثم يشير المؤلف إلى حاصل المذاهب في نشأة اللغات، حيث انتهت الآراء إلى رأيين: الأول: أن اللغة العربية توقيفية. أي أنها من عند الله - تَعَالَى - وأن الله - سُبْحَانَهُ - هو الذي أنزلها، وهدى العرب إليها. لتكون على مقتضى لغة كتابه الخاتم. وفي هذه الحالة - يقول المؤلف - لا عجب أن تأتي تقسيمات الحروف في كتاب الله على ما عليه لغة العرب؛ لأن اللغة والقرآن كلاهما من عند الله - سُبْحَانَهُ .. أما الرأي الثاني في نشأة اللغة: فإنها مما تواضع عليه الناس توصلوا إليها من خلال الخبرات الحياتية، فهي من إفرزات البيئة. يقول المؤلف وعلى هذا الرأي يكون الأمر عجيباً. فإن الله - تَعَالَى - لاشك قد جمع همم العرب في اختياريهم لغتهم عبر الأجيال إلى اختيار نفس اللغة التي سبق في علمه أن تكون لغة كتابه الخالد.

(١) أشرنا فيما سبق إلى أن المؤلف - رَجَمَهُ اللهُ تَعَالَى - يحتسب الألف والهمزة حرفين حيناً، ويحتسبهما حرفاً واحداً حيناً آخر. وقد وضع مذهبه هنا حين بين أن تصنيفه للحروف هنا لم يحتسب فيه الألف؛ لأن العرب قد يكتفون بالهمزة عنها ويسقطونها من حيث إن مخرجها هي والهمزة واحد. لكن يبقى أن المؤلف - رَجَمَهُ اللهُ تَعَالَى - قد اعتبرها في عد الأحرف تسعة وعشرين، وهو الصواب.

المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهوم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام، المتبدل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمتع، أو يوضع فيه الإعجاز، ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع. ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهًا متماثلاً، وبين مع ذلك إعجازهم فيه، وقد علمت أن كلام فصائحهم، وشعر بلغائهم، لا ينفك من تصرف في غريب مستكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستعبدة، ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضع لا يوجد دونه في الرتبة ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المنزلتين، فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس^(١).

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل^(٢)

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف إليه هذه القصيدة، ونظائرها ومنزلتها من البلاغة، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها، على وجه يؤخذ باليد، ويتناول من كذب، ويتصور في النفس كتصور الأشكال، ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن.

* * *

واعلم أن من قال من أصحابنا: إن الأحكام معللة بعلة موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجهًا من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه كنعو

(١) من أشهر شعراء الجاهلية. كان ربيب خمر وندمان. جاءه خبر قتل أبيه وهو في مجلس الخمر فقال قولته المشهورة: اليوم خمر وغداً أمر، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، ضيعني صغيراً، وحملني دمه كبيراً، له معلقة من أشهر المعلقات. مطلعها ما ذكره المؤلف هنا. وسيأتي شرح موسع مع نقد وتحليل لتلك القصيدة.

(٢) مطلع معلقة امرئ القيس المشهورة الموصوفة بالبلاغة.

ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريية، ووجوه تستحسن. وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك^(١)، ولكن الأصل الذي ينون عليه عندنا غير مستقيم، وفي ذلك كلام يأتي في كتابنا في «الأصول».

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والإفراد، فإننا جمعنا بين أمور، وذكرنا المزية المتعلقة بها، وكل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في إظهار الإعجاز فيه.

فإن قيل: فهل تزعمون أنه معجز؛ لأنه حكاية لكلام القديم - شُبْحَانَهُ -، أو؛ لأنه قديم في نفسه؟ قيل: لسنا نقول بأن الحروف قديمة، فكيف يصح التركيب على الفاسد، ولا نقول أيضًا: إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم؛ لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله ﷻ معجزات في النظم والتأليف، وقد بينا أن إعجازها في غير ذلك. وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها.. ومفردتها، وقد ثبت خلاف ذلك^(٢).

(١) يشير المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى ما يذهب إليه العلماء من أن الأحكام التشريعية التي اشتمل عليها القرآن العظيم، ومدى ملاءمتها للفطرة، وتحقيقها المصلحة، وتوفيرها السعادة في الدنيا للآخذين بها، وسموها وتفردتها بالكمال إذا قيست بما تواضع عليه الناس من قوانين ونظم، وخلودها واستقرارها بينما قوانين البشر ونظمهم في تغير دائم. كل ذلك يعتبر من أعظم أوجه الإعجاز في القرآن المجيد، من حيث إن القرآن هو الوعاء الذي حمل واحتوى تلك التشريعات. ولاشك أن هذا وجه صحيح من أعظم الأوجه في إعجاز القرآن المجيد، وإن عارض المؤلف ذلك.

(٢) أدخل المؤلف نفسه هنا في مشاكل كلامية تتصل بقضية خلق القرآن التي حمل المعتزلة كبرها وإثمها، وما تفرع عنها من قضايا وآراء أشار المؤلف إلى بعضها هنا، واختار لنفسه ما يخالف عقيدة السلف التي هي العقيدة الحققة.

فصل

في شرح ما بيننا من وجوه إعجاز القرآن

فأما الفصل الذي بدأنا بذكره، من الأخبار عن الغيوب، والصدق، والإصابة في ذلك كله، فهو: كقوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ لِلْمُحَلِّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾^(١) فأغراهم أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - إلى قتال العرب والفرس والروم، وكقوله: ﴿الْمَرْءُ عُلَيْتِ الرَّؤْمِ﴾^(٢) فِي

(١) غفل المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - عن المعنى الذي جاءت الآية تدعو إليه. فالآية الكريمة لم تنزل في قتال الفرس والروم. ولكنها نزلت في قتال المرتدين عن الإسلام بعد رسول ﷺ. وما كان أحرى بالمؤلف الفاضل أن يعرف ذلك. ذلكم أن الآية الكريمة بينت بالنص القاطع أن الأعداء الذين سيقاتلهم المخلفون من الأعراب سوف يخيرون بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: الإسلام أو القتال. وهذا التخيير بين الأمرين لا يكون للفرس أو الروم؛ لأن الفرس والروم مخيرون بين ثلاثة أمور - وليس أمرين -: بين الإسلام أو الجزية أو القتال. وهؤلاء الذين ذكروا في الآية الكريمة لا يقبل منهم الجزية. بل هم بين الإسلام أو القتال. وهؤلاء هم المرتدون من العرب تحديداً، وذلك حكم كل مرتد عن دين الله - تَعَالَى - إما العودة إلى الإسلام وإما القتل ولا يقبل منه الجزية. وهذه الآية الكريمة وحدها وجه عظيم من أوجه الإعجاز؛ لأنها إخبار بغيب لم يكن يتوقعه أحد. فلم يكن أحد يتوقع أن يرتد بنو حنيفة - ومن جاراتهم عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ. ولذلك كان المسلمون حينما نزلت هذه الآية يتعجبون: فيمن نزلت؟ ومن هؤلاء الذين سيقاتلونهم ولا يقبلون منهم إلا الإسلام؟ حتى ارتد بعض قبائل العرب، ودعا أبو بكر ﷺ إلى قتالهم، فعرف المسلمون من نزلت فيهم الآية، وأنهم مرتدو العرب.. فعن رافع بن خديج ﷺ أنه قال: «والله لقد كنا نقرأ هذه الآية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ فلا نعلم من هم، حتى دعانا أبو بكر ﷺ إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم. فإدخال قتال الفرس والروم تحت هذه الآية سهو من المؤلف. وجل من لا يضل ولا ينسى. والآية من سورة الفتح: ١٦.

أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَقْلِبُونَ ﴿٤﴾ فِي بِيضِ سِينٍ ﴿١﴾، وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك، وصدق الله وعده. وكقوله في قصة أهل بدر: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١٥﴾﴾ (٢).

وكقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (٣). وكقوله: ﴿وَإِذْ يَبْعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ (٤). في قصة أهل بدر. وكقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (٥). وصدق الله تعالى. وعده في كل ذلك. وقال في قصة المتخلفين عنه في غزوته: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ (٦)، فحق ذلك كله وصدق، ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد. وكقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٧) وكقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ (٨)، فامتنعوا من المباهلة، ولو أجابوا إليها اضطرت عليهم الأودية نارا على ما ذكر في الخبر، وكقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾ (٩)، ولو

(١) سورة الروم. الآيات: ١ - ٢، وبعض: ٣.

(٢) سورة القمر. الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفتح. بعض آية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال. بعض آية: ٧.

(٥) سورة التور. بعض آية: ٥٥.

(٦) سورة التوبة. بعض آية: ٨٣.

(٧) سورة التوبة. بعض آية: ٣٣، وسورة الفتح. بعض آية: ٢٨، وسورة الصف. بعض آية: ٩.

(٨) سورة آل عمران. بعض آية: ٦١.

(٩) سورة البقرة. آية. ٩٤ وبعض آية: ٩٥. ومثل هذه الآية قوله - تعالى - من سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمُ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا=

تمنوه لوقع بهم. فهذا وما أشبهه فصل.

* * *

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه، من أخبار عن قصص الأولين، وسير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع، على من لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار. وقد حكى في القرآن تلك الأمور حكاية من شهدها وحضرها، وذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِيسِنِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾^(١)، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٩﴾﴾^(٢)، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِمَّنْ قَبْلِكَ ﴿٥٠﴾﴾^(٣)، فبين وجه دلالة من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة. وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿٥١﴾﴾^(٤). الآية.

فأما الكلام في الوجه الثالث، وهو الذي بيئناه، من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوهاً.

ومنها أننا قلنا إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى؛ لأن قوماً من كفار قريش ادعوا أنه شعر، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً، ومن أهل الملة من يقول

= أَلَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَسْمَعُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ : ﴿٦٧﴾.

(١) سورة العنكبوت. الآية: ٤٨.

(٢) سورة القصص. الآية: ٤٤.

(٣) سورة القصص. الآية: ٤٦.

(٤) سورة هود. بعض آية: ٤٩. ومثل تلك الآية قوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران. بعض آية: ٤٤، يوسف. بعض آية: ١٠٢].

إنه كلام مسجع إلا إنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، ومنهم من يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب.

فصل

في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا أن الله - تَعَالَى - نَفَى الشعر عن القرآن وعن النبي ﷺ، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾﴾^(١)، وقال في ذم الشعراء: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٣٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾^(٢)، إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات^(٣)، وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴿٤﴾﴾^(٤).

وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار، من قولهم: «إنه شاعر» وإن هذا «إلا شعر»، لا بد من أن يكون محمولاً على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه، علي الأعراب المحصورة المألوفة، أو

(١) سورة يس. الآية: ٦٨.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) لقد كان الأولى بل الصواب ألا يقف المؤلف الفاضل على ذكر الآيتين السابقتين من سورة الشعراء؛ لأن فيهما ذمًا للشعر والشعراء بناء على وصفين ذكرتهما الآيات، وكان يجب أن يكمل حتى يذكر الاستثناء الوارد في قوله - تَعَالَى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ خامسة سورة الشعراء.

والوقوف على الآيتين خطأ أولاً: لأنه وقوف قبل الاستثناء مباشرة. وهذا غير جائز شرعاً وهو شبيه بمن يقف على قول الله - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ من سورة العصر. وشبيه بمن يقف على قول الله - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلًا سَافِلِينَ﴾ من سورة التين..

(٤) سورة الحاقة. بعض آية: ٤١.

يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم^(١) في وجوه الكلام، وطرق لهم في المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب من شعر على الحقيقة، أو يكون محمولاً على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر، وهذا أبعد الاحتمالات^(٢).

فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحاً وذلك أن الشعر يفطن لما لا يفطن له غيره، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم وعندهم أقدر، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب.

* * *

فإن زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع؛ كقول القائل:

قد قلت لما حاولوا سلوتي هيهات هيهات لما توعدون^(٣)

(١) الأولي أن تكون الكلمة: لدقة نظر لهم.

(٢) بين المؤلف أن وصف المشركين القرآن بأنه شعر، ووصف الرسول ﷺ بأنه شاعر يحتمل ثلاثة أوجه:

أولاً: أن يكونوا قد قالوا ذلك نظراً إلى بعض الآيات التي وردت موزونة على بعض الاعاريض والأوزان الشعرية المألوفة لديهم. وهذه حالات محصورة وقليلة. وسيأتي كلام المؤلف عنها مبينا أنها لا تعتبر شعرا.

ثانياً: أن يكونوا قد قالوا ذلك اعتباراً من إطلاقهم كلمة «شعر» على الحكمة. وكلمة «شاعر» على الحكيم. وقد كانوا يطلقون على الفلاسفة والحكماء لديهم شعراء بهذا المعنى، وقد قرر المؤلف. أن الإطلاق بهذين الاعتبارين صحيح.

ثالثاً: أن يكون هذا الإطلاق قد صدر عن بعض من لا يجيد أوزان الشعر ولا يعرف فنونه. فظنوا أن الأسلوب الفريد في القرآن هو من باب الشعر حقيقة. قال المؤلف. وهذا الإطلاق أبعد الاحتمالات.

(٣) الشطر الثاني هو الآية رقم: ٣٦ من سورة المومنون.

ومما يزعمون أنه بيت قوله:

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾^(١)

قالوا: هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه:

ساكن الريح نطوف المزن منحل العزالي^(٢)

وكقوله: ﴿وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾^(٣)

كقول الشاعر من بحر الخفيف:

كل يوم بشمسه وغد مثل أمسه

وكقوله ﴿عَجَلًا﴾:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٤).

قالوا هو من المتقارب... وكقوله:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾^(٥).

ويشبعون حركة الميم فيزعمون أنه من الرجز، وذكر عن أبي نواس أنه ضمن

ذلك شعراً وهو قوله:

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا^(٦)

دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا

(١) سورة سبأ. بعض آية: ١٣.

(٢) نطوف: وجمع نطفة، وهو وصف للماء. والمزن: جمع مزنة وهي السحابة البيضاء. والعزالي: جمع عزلاء. فتحة السقاء التي ينزل منها الماء. يصف المزن كأنه أسقية مملوءة بالماء وقد فتحت أفواهاها فنزل المطر.

(٣) سورة فاطر. بعض آية: ١٨، ونص الجزء المذكور: [ومن يتركى فإنما يتركى لنفسه]. وقد حذف الواو ليواكب الكلام الوزن.

(٤) سورة الطلاق. بعض آيتي: ٢ - ٣.

(٥) سورة الإنسان. الآية: ١٤.

(٦) يصف الفتية بالظرف وخفة الظل بقوله: قد عدموا التثقيلا.

وقوله ﷻ: ﴿وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١)
زعموا أنه من الوافر كقول الشاعر:

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها عصي^(٢)
وكقوله ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
أَلَيْتَهُ ﴿٢﴾﴾^(٣) ضمنه أبو نواس في شعره ففصل، وقال: فذاك الذي، وشعره:

وقرا معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما
أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدع اليتيما
وهذا من الخفيف كقول الشاعر:

وفؤادي كمهده بسليمي بهوى لم يحل ولم يتغير
وكان ضمنه في شعره من قوله:

سبحان (من) سخر هذا لنا (حقا) وما كنا له مقرنين^(٤)
فزاد فيه حتى انتظم له الشعر، وكما يقولونه في قوله ﷻ: ﴿وَأَلْعَدِيَّتِ
صَبِيحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَّتِ قَدَحًا ﴿٢﴾﴾^(٥)، ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله:
﴿وَالذَّارِيَّتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمِيَّتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَعْرِيتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾^(٦)، وهو عندهم شعر
من بحر البسيط.

- (١) سورة التوبة. بعض آية: ١٤.
- (٢) يفتخر باليسار والغنى فيذكر أن لديه غنمًا كثيرة منها الصغير. ومنها الأغنام الكبيرة السن التي تحولت قرونها وطالت حتى كأنها العصي.
- (٣) سورة الماعون. الآيتان: ١ - ٢.
- (٤) ما ضمنه الشاعر الماخن بيت شعره كان قبل أن يغير فيها آية من سورة الزخرف. هي الآية: ١٣. والآية هي قول الله - تعالى -: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ﴾.
- (٥) سورة العاديات. الآيتان: ١ - ٢.
- (٦) سورة الذاريات. الآيات: ١ - ٣.

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها من وجوه:

أولها: أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته؛ لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم، لهم فيه ما قد علمت من التصرف العجيب، والافتقار اللطيف، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عوّلوا عليه، عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمردون في هذا الشأن^(١)، وأن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم، وزعمه أن قد ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم إلى الطعن في القرآن، والغض منه، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه، لن يجوز أن يخفى على أولئك وأن يجهلوه، ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق.

وإذا كان كذلك، عُلم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا: إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً، وأقل الشعر بيتان فصاعداً، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام. وقالوا أيضاً: إن ما كان على وزن بيتين إلا أنه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر. ثم منهم من قال: إن الرجز ليس بشعر أصلاً، لاسيما إذا كان مشطوراً أو منهوكة^(٢)، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الأجزاء. وعلى هذا يسقط

(١) أي الفقراء في فن الشعر. والعرب تصف الفقراء بأن أيديهم مليئة بالرماد أو التراب، فيقولون في الدعاء بالفقر: «رمدت يداك» أو «تربت يداك» أي امتلأت يداك رماً أو تراباً. أي افتقرت. وقد تستعمل كلمة «المردون» في الغنى والكرم. بمعنى كثيري الرماد. وقد كانوا يكونون عن الغنى بأنه كثير الرماد. من كثرة إشعاله النار لإطعام الضيفان. لكن الكلمة هنا في الفقراء.

(٢) المشطور: الشعر من الرجز أو السريع إذا جعلت وحداته نصف بيت يلتزم في جميعها قافية واحدة. والمنهوك: هو الشعر من الرجز إذا حذف ثلثا البيت.

السؤال^(١).

ثم يقولون: إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه، على الطريق الذي يتعمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه. وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر، ولا صاحبه اسم شاعر؛ لأنه لو صحح أن يسمى^(٢) كل من اعترض في كلامه ألفاظ تترن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعراب، كان الناس كلهم شعراء. لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يترن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه. ألا ترى أن العامي قد يقول لصاحبه: «أغلق الباب وائتني بالطعام»، ويقول الرجل لأصحابه: «أكرموا من لقيتم من تميم»، ومتى تتبع الإنسان هذا عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه.. وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة، إذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ، كقول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وكقول طرفة:

(١) يتحصل مما ذكر المؤلف - رحمه الله - تعالى - أن الكلام لكي يسمى شعراً لابد من توفر شرطين: الأول: أن يكون الكلام الموزون أكثر من بيت. أي بيتين فأكثر. الثاني: أن يكون البيتان متفقين في الوزن والقافية. وعلى ذلك فالبيت الواحد لا يسمى شعراً، والأبيات الكثيرة إذا لم يتفق فيها بيتان وزناً وقافية لا يكون ذلك شعراً. ثم أضاف المؤلف الفاضل: إن من علماء الشعر والعربية من يرى أن الرجز ليس شعراً بصورة عامة. ويتأكد خروجه عن الشعر إذا كان مشطوراً أي على نظام نصف البيت. أو كان منهوكاً. أي حذف من البيت ثلثاه. فإن التشطير والنهك يؤدي إلى قلة أجزاء الرجز إلى الحد الذي يجعله قريباً من الكلام العادي وقد أضاف المؤلف شروطاً أخرى لتحقق وصف الكلام بأنه شعر. سوف يأتي الكلام عنها في الفقرة التالية.

(٢) أي يسمى شاعراً، ويسمى كلامه شعراً.

وقفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد^(١) ومثل هذا كثير. فإذا صح مثل ذلك في بعض البيت، ولم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنشور، اتفاقاً غير مقصود إليه، فإذا اتفق لم يكن ذلك شعراً. وكذلك يمتنع التوارد على بيتين، وكذلك يمتنع في الكلام المنشور وقوع البيتين ونحوهما. فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموضع لم يعد شعراً، وإنما يعد شعراً ما إذا قصده صاحبه تأنى له، ولم يمتنع عليه، فإذا كان هو مع قصده لا يتأنى له، وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد إليه، لم يصح أن يقال: إنه شعر، ولا إن صاحبه شاعر، ولا يصح أن يقال: إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب أن يكون شعراً؛ لأنه لو قصده لكان يتأنى منه. وإنما لم يصح ذلك؛ لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد، وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد. ألا ترى أن السوقي قد يقول: «اسقني الماء يا غلام سريعا»، وقد يتفق ذلك من الساهي، ومن لا يقصد النظم. فأما الشعر إذا بلغ الحد الذي بينا فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه. وأما الرجز فإنه يعرض في كلام العوام كثيراً، فإذا كان بيتاً واحداً فليس ذلك بشعر. وقد قيل: إن أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها، ولم يتفق ذلك في القرآن بحال. فأما دون أربعة أبيات منه، أو ما يجري مجراه في قلة الكلمات، فليس بشعر، وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الروي، ويقولون: إنه متى اختلف الروي خرج من أن يكون شعراً^(٢).

(١) يقول كل من الشعارين: إن أصحابه وقفوا وراحلهم عليه، كناية عن وقفهم هم لما رأوه وفاقاً عند أطلال الأحبة يكي. وقالوا له: لا تهلك نفسك واصبر.

(٢) خلاصة هذا الذي ذكره المؤلف أن من شرائط كون الكلام شعراً أن يكون قد قصد صاحبه أن يجعله شعراً. فلا بد من توفر القصد لدى القائل. فإذا ما خرج الكلام موزوناً دون قصد من قائله فلا يسمى شعراً. وقد سبق أن بين المؤلف أن الكلام لا يكون شعراً إلا إذا كان بيتين فأكثر وعلى وزن وقافية واحدة، هذا بالنسبة إلى الشعر بعامة. أما الرجز =

وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة^(١) أو أكثرها، ولو كان ذلك شعراً لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته؛ لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، وأهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم. فإن قيل: في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وإن كان غير مقفى، بل هو مزوج متساوي الضروب، وذلك آخر أقسام كلام العرب. قيل: من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر، والسواكن والحركات، فإن خرج عن ذلك لم يكن موزوناً كقوله:

رب أخ كنت به مغتبطاً	أشد كَفِّي بغراً صحبته
تمسكاً مني بالود ولا	أحسبه يزهد في ذي أمل
تمسكا مني بالود ولا	أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبداً	فخاب فيه أملي ^(٢)

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل، بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح، وربما كان عندهم مستكراً، بل أكثره على ذلك. وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولاً، وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية. ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا، وتم فائدته بالخروج منه، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه^(٣).

* * *

= بخاصة فقد وضع له المؤلف شرطاً آخر وهو ألا يقل عن أربعة أبيات وكلها على روي واحد، فإذا قلت عن أربعة، أو كانت أربعة فأكثر واختلف الروي لا يسمى الرجز شعراً.

(١) أي متفق عليها لدى علماء هذا الفن.

(٢) هذه أربعة أبيات من الرجز غير ملتزم فيها قافية واحدة، وقد ضرب به مثلاً لما لا يسمى شعراً.

(٣) يبين المؤلف عن معنى بديع في الفروق بين القرآن العظيم وشعر الشعراء مهما بلغت فصاحته. فقد نبه على أن القرآن المجيد يختلف عن الشعر في أن بلاغته وتام معانيه إنما =

فصل

في نفي السجع من القرآن

ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن^(١) في غير موضع من كتبه. وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع^(٢) في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة، كالتجنيس والالفتات وما أشبه ذلك، من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه: اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون - عليهما السلام -، ولمكان السجع قيل في موضع: (هارون

تم وتصل غايتها حين يخرج القرآن على أوزان الشعر ويخافه. بينما الشعر إنما يكون بديقاً ورائعاً حينما يكون موزوناً. فالقرآن بلاغته في الخروج على أوزان الشعر. والشعر على عكس ذلك، فكيف يستقيم - مع هذا - القول بأن القرآن شعر أو فيه شعر. وأن رسول الله ﷺ شاعر؟.

(١) أبو الحسن الأشعري. يصل نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. كان بارعاً في علم الكلام على مذهب الاعتزال، وكان المقدم من تلامذة أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه. ثم انفصل أبو الحسن عن الاعتزال وأعلن خروجه على المعتزلة. وأخذ يقعد لمذهبه الذي بين فيه ضلال المعتزلة في أصولهم التي بنوا عليها مذهبهم.. ألف الكتب الكثيرة في الرد على الاعتزال وبيان قواعد مذهبه، عدل في أخريات حياته إلى عقيدة السلف والتزم عقيدة الإمام أحمد بن حنبل بقية السلف في عهده - رضي الله عن الجميع -، عاش أبو الحسن ستين عامًا تقريبًا بين: ٢٧٠ - ٣٣٠ هـ. وقد نص المؤلف على أبي الحسن - تعييناً - لما أن المؤلف أشعري. وأبو الحسن شيخ الأشعرية.

(٢) السجع: توالى الكلام في فقرات متفقة الفواصل. وقد عرفه المؤلف - في رأس الصفحة التالية - بأنه: موالاة الكلام على وزن واحد. وأصل السجع: ترديد الأصوات على نظام واحد، مفهومًا كان أو غير مفهوم. ومن غير المفهوم قولهم: سجت الحمامة. أي رددت أصواتها.

وموسى^(١) ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل: (وهارون)^(٢). قالوا: وهذا يفارق أمر الشعر؛ لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً، وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم، كما يتفق وجوده من الشاعر. وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه. وبينون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالة الكلام على وزن واحد، قال ابن دريد: سجعت الحمامة معناها: رددت صوتها. وأنشد:

طربت فأبكتك الحمام السواجع تميل بها ضحواً غصوناً نوائع^(٣)
النوائع: الموائل، من قولهم: نائع، أي متمایل ضعفاً.

وهذا الذي يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجماً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز، وكيف؟ والسجع مما كان يألفه

(١) يشير إلى قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - ﴿فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]. والمقصود هنا أن النظم القرآني المجيد قد قدم «هارون» في الكلام على «موسى» رغم أن موسى أفضل منه باتفاق. وإنما قدم عليه بسبب فواصل الآي، فإنها كلها قبل الآية المذكورة وبعدها بالألف المقصورة. كما يتضح ذلك من الرجوع إلى آيات السورة الكريمة من الآية ٣٦ وحتى: ٧٧.

(٢) يشير إلى قوله - تَعَالَى - ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢]، والشعراء: ٤٧ - ٤٨]. وورد مثل ذلك في قوله - تَعَالَى - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ [سكنته على موسى وهرون] [الصافات: ١٩٩ - ١٢٠].. ويلاحظ أن القرآن المجيد لم يرد فيه فاصلة قبل ذكر موسى وهارون بالواو والنون. ولكنها كلها وردت بالياء والنون كما هو واضح من الآيات المذكورة.

(٣) يقول: إن الحمام كان يسجع بأصواته وهو واقف على غصون أشجار تميل به هنا وهناك. فآثار شجعها أشجانك وأبكاك. والمراد بقوله: طربت: جاشت عواطفك.

الكهان من العرب، ونَفِيهِ من القرآن أجدر بأن يكون حجة^(١) من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر.

وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤوه وكلموه في شأن الجنين فقالوا: «كيف ندي من لا أكل ولا شرب»^(٢)، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل؟»، فقال ﷺ: «أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟» وفي بعضها: «أسجعا كسجع الكهان؟» فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالاته.

والذي يقدرونه أنه سجع فهو وَهْمٌ؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً؛ لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل^(٣) بين أن ينتظم الكلام في نفسه، بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى^(٤).

(١) أي: أولى من نفي الشعر؛ لأن الشعر كان يتعاطاه الناس الأسوياء في جملته. أما السجع فقد كان يتعاطاه ويحرص عليه طائفة من أسوأ الناس وهم الكهان.

(٢) الجملة فيها تقديم وتأخير. وصوابها: كيف ندي من لا شرب ولا أكل. ووضع «أكل» في آخر الفاصلة لتستقيم كلها على وزن واحد.. وقوله: ندى: معناه: ندفع الدية. من: ودى يدي. مثل: وقى يقي.

(٣) أي: فرق.

(٤) يبين المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أن السجع نوعان: نوع يكون المعنى هو الأساس والهدف، فيأتي التكلم بالسجع لأن المعنى يتطلبه. وهذا النوع يكون فيه اللفظ تابعاً للمعنى. وهذا السجع الجيد الذي لا يظهر فيه تكلف. والنوع الثاني: سجع يكون اللفظ المسجوع هو الأساس، والمعنى يكون تابعاً للفظ. فهو يسجع وتأتي المعاني بعد ذلك أيًا كانت. وهذا السجع المتكلف الرديء.

فإن قيل: فقد يتفق في القرآن ما يكون من القبيلين^(١) جميعًا، فيجب أن تسموا أحدهما سجعا.

قيل: الكلام في تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أول القرآن إلى آخره، ونبيّن في الموضوع الذي يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى، ولكنه خارج عن غرض كتابنا. وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين.

ثم إن سلّم لهم مسلّم موضعًا أو مواضع معدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، وأن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يُعدّ سجعا، على ما قد بينّا من القليل من الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه، فلا يقال: إنه شعر؛ لأنه لا يقع مقصودًا إليه، وإنما يقع مغمورًا في الخطاب، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه.

ويقال لهم: لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذمومًا مردولًا؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقة، كان قبيحًا من الكلام. وللسجع منهج مرتّب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أُخلّ به المتكلم أوقع الخلل في كلامه، ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا، وكان شعره مردولًا، وربما أخرجه عن كونه شعرا.

وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل، متداني المقاطع؛ وبعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود^(٢).

(١) أي من النوعين اللذين ذكرناهما من السجع.

(٢) يبين المؤلف - رحمه الله تعالى - أن الزعم بأن القرآن المجيد محتوٍ على السجع زعم يؤدي إلى الخط من بلاغة القرآن وفصاحته؛ لأن السجع لدى العرب له قواعد وضوابط، وإذا =

فإن قيل: متى خرج السجع المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه، خرج من أن يكون سجعا، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه سجعا، بل يأتي به طورا، ثم يعدل عنه إلى غيره، ثم قد يرجع إليه.

قيل: متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفا للآخر كان تخليطا وخبطا، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطا، وعلم أن فصاحة القرآن غير مذمومة في الأصل، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب. ولو كان الكلام الذي هو صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو إلى المعارضة؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة؟ وهو غير خارج عنها، ولا يميز منها؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع، وليس بسجع عندهم، وذلك نحو قول البحري:

تشكى الوجى والليل ملتبس الدجا غزيرية الأنساب فرزت نقيعها^(١)
وقوله^(٢):

قريب المدى حتى يكون إلى الندى عدو البنى حتى يكون معالي^(٣)

= لم يلتزم الساجع هذه الضوابط كان كلامه مردولا ساقطا، والقرآن لم يلتزم ضوابط السجع فيما زعم أنه سجع فيه. ومن ثم فمال ذلك. إن كان سجعا. أن يكون سجعا مردولا ساقطا ضعيفا. وحاش لله. تعالى. أن يكون كتابه. أو شيء منه. كذلك. والذي أدى إلى هذا إنما هو الزعم بأن في القرآن سجعا. وليس الأمر كذلك. بل إن أسلوب القرآن الذي ظن أن به سجعا أسلوب فريد فذ لا يصل إلى مثله إنس ولا جن.

(١) يمدح الشاعر الخليفة المتوكل، ويصف ناقته التي حملته إلى الخليفة بأنها تعبت من طول الترحال إلى الخليفة حتى شكت الوجى. وهو وجع في أرجلها. واشتد بها العطش. وكانت مياه الآبار التي تمر بها جافة كالصحراء، كناية عن افتقار الماء.

(٢) أي: البحري. وهو أبو عبادة البحري الوليد بن يحيى بن عبيد بن شملان. ابن بحتري الطائي. أديب مجيد من الأدباء العباسيين. توفي سنة أربع وثمانين ومائتين.

(٣) يصف الممدوح بأنه جواد كريم، وجوده قريب لا يحتاج إلى جهد ليصل إليه. وأنه عدو=

ورأيت بعضهم يرتكب هذا، فيزعم أنه سجع متداخل^(١)، ونظيره من القرآن قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾^(٢)، وقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾^(٣)، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾^(٦)، ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به، ويصرفونه إليه، ويتوهمونه فيه، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه، وليس القوم عاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم^(٧).

والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة، دون التفصيل، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع.

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن^(٨):

- = البناء. لا يحب أن يبني بناءً إلا إذا كان بناءً عالياً رفيعاً. والمراد بالبناء هنا: البناء المعنوي وليس المادي. أي مباني الفضل والمكانة، والرفعة، وليس البناء المادي من جدر وبيوت.
- (١) بعضهم يسمي هذا النوع: ترصيعاً، والترصيع: جمع عدد من الفواصل المتقاربة داخل بيت من الشعر، أو فقرة من الشعر.
- (٢) سورة النحل. بعض آية: ٢٧.
- (٣) سورة الإسراء. بعض آية: ١٦.
- (٤) سورة التوبة. بعض آية: ٣٤.
- (٥) سورة آل عمران. بعض آية: ٤٨ - ٤٩.
- (٦) سورة مريم. بعض آية: ٤.
- (٧) أي أن القوم ما داموا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن. مع معرفتهم بفنون السجع وقد رتبهم عليه. كان ذلك دليلاً على أن ما في القرآن ليس سجعاً، وإلا لكانوا أتوا بمثله لمعرفة السجع وبراعتهم فيه.
- (٨) سيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن المشاهير، وكانت حياته حروباً ومناوشات له وعليه، وكان قد حارب الحبشة سنين، وهذه الكلمة المذكورة، نسبت إلى أبي طالب وهو يهنيء سيف بن ذي يزن بانتصاره على الحبشة.

«أنتك منبتًا طابت أرومته^(١)، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وسبق^(٢) ونبت زرعه، في أكرم موطن، وأطيب معدن». وما يجري هذا المجرى من الكلام.

* * *

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة، مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم. ولا معنى لقولهم: إن ذلك^(٣) مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروي غير مختلف؛ لأن ما جرى هذا المجرى لا يُبنى على الاشتقاق وحده؛ ولو بُني عليه لكان الشعر سجعا؛ لأن رويه يتفق ولا يختلف، وتردد القوافي على طريقة واحدة، وأما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف. فربما كان ذلك يسمّى قافية، وذلك إنما يكون في الشعر، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمّى مقاطع السجع، وربما سمي ذلك فواصل، وفواصل القرآن - مما هو مختص بها - لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب.

وأما ما ذكره من تقديم موسى على هارون - عليهما السلام - في موضع، وتأخير هارون عنه في موضع، لمكان سجع، ولتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكره، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبين فيه البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومكرّرًا. ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصودوا تلك القصة، فعبروا منها بألفاظ لهم، تؤدي تلك

(١) أنتك منبتا: رباك في بيت، والأرومة: الأصل. مثل الجرثومة فإن معناها الأصل أيضا، يقول: رباك في بيت أصيل رفيع المكنة.

(٢) سبق: سما وعلا حتى تم ارتفاعه.

(٣) أي السجع. وهو هنا يرفض القول بأن السجع هو كل كلام منسق على روى واحد؛ لأن الشعر كذلك، ولا يسمى سجعا.

المعاني وتحويلها وجعلوها يإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما جاء به. كيف وقد قال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤)؟^(١) فعلى هذا يكون المقصد - بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها - إظهار الإعجاز على الطريقتين جميعًا، دون التسجيع الذي توهموه.

* * *

فإن قال قائل: القرآن مختلط من أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطيبهم، ورسائلهم، وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفَى، ولكنه أبدع فيه ضربًا من الإبداع لبراعته وفصاحته.

قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى: نظم، ونثر^(٢)، وكلام مقفَى غير موزون، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع، ونظم مقفَى موزون له روي. ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوُلُهُ أقرب، وسلوكه لا يتعذر. ومنه ما هو أصعب تناوُلًا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين. وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين: إما بتعمُّل وتكَلُّف وتعلُّم وتصنُّع، أو باتفاق من الطبع، وقَدْف من النفس على اللسان للحاجة إليه، ولو كان ذلك مما يجوز اتفاهه من الطبايع، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم، ويتعرض على ألسنتهم، وتجيئ به خواطرهم، ولا ينصرف عنه الكل، مع شدة الدواعي إليه، ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه، فالمهلة لهم فسيحة والأمد واسع.

* * *

(١) سورة الطور. الآية: ٣٤.

(٢) الكلام كله، وبصوره المختلفة يدخل تحت هذين القسمين: النظم والنثر. ولذلك يصح الحصر فيهما فيقال: الكلام إما نظم وإما نثر. والأقسام الواردة في كلام المؤلف بعد ذلك كلها تدخل تحت النثر إلا القسم الأخير هو: نظم مقفَى موزون له روي. فهذا شعر.

وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم؟ فقد قيل: إنه اتفق في الأصل غير مقصود إليه، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام، ثم لما استحسناه واستطابوه، ورأوا أنه تألفه الأسماع، وتقبله النفوس، تتبَّعوه من بعد وتعمَّلوه^(١). وحكى لي بعضهم عن أبي عمر^(٢) غلام ثعلب عن ثعلب^(٣): أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول^(٤) يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن.

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

ويسمون ذلك الوضع «المتير» واشتقاقه من المترو وهو الجذب أو القطع، يقال: مترت الحبل بمعنى قطعتة أو جذبتة^(٥)، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله.

وأما ما وقع السبق إليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولاً، وقد يحتمل - على قول من قال بأن اللغة اصطلاح - أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم، وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، وأنهم وقفوا على ما يتصرف إليه القول من وجوه التصافح، أو توافقوا هم بينهم على ذلك.

(١) تعملوه: أي تكلفوه واصطنعوه، ودرسوا صورته، حتى كان من ذلك إحصاء أشكاله وضبط أوزانه.

(٢) أبو عمر الزاهد، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم. غلام ثعلب. كان عالماً بالنحو واللغة والشعر. ولسعة علمه وقوة حفظه نسبة البعض إلى الكذب. ولد سنة إحدى وستين ومائتين، ومات سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

(٣) أبو العباس ثعلب: أحد بن يحيى بن يسار الشيباني. إمام الكوفيين في النحو واللغة. ولد سنة مائتين. وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائتين.

(٤) أي بكلام غير مفهوم، وأصوات خالية من المعاني. ليس فيها سوى التنغيم والتقطيع على هيئة بعض الأوزان الشعرية.

(٥) جاء في المعاجم: متر الشيء متراً: قطعه. ومتر الحبل ونحوه: مده أو جذبه. وتماثر القوم الشيء: تجاذبوه فيما بينهم.

ويمكن أن يقال: إن التواضع وقع على أصل الباب، وكذلك التوقيف، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب، وأن الله - تَعَالَى - أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفظنوا لحسنه فاتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه، ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب^(١) بوزنها، وتهش^(٢) النفوس إليها، وجمع^(٣) دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، واختيار طرق من تنزيلها، وعرفهم محاسن الكلام، ودلهم على كل طريقة عجيبة^(٤)، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بالقرآن. والقدر الذي يتناهى إليه قدرهم، هو ما لم يخرج عن لغتهم، ولم يشذ من جميع كلامهم، بل قد عرضوا في خطابهم ووجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدي والتفريع الشديد، والحاجة الماسة إليه، مع علمهم بطريق وضع

(١) المراد بالاضطراب هنا: جيشان النفس، وشدة الانفعال، وقوة التأثير.

(٢) تهش النفس لها: تسعد بها، وترتاح إليها، وتقبل عليها.

(٣) فاعل جمع: الله - سُبحَانَهُ وَ- تَعَالَى - .

(٤) حاصل ما ذكر المؤلف من آراء حول نشأة الشعر العربي، وكيف وصل به العرب أو

وصل هو بالعرب إلى هذا المستوى، رأيان أساسيان:

الرأي الأول: أن الشعر بدأ في لغة العرب تدرجاً بشكل غير مقصود. بدأ بكلمات ساذجة موزونة، ثم بجمل، ثم بفقرات، ومع التقدم في ذلك وكثرته، وإحساسهم بجماله واستحسانهم إياه تتبعوا ذلك الكلام الموزون واستكثروا منه وجوده، وتفننوا في طرقة وأساليبه، ثم عنوا به بوضع أوزانه وحصر تفعيلاته حتى وصل إلى ما وصل إليه، واستدل على ذلك بما نقله عن غلام ثعلب عن ثعلب من أن العرب كانت تهنه أطفالها وتعلمهم بكلام غير مفهوم موزون على أوزان الشعر، ويدخل تحت هذا الرأي كل ما ذكر من كونهم (تواضعوا) على ذلك، أو توافقوا عليه. فإن كل هذه الآراء تدخل في إطار أن اللغة من وضع البيئة ومفرداتها.

الرأي الثاني: أن الشعر لم يبدأ تدرجاً، ولكن الله - تَعَالَى - قد أجرى على ألسنة بعض الشعراء ما أجرى من النظم والأوزان، وقد فطنوا لحسنه وجماله وقوة تأثيره، فاتبعوه وأكثروا منه وجوده ووضعوا له قواعده وأشكاله.

النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه، دلالة على أنه اختص به^(١)، ليكون دلالة على النبوة، ومعجزة على الرسالة. ولولا ذلك لكان القوم إذ اهدتوا في الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التي يتصرف إليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه، فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه، والتحدي إليه، أولى أن يبادروا إليه، لو كان لهم إليه سبيل.

ولو كان الأمر على ما ذكره السائل^(٢) لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم، ولكانوا يسرعون إلى الجواب، ويبادرون إلى المعارضة، ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم، والأسباب التي لا يحتاج إليها، فيكثر فيها من شعر ورجز، ونجد من يعينه على نقله عنه، على ما قدمنا ذكره، من وصف الإبل، ونتاجها، وكثير من أمرها، لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا.

ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والذراية، ويتنافرون فيه، وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهلها. فاستدللنا بتحيرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم، ووقوعه موقعًا يخرق العادات، وهذه سبيل المعجزات.

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا يخرجها عن حدها، ولا يدخلها في باب السجع. وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزًا، فلورأوا أن ما تلي عليهم من القرآن سجع لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في

(١) الضمير الأول للقرآن المجيد، والضمير الثاني للإعجاز. أي أن القرآن المجيد قد اختص بالإعجاز.

(٢) من أن القرآن خليط من كلام العرب وأغراضه، فيه شعر ونثر، وخطب ورسائل... إلخ. فليس فيه شيء خارج عما احتوته اللغة العربية لدى الناطقين بها.

الفصاحة على طريقة القرآن، وتجاوز حده في البراعة والحسن. ولا معنى لقول مَنْ قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه؛ لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدره من التسجيع؛ لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته.

ولا بد لمن جَوَّز السجع فيه وسلك ما سلكه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام^(١)، وعباد بن سليمان، وهشام الفوطي، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف^(٢). ويتضمن كلامه تسليم الخطب في طريقة النظم، وأنه منتظم في فرق شتى، ومن أنواع مختلفة، ينقسم إليها خطابهم، ولا يخرج عنها، ويستعين ببدع نظمه، وعجيب تأليفه، الذي وقع التحدي إليه. وكيف يعجزهم الخروج عن السجع، والرجوع إليه، وقد علمنا عاداتهم في خطبهم وكلامهم، أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة^(٣) بين نظمي الكلامين.

* * *

-
- (١) إبراهيم بن يسار النظام، من كبار رجال المعتزلة في عصره، وله في مذهب الاعتزال آراء تنسب إليه. وأشهر آرائه وأسفها قوله بأن القرآن الكريم ليس معجزاً بلاغةً وبيانا، ولكنه معجز بالصرف، بمعنى أن الله - تعالى - صرف قلوب الكفار عن معارضته. وقد تابعه على فريته هذه كثيرون منهم هذان اللذان أشار إليهما المؤلف. وهما عباد بن سليمان الصيمري، وهشام بن عمرو الفوطي. وهما من أصحاب المقالات على مذهب الاعتزال.
- (٢) هؤلاء المذكورون من القائلين بأن القرآن غير معجز. وأنه يمكن أن يأتوا بمثله وربما أجود منه. لكن الله - تعالى - صرفهم عن الإتيان بمثله بأنواع من الصوارف.. وقد سبق وبيننا مذهبهم هذا الباطل. كما قد مر رد المؤلف عليهم.
- (٣) أي: فرقا أو خلافا.

فصل

في ذكر البديع من الكلام

إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع؟

قيل: ذكر أهل الصنعة، ومن صنّف في هذا المعنى، من صنعة البديع الفاظاً نحن نذكرها، ثم نبين ما سألو عنه، ليكون الكلام وارداً على أمر مبينٍ مقررٍ وبابٍ مصوّرٍ.

● ١ - الاستعارة:

ذكروا أن من البديع في القرآن قوله عزّ ذكره: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَوَايَةَ لَهُمُ الْيَلِّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿أَوِ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(٥)، وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾^(٦).

وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة، كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(٧)، وفي الألفاظ الفصيحة، كقوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^(٨)، وفي الألفاظ الإلهية، كقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَمَا

(١) سورة الإسراء. بعض الآية: ٢٤.

(٢) سورة الزخرف. بعض آية: ٤.

(٣) سورة مريم. بعض آية: ٤.

(٤) سورة يس. الآية: ٣٤.

(٥) سورة النور. بعض آية: ٣٥.

(٦) سورة البقرة. بعض آية: ١٧٩.

(٧) سورة يوسف الطيّب. بعض آية: ٨٠.

(٨) سورة النمل. بعض آية: ٩١.

(٩) سورة الحج. بعض آية: ٥٥.

بِكُمْ مِنْ نِعْمَةِ فَمَنْ اللَّهُ ﴿١﴾، وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٢﴾. ويزكرون من البديع من قول النبي ﷺ: «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيفة طار إليها» ﴿٣﴾، وقوله: «ربنا تقبل توبتي، واغسل حوبتي» ﴿٤﴾، وقوله: «غلب عليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر» ﴿٥﴾، وكقوله: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» ﴿٦﴾، وكقوله: «وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصاد ألسنتهم» ﴿٧﴾، وكقوله: «أن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم» ﴿٨﴾. وكقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه، وقوله لخالد بن الوليد: «أحرص على الموت توهب لك الحياة»، وقوله: «فر من الشرف يتبعك الشرف».

(١) سورة النحل. بعض آية: ٥٣.

(٢) سورة غافر. بعض آية: ١٦.

(٣) أخرجه مسلم - كتاب الإمامة..

والهيفة: صوت الصارخ، وصيحة المستغيث. والمراد: نداء الجهاد.

(٤) أخرجه أحمد، والرمذي: كتاب الدعوات، وابن ماجه: كتاب الدعاء. وأبو داود: كتاب الصلوات. والحوبة: الإثم والوزر والخطيئة.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي.

والحالقة: أي التي تستأصل الدين من صاحبه كما تستأصل موسى الشعر من الرأس.

(٦) متفق عليه.

والحديث مما جرى مجرى الحكم. يضرب مثلا لكثرة العدد مع ضعف المعدود وقلة غنائه وفائدته. كمن يكون لديه مائة بعير، لكنه لا يجد بينها ما يستطيع أن يحمل عليه رحله.

(٧) أخرجه الترمذي.. وحصائد الألسنة: ثمرات كلامهم من الآثام والأوزار.

(٨) متفق عليه.

والحبط: هو: المرض تخمة، بأن تأكل البهيمة من النبات الذي أنتجه الربيع حتى يتفخ بطنها من كثرة الأكل وتعجز عن الإخراج.. يضرب مثلا للتحذير من الإقبال على متع الحياة الدنيا والإكثار منها.

وكقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة: «أرغب راغبهم، واحلل عقدة الخوف عنهم»، وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ: «إنما قال ذلك والدين في قل»^(١)، فأما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ وما اختار»، وسأل علي رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحد ملوكهم عندهم فقال: لأزدشير^(٢) فضيلة السبق، غير أن أحمدهم أنوشروان^(٣)، قال: فأبي أخلاقه كان أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة. فقال رضي الله عنه: «هما توأمان ينتجها علو الهمة». وقال: «قيمة كل امرئ ما يحسن»، وقال: «العلم قفل ومفتاحه المسألة» وكتب خالد بن الوليد إلى مرزبانة^(٤) فارس: «أما بعد؛ فالحمد لله الذي فض خدمتكم^(٥)، وفرق كلمتكم» والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خدام. وقال الحجاج: «دلوني على رجل سمين الأمانة.. ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسي^(٦) على الخوارج أرادوه على الكلام، فقال: «لا خير في الرأي الفطير^(٧)»، وقال: «دعوا الرأي يغب^(٨)». وقال أعرابي في شكر نعمة: «ذاك عنوان نعمة الله ﷻ»، ووصف أعرابي قوماً فقال: «إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصافحوا بالسيوف قعد الحمام^(٩)»، وسئل أعرابي عن

(١) أي أتباعه قليلون.

(٢) أزدشير أحد ملوك بني ساسان مؤسس الدولة الساسانية في فارس.

(٣) أنوشروان. من أشهر ملوك فارس، اشتهر بالعدل والحكمة، ومن عمرها في الحكم طويلاً.

(٤) مرزبانة فارس: أي قوادها وأكابرها. وأجدها: مرزبان.

(٥) خدمتكم: أي حلقتكم. حيث كانوا يتحلقون في مجالسهم ويكون القائد على رأس

الحلقة. وفض خدمتهم: كناية عن انفضاض ملكهم.

(٦) وهب الراسي: من زعماء الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، قتل في موقعة النهروان.

(٧) الفطير: كل ما أعجل به قبل نضوجه. وخبز الفطير سمي كذلك؛ لأنه أنضج قبل أن

يختمر. والرأي الفطير: الرأي الذي أبداه صاحبه على عجل دون أن يتثبت من صوابه.

(٨) يغب: أي يتردد في نفسك وفي وهنك حتى ينضج.

(٩) الحمام: الموت. وقعوده كناية عن وقوعه بهم.

رجل فقال: «صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرت وجوه كانت بجائها^(١)»، وقال آخر: (مَنْ ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة)، وقيل لرؤية: كيف خلفت ما وراءك؟ فقال: «التراب يابس، والمال عابس». ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها، فمن ذلك قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(٢)
قوله: «قيد الأوابد» عندهم من البديع ومن الاستعارة، ويروونه من الألفاظ الشريفة، وعنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدياً لها، وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة إحضاره، واقتدى به الناس، واتبعه الشعراء فقيل: «قيد الناظر» و«قيد الألاحظ» و«قيد الكلام» و«قيد الحديث» و«قيد الرهان»، وقال الأسود بن يعفر^(٣):

بمقلص عتد جهيز شده قيد الأوابد والرهان جواد^(٤)
وقال أبو تمام^(٥):

- (١) العياب: جمع عيبة. خزانة توضع فيها الثياب وما أشبهه. وصفرت: أي خلت. شبه أماكن الود من قلبه بخزانة الثياب، وكنى عن خلو قلبه من الود بخلو الخزانة من الثياب. وماء الوجوه كناية عن البشر والطلاقة. وكونها اكفهرت أي عيبت وختت من البشاشة.
- (٢) اغتدى: أي أخرج مبكراً والطير ما تزال في أعشاشها. والمنجرد: الحصان قصير الشعر، والهيكل: عظيم الجسم. والأوابد: الحمر الوحشية وما ماثلها مما يصاد. يقول أنه يخرج للصيد مبكراً قبل خروج الطير من أوكارها، على حصان ضخم الجثة يدرك الصيد كأن الصيد الذي يطارده مقيد لسرعة حصانه الشديدة.
- (٣) الأسود بن يعفر بن عبد الأسود جندل بن نهشل بن دارم. من فحول شعراء الجاهلية.
- (٤) مقلص: ضامر البطن يخيل إلى الناظر إليه أن قوامه أطول من المعتاد لشدة ضمور بطنه وهي صفة جيدة في الخليل. عتد: قوي الجسم سريع العدو.
- (٥) أبو تمام: حبيب بن أوس من قيس من بني طيء، ولد بقرية من قرى دمشق في خلافة الرشيد. وكان من المجيدين، ويمتاز بسرعة البديهة وجودة التخلص.

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب^(١)
وقال آخر:

أحاطه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه^(٢)
وقال آخر:

قيد الحسن عليه الحدقا^(٣)

وذكر الأصمعي^(٤) وأبو عبيدة^(٥) وحماد^(٦)، وقبلهم أبو عمرو^(٧) أنه^(٨)

- (١) قيد الأوابد: قيد النواظر إذا وقعت عليه العيون التزمته لحسنه كأنها قيدت عنده أو كأنه قيد لها يمنعا من التحول عنه. يقول الشاعر: أن المرأة لها منظر من شدة جماله يقيد العيون فلا تفارق. وجمالها يروح ويحيىء والحب يمشي في ركابه أينما راح وجاء. وفي خفارته: أي حراسته.
- (٢) أحاطه: نظراته السريعة. يقول الشاعر: إن نظراته تجذب عيون الناس إليه فتلزمه ولا تنتقل عنه لجماله وتأثير نظراته.
- (٣) الحدق: جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين. والمراد به العيون. يقول: إن حسنه جعل العيون لا تفارقه كأنها مقيدة عنده.
- (٤) الأصمعي هو: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمغ. أبو سعيد الأصمعي. من أعلام الأئمة في اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر. توفي سنة ست عشرة - وقيل خمس عشرة - ومائتين.
- (٥) أبو عبيدة هو: معمر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بني تيم رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع ومائتين. كان أعلم الناس بالأنساب.
- (٦) حماد هو: حماد بن سلمة بن دينار. شيخ أهل البصرة في العربية. كان إماما في الحديث ثقة، روى له مسلم والأربعة. كان زاهدا حجة شديدا على المبتدعة. توفي سنة سبع وستين ومائة.
- (٧) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني. أحد القراء السبعة المشهورين. إمام البصرة في القراءات والنحو واللغة. توفي - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سنة أربع وخمسين ومائة.
- (٨) أي: امرأ القيس.

أحسن في هذه اللفظة^(١)، وأنه اتبع فيها فلم يلحق. وذكره في باب الاستعارة البليغة^(٢).

وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر، وجعلوها من باب الإرداف^(٣)، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف وقالوا: ومثله قوله^(٤):

نؤوم الضحى لم تتطق عن تفضل^(٥)

وإنما أراد ترفهًا بقوله: «نؤوم الضحى».

ومن هذا الباب قول الشاعر^(٦):

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم^(٧)

وإنما أراد أن يصف طول جيدها، فأتى بردفه.

ومن ذلك قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله^(٨)

(١) المراد جملة: قيد الأوابد. وأنها من إبداعه، وأن الذين قلده فيها لم يأتوا بمثلها في

الحسن. وإنما لم يأتوا بمثلها لأنهم وقفوا بها عند التقليد، ولم يجددوا أو يضيفوا إليها.

(٢) أي ذكروا قوله: قيد الأوابد.

(٣) الإرداف من الكناية. وهو أن يعدل المتكلم عما يتكلم عنه ويأتي بما يرادفه وبما هو لازم

له. مثل وصفهم الرجل بأنه طويل نجاد السيف. كناية عن طوله هو.

(٤) أي امرأ القيس. فالضمير الأول ل: قيد الأوابد، والثاني لامرئ القيس.

(٥) كنى عن ترفها وراثتها وكثرة الخدم عندها، بأنها تنام حتى الضحى. ولا تبكر كما يبكر

من يخدمن أنفسهم. ولم تلبس ملابس العاملات. وإنما تلبس ملابس الثريات المترفات

اللواتي لا يعملن.

(٦) القائل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الغزلي.

(٧) مهوى القرط: هو الكتف. وكونه بعيدا عن القرط دليل على طول الجيد وهو العنق.

(٨) السدول: الأستار. ومنه: أسدل علي الستر: أي أرخاه. يشبه ظلام الليل من حوله كأنه

أستار أسدلت عليه فحجبت الضوء عنه.

وذلك من الاستعارة المليحة. ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن: ﴿وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(١)، ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٢).

* * *

● ٢ - التشبيه:

ومما يعدونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرئ القيس:

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحَلْنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ^(٣)
وقوله:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرهَا الْعَنَابِ وَالْحَشْفِ الْبَالِي^(٤)
واستبدعوا تشبيه شيتين بشيئين على حسن تقسيم، ويزعمون أن أحسن ما وُجد في هذا للمحدثين قول بشار^(٥):

كَأَنَّ مِثَارَ النَّعَمِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِ^(٦)

(١) سورة مريم. بعض آية: ٤.

(٢) سورة الإسراء. بعض آية: ٢٤.

(٣) الجزع: نوع من الخرز اليماني فيه سواد وبياض. يقول: إنه ضرب خيمته ليلا. واجتمعت الوحوش حول الخيمة تلمع عيونها في الظلام مثل لمعان ذلك الخرز اليماني.

(٤) العناب: نوع من التمر أحمر. الحشف: التمر الجاف الرديء. ومنه قولهم: أحشفا وسوء كيلة. يشبه الشاعر فرسه بعقاب يأكل الطير ويرمي بقلوبها حول وكره، حتى صارت حول وكره كثيرة منها الرطب ومنها اليابس.

(٥) بشار بن برد شاعر أعمى مطبوع، كان مولى من الموالي وكان يرمى بالزندقة. وهو القائل:

يَا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْهَمِي عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعْتَشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

(٦) النعم: الغبار يثار فيملاً الفضاء. يشبه المعركة والغبار الذي تثيره أرجل الخيل وقد ملأ الفضاء حولهم حتى أظلم الجو من شدة الغبار، والسيوف تلمع وتبرق وهي ترتفع وتهوي في أيدي الفرسان، يشبه هذا بليل تهاوى كواكب.

- وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم في التشبيه، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل.
- وكذلك عدّوا من البديع قول امرؤ القيس في أذني الفرس:
- وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب^(١)
واتبعه طرفة فقال فيه:
- وسامعتان يعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد^(٢)
ومثله قول امرؤ القيس في وصف الفرس:
- وعينان كالماويتين ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب^(٣)
وقال طرفة في وصف عيني ناقته:
- وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد^(٤)
ومن البديع في التشبيه قول امرؤ القيس:
- له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تنفل^(٥)
وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها.

- (١) وسامعتان: أي أذنان تنصنتان. والعتق: العراقة والأصالة. والربرب: قطع بقر الوحش. يشبه أذني فرسه وقد ارتفعت تنصنت بأذني بقرة مذعورة من بقر الوحش.
- (٢) الحومل: اسم مكان. يشبه أذني فرسه المتصنتان بأذني شاة وحيدة خائفة بمكان يكثر فيه الوحوش اسمه حومل.
- (٣) الماوية: المرأة الصافية كالما الصافي. والمحجر مكان العين من الوجه. والصفيح المنصب: الحجارة المثبتة.
- (٤) استكنتا: اختبأتا. والحجاجان: منبت شعر الحاجين. والقلت: النقرة في أرض أو بدن. وقلت العين: نقرتها في الوجه.
- (٥) الأيطلان: الخاصرتان. والخاصرة: هي ما بين أعلى الورك وأسفل الأضلاع. والإرخاء: نوع من الجري السريع السهل. والتقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. والتنفل: ولد الثعلب.

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله - تَعَالَى - : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ (١)، وقوله - تَعَالَى - : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٢)، ومواقع نذكرها بعد هذا.

* * *

ومن البديع في الاستعارة قول امرئ القيس (٣):

وليل كموج البحر أرخى سُدُودَهُ عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تَمَطَّى بصلبه وأردفَ أعجازًا وناءً بكلكل (٤)
وهذه كلها استعارات أتى بها في ذكر طول الليل. ومن ذلك قول النابغة:
وصدر أراح الليل عازبَ همّه تضاعف فيه الحزن من كل جانب (٥)
فاستعاره من إراحة الراعي إبله إلى موضعها التي تأوي إليها بالليل. وأخذ منه ابن الدمينه فقال:

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم والليل جامع

(١) سورة الرحمن - جَلَّ وَعَلَا .. الآية: ٢٤.

(٢) سورة الصافات. الآية: ٤٩.

(٣) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو ابن معاوية بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة. في النبطية الأولى من فحول شعراء الجاهلية. صاحب المعلقة المشهورة التي تبدأ بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
وسياتي شرح ونقد لقصيدته.

(٤) الصلب: الظهر. والإعجاز: مؤخرة الجسم. الكلكل: الصدر. يشبه الليل في هبوطه عليه بالبعير حال نزوله على الأرض.

(٥) أراح: رد وأعاد. كقوله ﷺ في الطير: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»؛ أي: تعود إلى أعشاشها. وعازب همه: تعيد همه، من عزب إذا بعد وفارق. يقول: وصدر جاء الليل فأعاد إليه الهم الذي كان قد فارقه طوال النهار.

ومن ذلك قول زهير^(١):

صحا القلب عن ليلي وأقصر باطله
وَعَزَيَ أفراسُ الصبا ورواحله^(٢)
من ذلك قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سموٌ حباب الماء حالاً على حال^(٣)
وأخذه أبو تمام فقال:

سموٌ عباب الماء جاشت غواربه^(٤)

وإنما أراد امرؤ القيس إخفاء شخصه.

ومن ذلك قوله:

كأنني وأصحابي على قرن أغفرا^(٥)

يريد لأنهم غير مطمئنين.

ومن ذلك ما كتب إلي الحسن بن عبد الله بن سعيد، قال: أخبرني أبي، قال:

أخبرنا عسل بن ذكوان، أخبرنا أبو عثمان المازني قال: سمعت الأصمعي^(٦)
يقول: أجمع أصحابنا أنه لم يُقَلَّ أحسنُ ولا أجمعُ من قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وإن خلت أن المتأى عنك واسع^(٧)

(١) زهير هو: زهير بن أبي سلمى - واسم أبي سلمى ربيعة - بن رباح بن قرط بن الحارث بن

مازن بن ثعلبة بن ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة. من الطبقة الأولى للفحول.

(٢) صحا القلب: أفاق. أقصر باطله: ذهبت هواجس الحب التي كانت تشغله. ويروى عن

(سلمى) بدلا من (ليلى)

(٣) يشبه تسلله في الخفاء بفقايع الماء إذا صعدت من أسفل الإناء إلى سطحه.

(٤) غوارب الماء: أمواجه، أو أعالي أمواجه، جاشت: ثارت.

(٥) الأغفر: البقرة الوحشية. يشبه اضطرابه وقلقه بالراكب على قرن بقرة الوحش.

(٦) الأصمعي هو: عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي أصمع. أديب لغوي راوية

ناقدت: ٢١٦.

(٧) يشبه سلطان المدوح بالليل، من حيث أنه يصل إلى كل مكان، ومن حيث أنه لا يأتي الطارق

من جانب واحد، بل يهبط عليه ويشمله من جميع الجوانب فلا يجد له مفرا ولا مهربا.

قال الحسن بن عبد الله: وأخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا عون بن محمد الكندي، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سمعت الأصمعي يقول: سمعت أبا عمرو^(١) يقول: كان زهير^(٢) يمدح الشُّوق^(٣)، ولو ضرب على أسفل قدميه مئتا دقل^(٤) على أن يقول كقول النابغة^(٥):

فإنك كالليل الذي هو مُذركي وإن خلتُ أن المتأى عنك واسع
لما قال: يريد أن سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان. واتبعه الفرزدق^(٦)
فقال:

ولو حملتي الريح ثم طلبتي لكنت كشيء أدركتي مقادره
فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق إليه النابغة، ثم أخذه الأخطل^(٧)

- (١) هو أبو عمرو بن العلاء.. أحد القراء السبعة المشهورين. ت ١٥٤. تقدم التعريف به.
- (٢) زهير هو: زهير بن أبي سلمى بن ربيعة المزني. الشاعر الجاهلي - سبق التعريف به.
- (٣) السوق: بضم ففتح جمع: سوقة. وهم العامة والفاغة.
- (٤) الدقل: التمر الرديء. وصاري السفينة يسمى: دقلا. والمراد هنا أردأ أنواع التمر.
- (٥) النابغة: هو النابغة الذبياني، أو: نابغة بني ذبيان. واسمه: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، ويكنى: أبا أمامة. من الطبقة الأولى لفحول الشعراء في الجاهلية.
- (٦) الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية... بن مساجع بن دارم. وكان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية. اشترى ثلاثين موعودة إنقاذا لهن، حتى جاء الإسلام فأتى صعصعة إلى النبي ﷺ وأسلم. وإنما لقب بالفرزدق لغلظه وقصره، وكنيته أبو فراس. كان شاعراً مجيداً، يروى أنه في مرض موته قيل له: اذكر الله، فصمت طويلاً ثم قال: إلى من تفزعون إذا حشوتكم بأيديكم علي من التراب فقالت جارية له: نزع إلى الله. فقال: أخرجوا هذه من الوصية. وكان قد أوصى لها بمئة درهم..
- (٧) الأخطل: واسمه: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة من بني تغلب. خطله قول كعب بن جعيل له: إنك لأخطل يا غلام: أي سفها، وكان هجاء هجاء بذيئا. يوضع في الطبقة الأولى من فحول شعراء الإسلام.

فقال:

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر
وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ: «نصرت بالرعب، وجعل رزقي تحت ظل
رمحي، وليدخلن هذا الدين علي ما دخل عليه الليل».
وأخذه علي بن جبلة^(١) فقال:
وما لامرئ حاولته عنك مهرب ولو كان في جوف السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع^(٢)
ومثله قول سلم الخاسر^(٣):
فأنت كالدهر مبعوثاً حباته والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الرياح أصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلب
فأخذه البحترى^(٤) فقال:
ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجهم عن خوف بأسك مهرب
ومن بديع الاستعارة قول زهير:

(١) علي بن جبلة. كان شاعراً ضريراً، وكان يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى، فيصل في
إغراقه إلى حد الكفر، وهو القائل فيه:

أنت الذي نزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

(٢) يقول: إن الذي تطلبه لا يمكن أن يفر منك وسوف تمسك به ولو كان نجماً طالعا في
السماء. ثم يقول: بلى. أي يمكن أن يهرب منك إذا كان بمكان لا يطلع عليه نهار ولا
يسدل عليه ظلام. يريد أنه غير موجود ذلك الذي تطلبه فلا تدركه.

(٣) سلم الخاسر هو: سلم بن عمرو الخاسر، مولى أبي بكر الصديق ﷺ لقب بالخاسر؛ لأنه
ورث من أبيه مصحفاً فباعه واشترى به طنبوراً. فقيل له: إنك لخاسر، فلعب بذلك.

(٤) البحترى: أبو عبادة البحترى وليد بن يحيى بن عبيد بن شمالان بن بحتري الطائي.

- فلما وردن الماء زرقاً جماهه
وقول الأعشى^(٢):
- وإن عتاق العيس سوف يزورك
ومنه أخذ نصيب^(٤) فقال:
- فعاجوا فأتوا بالذي أنت أهله
ومن ذلك قول تأبط شراً^(٦):
- فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا
ومن الاستعارة في القرآن كثير، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(٨) يريد
- وضعن عصي الحاضر المتخيم^(١)
- ثناء على أعجازهن معلق^(٣)
- ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب^(٥)
- به كدحه والموت خزبان ينظره^(٧)

- (١) الحمام من الماء: هو الكثير. وزرقته: صفاؤه. المتخيم: الذي يتني خيمته ليقم فيها. وإلقاء العصا: كناية عن الإقامة. فإن العصا إنما يعتمد عليها حال المشي والترحال. فإذا ألقاها صاحبها أقام واستقر.
- (٢) الأعشى هو: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة، ويكنى: أبا بصير. من الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية.
- (٣) بعير عتيق: أصيل. والعيس: الإبل الرواحل. أو ما كان لونه أبيض مشوباً بشقرة. والأعجاز: المؤخرة من كل شيء.
- (٤) نصيب: مولى عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص. من فحول الشعراء في الإسلام.
- (٥) عاجوا: مالوا إلى المكان فأقاموا به.. والحقائب: جمع حقيبة، ما تحفظ فيه الأشياء.
- (٦) تأبط شراً: هو ثابت بن غنم، وقيل ثابت بن جابر من قبيلة: فهم. كان شاعراً بائساً يغزو على رجله وحده. وكان مولعاً بوصف الغيلان وحكاياتها في شعره.
- (٧) لم يكدح: لم يחדشه أو يؤثر فيه. الصفا: جمع صفاة، وهي حجارة ملساء شديدة. يقول: إنه سقط فلامس المكان السهل من الأرض، ولم تؤثر فيه سقطته، ولم تجرحه الحجارة الصلبة، ونجا من الموت الذي كان يترصد به، وكان الموت ينظر إليه ذليلاً كاسفاً إذ لم يستطع أن يناله.
- (٨) سورة الزخرف. بعض آية: ٤٤.

ما يكون الذكر عنه شرفاً. وقوله: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾^(١)،
 قيل دين الله أراد، وقوله: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ﴾^(٢).

* * *

● ٣ - الغلو:

ومن البديع عندهم الغلو^(٣): كقول النمر بن تولب^(٤):

أبقى الحوادث والأيام من غمر إسناد سيف قديم أثره بادي
 تظل تحفر عنه أن ضربت به بعد الذراعين والقيدن والهادي^(٥)
 وكقول النابغة^(٦):
 تقدُّ السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصَّفاح نار الحُباب^(٧)

(١) سورة البقرة: بعض آية: ١٣٨.

(٢) سورة البقرة: بعض الآية: ١٦.

(٣) الغلو صورة من صور المبالغة. وهو أن يبالغ في وصف الشيء إلى حد يخرج عن الواقع والإمكان.

(٤) النمر بن تولب، من قبيلة: عُكَل. كان شاعراً جواداً حسن الشعر عفيفه جاهلياً لقي الرسول ﷺ فأسلم، وألقى بين يدي الرسول ﷺ شعراً. عاش حتى خرف وأهتر. من ظريف شعره قوله:

أهيم بدعد ما حييت فلن مت أو من بدعد من يهيم بها بعدي

(٥) أثره: أثره وسكنت الثاء لضرورة الشعر.. يقول: إن ضربة سيفه ما تزال هي الباقية لم تطمسها الأيام والحوادث. فإن ضربه سيفه قدت الرجل وقيدته وراحلته وشقت الأرض تحته، وما يزال أثرها في الأرض باقياً.

(٦) النابغة: سبق التعريف به.

(٧) السلوقي: نوع من دروع الحرب منسوب إلى مكان صنعه بالشام، الصفاح: الحجارة العراض. الحباب: نوع من الذباب يضيء بالليل. يقول: إن ضربة سيفه لقوتها تقطع درعه المضاعف، وتنفذ منه إلى الحجارة فتصدر شرراً يضيء كما تضيء الحباب في الظلام.

وكقول عنترة^(١):

فازورٌ من وَقَع القَنَا بلبانه
وكقول أبي تمام^(٢):

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه
وكقول البحتري^(٣):

ولو أن مشتاقًا تكلف فوق ما
في وسعه لمشى إليك المنبر^(٤)

ومن هذا الجنس في القرآن: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^(٥)، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفَهِيطًا وَزَفِيرًا﴾^(٦)،

(١) عنترة بن عمرو بن شداد. من بني عيس بن بغيض. غلب عليه اسم جده شداد، وإنما هو ابن عمرو. كان عبدا شجاعا جريئا شاعرا. ادعاه أبوه بعد ما رأى من شجاعته. وهو من أشعر العرب في الفخر.

(٢) ازور: مال وانحرف يتفادى الرماح. القنا: الرماح. لبانه: صدره. العبرة: تردد صوت البكاء في الصدر. الحمحمة: صوت الخيل دون الصهيل..

(٣) أبو تمام: سبق التعريف به.

(٤) مبالغة مذبذومة عمقوتة. وهي وإن حسنت بلاغيا، فأنها ساءت دينيا وشرعا؛ لأن الركن مما شرع الرسول ﷺ لثمه وتقيله. ولقد لثمه رسول ﷺ فأبى من الناس أفضل من رسول الله ﷺ حتى يخر الركن ليقبل موطن قدمه؟ ولو قال يقبله لكان أقل سوءا من قوله يقبل موطن قدمه، وما كان لمكان قبلة سيد الخلق، يخر ليقبل موطن أقدام إنسان مهما كان؟. ما كان أحرى بالمؤلف أن ينزه كتابا كهذا من مثل هذا البيت. لكن يبدو أن تأثير الشعر كان في المؤلف. رحمه الله وعفا عنا وعنه. أبلغ.

(٥) البحتري سبق التعريف به.

(٦) مبالغة ذميمة. لكنها أقل سوءا من مبالغة أبي تمام السابقة؛ لأن المناير عديدة، أما الركن فواحد متعين.

(٧) سورة ق. الآية: ٣٠.

(٨) سورة الفرقان. الآية: ١٢.

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْقَيْظِ﴾^(١).

* * *

● ٤ - المماثلة:

ومما يعدونه من البديع المماثلة^(٢). وهو ضرب من الاستعارة، وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظًا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه، ونظيره من المنثور، أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان ابن محمد يتلكأ عن بيعته، فكتب إليه: «أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً

(١) سورة الملك. بعض الآية: ٨.

والآيات الكريمت الثلاث اللواتي ذكرهن المؤلف - عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنهُ - على أن ما ورد فيها هو من الغلو الذي يخرج عن حد الواقع.. قد أخطأ المؤلف في إيرادها تحت هذا الموضوع، ووصف ما فيها بأنه غلو أو حتى مبالغة. فإن الله - تَعَالَى - لا يذكر شيئاً على هيئة الخبر إلا وهو واقع لا محالة. ونعوذ بالله أن نكون ممن يكذب بشيء أخبر الله - تَعَالَى - بوقوعه. وأي شيء غريب مستحيل فيما أخبر الله - تَعَالَى - في هذه الآيات الثلاث. أهو خطاب الله - تَعَالَى - لجهنم وجوابها لربها - سُبحَانَهُ -، أم أن تميزها من الغيظ عند قرب الكافرين منها ورؤيتها إياهم؟ وهل يعجز الله - تَعَالَى - عن أن يجعل جهنم تنطق، وهو القائل - سُبحَانَهُ -: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]. أليس هو الذي ينطق الجوارح تشهد على أصحابها يوم الحساب؟ وفي دنيانا ألم ينطق الحصى مسبحاً في يد النبي ﷺ، ألم يشقق القمر؟؟ ألم ينطق الضب شهادة لرسوله ﷺ؟ إن هذا الإنجاء من المؤلف - يجعله يمشي في ركاب الفلاسفة الذين جعلوا للقرآن ظاهراً وباطناً، وضربوا بآيات القرآن عرض أهوائهم وأغراضهم. وعجيب أن يكون ذلك في كتاب وضع ليكون بياناً للقرآن ودفاعاً عنه.

(٢) المماثلة ضرب من السجع تماثل فيه ألفاظ الكلام دون التقفية. مثل قوله - تَعَالَى -: ﴿رَأَى لَنَحْنُ الْعَاقُونَ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنْتَهُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥ - ١٦٦] هذا ما اصطلاح عليه الجمهور في تعريف المماثلة. لكن المؤلف يريد هنا بالمماثلة: (الاستعارة التمثيلية) كما اتضح ذلك من تعريفه إياها ومن الأمثلة التي ضربها.

وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيتها شئت^(١)، وكنحو ما كتب به الحجاج إلى المهلب: «فإن أنت فعلت ذلك وإلا أشرعت إليك الرمح». فأجاب المهلب: «فإن أشرع الأمير الرمح قلبت إليه ظهر المحن»، وكقول زهير:

ومن يقص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي رُكبت كل لهزم^(٢)
وكقول امرئ القيس:

وما ذرّفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^(٣)
وكقول عمرو بن معدى كرب:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت. ولكن الرماح أجزّت^(٤)
وكقول القائل:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا^(٥)

(١) قيل في توضيح معنى الجملة التي ذهبت مثلا في التردد. إن المراد: تقدم رجلا وتؤخرها تارة أخرى. فحذف الضمير العائد وما يتعمق به. والحذف هنا هو مناط الجمال في العبارة.

(٢) الزجاج: جمع زج. وهو قطعة من الحديد توضع في الرمح من أسفل. والسن اللهزم: السن الطويل. وكان إذا اختلف اثنان وجه كل منهما إلى صاحبه زج رمحه. أي وجه إليه مؤخرة الرمح دلالة على الاستعداد للقتال. فإذا صاحه صاحبه، وإلا وجه كل منهما إلى صاحبه سن الرمح فاقتتلا.

(٣) ذرّفت عينك: أدمعتا. بسهميك: يقصد عينيها. أعشار: قطع. مقتل: المطيع المستسلم. يريد: ما بكيت إلا لتجعلني من دموعك سهاما تصيب قلبي الغليل.

(٤) أجزّ الفصيل: شق لسانه ليمنعه من الرضاعة حين يريد فظامه. وأيضا: وضع في فمه عود مستعرض ليمنعه من الرضاعة. وأجزّ الرمح: ضرب به وتركه في جسد القتيل فلم ينزعه. يقول: لو أن قومه قاتلوا بشجاعة لقال فيهم شعرا، لكن جنبهم وفرارهم كان كالجرار التي منعتهم من الكلام.

(٥) صحراء الغمير: مكان. يقول إنهم بفعلتهم الخزية بصحراء الغمير جعلته يستحي أن يقول الشعر.

وكقول الآخر:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لساني^(١)
ومن هذا الباب في القرآن (كثير)؛ كقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ﴾^(٢)، وكقوله: ﴿وَتِيَابِكَ فَطَفَّرَ﴾^(٣) قال الأصمعي: «أراد البدن»، قال:
«وتقول العرب: «فدى لك ثوباي» يريد نفسه، وأنشد:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

* * *

● ٥ - المطابقة:

ويرون من البديع أيضًا ما يسمونه المطابقة^(٤)، وأكثرهم على أن معناها أن
يذكر الشيء وضده: كالليل والنهار، والسواد والبياض، وإليه ذهب الخليل بن
أحمد^(٥) والأصمعي^(٦)، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز^(٧)، وذكر ابن المعتز من
نظائره من المنشور ما قاله بعضهم: (أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فادخلتنا في

(١) النسع والنسعة: سير يجدل عريضا تشد به الرحال.

(٢) سورة البقرة. الآية: ١٧٥.

(٣) سورة المدثر. الآية: ٤.

(٤) هي الجمع بين معنيين متقابلين مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله -
شبحائه -: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

(٥) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. المكنى أبا عبد الرحمن. أول من
استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها. وكتب كتاب (العين) الشهير. توفي سنة
خمسة وسبعين ومئة.

(٦) الأصمعي: سبق التعريف به.

(٧) عبد الله بن المعتز: أحد الخلفاء العباسيين، كان يتعاطى الشعر عن ذوق. توفي سنة ست
وتسعين ومئتين مقتولا بعد أن تولى الخلافة يوما و ليلة.

ضيق الضمان).

ونظيره من القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(١)، وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(٢)، وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾^(٣)، ومثله كثير جدًا.

وكقول النبي ﷺ للأَنْصَار: «إنكم تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع»^(٤). وقال آخرون: بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، واليه ذهب قدامة ابن جعفر الكاتب^(٥)، فمن ذلك قول الأفوه الأودي^(٦):

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس^(٧)
عني بالهوجل الأول الأرض وبالثاني الناقة. ومثله قول زياد الأعجم^(٨):
ونبتهم يستظرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام^(٩)

(١) سورة البقرة. بعض آية: ١٧٩.

(٢) سورة يونس. بعض آية: ٣١، وسورة الروم. بعض آية: ١٩.

(٣) سورة الحج. بعض آية: ٦١. وسورة لقمان. بعض آية: ٢٩. وسورة فاطر. بعض آية: ١٣. وسورة الحديد. بعض آية: ١٣.

(٤) كنز العمال. من حديث طويل عن أنس ؓ ١٤ - ٦٦.

(٥) قدامة بن جعفر الكاتب: أديب لغوي ناقد، مؤلف كتاب: نقد الشعر. توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

(٦) الأفوه الأودي: هو صلاءة بن عمرو، من مُذَخَج، ويكنى أبا ربيعة. كان جيد الشعر في الحكم. وهو القائل:

لا يصلح الخلق فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

(٧) الهوجل: من صفات الأرض. وصفات الناقة. والعنتريس: الناقة القوية.

(٨) زيادة الأعجم: هو زياد بن سليم العبدي، كان رجلاً هجاء قليل المديح للملوك والوفادة عليهم. صنفه صاحب طبقات الفحول في الطبقة السابعة من فحول الإسلام.

(٩) الكاهل: ما بين الكتفين في الإنسان. وأعلى الظهر مما يلي العنق في الخيول. وهو أيضاً اسم قبيلة. أراد بكاهل الأولى القبيلة. وبالثانية مكانه من البعير.

ومثله قول أبي داود:

عهدت لها منزلاً دائراً وآلا على الماء يحملن آلا
فالآل الأول: أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقي، والآل الثاني: السراب،
وليس عنده^(١) قول من قال: «المطابقة إنما تكون باجتماع الشيء وضده»
بشيء.

ومن المعنى الأول قول الشاعر:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم ولن تكرم النفس التي لا تهينها
ومثله قول امرئ القيس:

وتردى على صم صلاب ملاطس شديداً عقد لينات متان^(٢)
وكقول النابغة^(٣):

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازب^(٤)
وكقول زهير^(٥) وقد جمع فيه طباقين:

بعزيمة مأمور مطيع، وأمر مطاع، فلا يُلْفَى لحزمهم مثل
وكقول الفرزدق^(٦):

(١) أي عند قدامة بن جعفر الكاتب.

(٢) صم صلاب: حجارة مصمتة شديدة. ملاطس: جمع ملطس. والملطس والملطاس حجر ضخم كانوا يدقون به النوى. والمراد أنها حجارة قوية. شديداً عقد: محكمة التكوين. من: عقدت الحبل، أو عقدت السائل: غلظته بالتبريد أو التسخين، متان: جمع متن. والمتن صلب الشيء.

(٣) النابغة: سبق التعريف به.

(٤) ضربة لازب: أي أمر ضروري الوقوع. وهي هنا تامل: (لازم) بالميم. وفي التنزيل العظيم يقول - تعالى -: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]؛ أي: طين متماسك.

(٥) زهير: سبق التعريف به.

(٦) الفرزدق: سبق التعريف به.

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبه نهار
ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير^(١):

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماليا^(٢)
وكقول رجل من بلعبر^(٣):

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً
وروي عن الحسن^(٤) بن علي - رضي الله عنهما - أنه تمثل بقول القائل:
فلا الجود يُفني المالَ والجُدُّ مقلُّ وكقول الآخر:

فسرِّي كإعلاني وتلك سجيَّتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاريا
وكقول قيس بن الخطيم^(٥):

(١) جرير شاعر أموي مشهور توفي عام ١١١هـ، واسمه: جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر ابن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع. كان شاعراً مجيداً، وكان هو والفرزدق فرسي رهان، إذا ذكرا في مجلس قل أن يتفق المجلس على واحد منهما.

(٢) ويمكن أن يكون في البيت أربع تطبيقات. كل لفظة من الأربعة في الشطر الأول يقابلها لفظة من الأربعة في الشطر الثاني. فباسط: يقابلها: قابض، وخير: يقابلها: شر، وفيكم: يقابلها: عنكم، ويمينه: يقابلها: بشماليا.

(٣) بلعبر: أي من قبيلة اسمها: بني العنبر، فهو تركيب مزجي. واسم الشاعر: قريظ بن أنيف، وهو من شعراء الحماسة.

(٤) الحسن بن علي بن أبي طالب، هو السبط الأكبر من السبطين سيدي شباب أهل الجنة. رضي الله عن الجميع.. ولد ﷺ بعد الهجرة الشريفة بستة أشهر، وقيل: بستين وقيل: بثلاث. وهو الأشهر. ولي الخلافة بعد استشهاد أبيه ثم تنازل عنها لمعاوية - رضي الله عن الجميع - حقناً لدماء المسلمين.. توفي ﷺ في شهر صفر من سنة خمسين للهجرة. وقيل غير ذلك.

(٥) قيس بن الخطيم: يذكره بعضهم في الصحابة. لكن الصحيح أنه لم يعلم إسلامه. قدم مكة على رسول الله ﷺ فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وتلى عليه شيئاً من القرآن المجيد. =

إذا أنت لم تنفع فضر، فإنما
 وكقول السموأل^(١):
 وما ضرنا أنا قليل وجارنا
 عزيز، وجار الأكثرين ذليل
 فهذا باب يروونه من البديع.

* * *

٦ - التجنيس:

وباب آخر وهو التجنيس، ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها وإليه ذهب الخليل^(٢).
 ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق، كقوله
 ﴿فَأَقْهَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أَلْفَيْمِ﴾^(٣)، وكقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾^(٤)،

= فقال قيس: إني لأسمع كلاما عجيبا فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود إليك
 الحول القادم. فمات قبل الحول. وكانت وفاته عام ٥٧هـ.

(١) السموأل بن عاديا. شاعر جاهلي مجيد. يضرب به المثل في الوفاء لقصته المعروفة مع
 امرئ القيس الذي استودعه أمواله ودروعه. وجاء الحارث بن ظالم المري فأسر ابن
 السموأل، وخيره بين أن يسلم أموال امرئ القيس ودروعه وأن يقتل ابنه. فاختر السموأل
 الأمانة وأسلم ابنه للقتل، فضرب به المثل في الوفاء. وقد كان السموأل يهوديا واسمه
 يرجع إلى أصل عبراني هو: شمويل أو صمويل وحرفته العرب إلى السموأل. ومن طبع
 اليهود الغدر والخيانة. لكن السموأل غلبت عليه النخوة العربية فخالف أهل دينه ووفى
 بعروته. والبيت المذكور من عيون الأدب في الفخر. وقبل البيت المذكور يقول السموأل:

تعميرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
 وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول

(٢) الخليل بن أحمد: سبق تعريفه. (٣) سورة الروم. بعض آية: ٤٣.

(٤) سورة النمل. بعض آية: ٤٤.

وكقوله: ﴿يَتَأَسَفْنَ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾^(١)، وكقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾^(٢)، وكقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾^(٣)، وكقول النبي ﷺ: «أسلم، سالمها الله، وغفار، غفر الله لها، وعصية، عصت الله ورسوله»^(٤)، وكقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٥) وقوله: «لا يكون ذي الوجهين وجيها عند الله»^(٦)... وكتب بعض الكتاب: «العدر مع التعذر واجب، فرايك فيه». وقال معاوية^(٧) لابن عباس^(٨): «ما لكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم؟» فقال: «كما تصابون في بصائركم»^(٩)، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «هاجروا ولا تهجروا»، ومن ذلك قول قيس بن عاصم^(١٠):

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة كسته نجيعاً من دم الجوف أشكلاً^(١١)

(١) سورة يوسف الطيِّب: بعض آية: ٨٤.

(٢) سورة الأنعام. بعض آية: ٨٢.

(٣) سورة الأنعام. بعض آية: ٢٦.

(٤) أخرجه البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كتاب فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم، وأحمد، والدارمي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦) أخرجه البيهقي رحمه الله في الآداب عن أبي هريرة رحمه الله وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة.

(٧) معاوية بن أبي سفيان رحمه الله صحابي من أصحاب الرسول ﷺ وكتب من كتاب وحيه -

أول خلفاء بني أمية. توفي عام ٦٠ هـ.

(٨) عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ابن عم رسول الله ﷺ. حبر الأمة وفقهها. عمر

طويلاً وكف بصره في أخريات حياته.

(٩) الأبصار: جمع بصر. وهو ما يكون بالعين. والبصائر: جمع بصيرة. والمراد بها: ذكاء

العقل، وشفافية النفس، وقوة الإيمان، وإخلاص اليقين. غير معاوية ابن عباس بأفة العين.

فعيره ابن عباس يضعف الإيمان وأفة القلب والعقل.

(١٠) قيس بن عاصم بن سنان من تميم. صحابي جليل.

وفد قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال فيه الرسول: هذا سيد أهل الوبر.

(١١) حفزنا: دفعنا وطعنا. يقال: حفزه بالرمح: طعنه به. الحوفزان: اسم لمحارب. والنجيع: دم

الجوف. يقال: طعنه تمج النجيع. والأشكلى: الدم المختلط بغيره.

وقال آخر:

أمل عليها بالبلى الملوان^(١)

وقال الآخر:

وذاكم أن ذلّ الجار حالكم وأن أنوفكم لا تعرف الأنفا^(٢)
وكتب إلى بعض مشايخنا قال: أنشدنا الأخفش^(٣) عن المبرد^(٤) عن
التوزي^(٥):

وقالوا: حمامات فحمّ لقاؤها وطلح فزيرت والمطي طلوح
عقاب بأعقاب من التأي بعدما جرت نية تنسي المحب طروح
وقال صحابي: هدهد فوق بانه هدَى وبيان بالنجاح يلوح
وقالوا: دم، دامت موائق عهده ودام لنا حسن الصفاء صريح^(٦)

(١) أمل: أكثر عليه حتى جعله يمل. والملوان: الليل والنهار، أو طرفا النهار. يقال: لا أفعل هذا ما اختلف الملوان، أي لا افعله أبدا.

(٢) ذل الجار: كناية عن ذلهم. كانت العرب تكني عن ذل القبيلة بذل جارها. والمراد بالأنف الأولى: حاسة الشم. والأنفا: العزة والإباء والغضب للكرامة.

(٣) الأخفش: هو عبد الحميد بن عبد المجيد أبو الخطاب الأخفش الأكبر، أحد الأخافشة الثلاثة المشهورين. لقي الأعراب وأخذ عنهم، وتلقى عن الأئمة الكبار للعربية كسيبوية ويونس والكسائي، كان دئيئا ورعا، وأول من فسر القصيدة بيتا بيتا. وكانوا قبل ذلك يفسرونها جملة.

(٤) المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري المعروف بالمبرد. نزل بغداد، وكان إماما في النحو واللغة، مات سنة خمس وثمانين ومئتين ودفن بمقابر باب الكوفة.

(٥) التوزي هو: عبد الله بن محمد بن هارون التوزي. من أكابر أئمة اللغة. صنف كتاب: الخليل، الأمثال، الأضداد. مات سنة ثلاث وثلاثين ومئتين.

(٦) حمّ: قرب ودنا، الطلح: شجر عظيم من أشجار الصحراء ترعاه الإبل. والمطي طلوح: أي مجهدة هزيلة من شدة السير أو جائعة. يقال: طلح البعير إذا خلا جوفه من الطعام. التأي: البعد. والنية: التحول من مكان إلى آخر. طروح: كثيرة. البانة: شجرة البآن. وهو =

وقال آخر:

أقبلن من مصرَ يبارين البرى^(١)

وقال القطامي^(٢):

ولما ردها في الشول شالت بدْيَال يكون لها لفاعا^(٣)
وقد يكون التحجيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك، كقول البحري^(٤):

هل لما فات من تلاق تلاف أم لشاك من الصباية شاف
وقال ابن مقبل^(٥):

يمشين هيل النقا مالت جوانبه ينهال حينًا وينهاه الثرى حينًا^(٦)
وقال زهير:

هم يضربون حَبِيكَ الْبَيْضِ إِذْ لَحِقُوا لَا يَنْكَلُونَ إِذَا مَا اسْتَلْحَمُوا وَحَمُوا^(٧)

= شجر لين القوام.

(١) البرى: جمع بُرْه، وهي حلقة من حديد أو نحاس توضع في أنف البعير لتذليله. وتطلق أيضا على كل حلقة من السوار والقرط والخلخال مما يوضع لزينه المرأة. يقول: إن الإبل لشدة سرعتها كانت كأنها تسابق الحلقات التي وضعت في أنوفها. وهذا أيضا يدخل في باب الغلو الذي سبق الكلام عنه.

(٢) القطامي، واسمه: عمرو بن سُتَيْم بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب. شاعر فحل، رفيق الحواشي، حلو الشعر.

(٣) الشُول: أن ترفع الناقة ذيلها وتحركه عند إرادة اللقاح. يقال: شالت الناقة بذنبها. والشول أيضا: بقية اللبن الذي في الضرع. والدْيَال: الذيل الطويل. واللفاع: ما يتلفع به. وما يَغْضَى به الجسم كله. ثوبا أو غيره..

(٤) سبق التعريف به.

(٥) ابن مقبل: تميم بن أبي مقبل من بني العجلان، كان شاعرا مجيدا. وأجود ما يكون شعره في القدح.

(٦) النقا: الكتيب من الرمل. وهيل النقا: الكتيب من الرمل الذي تتناثر جوانبه وتتساقط.

(٧) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة من حديد أو نحوه تلبس في الحرب. وحبك البيض: أي

ومن ذلك قول أبي تمام:

يمدون من أيدي عواصٍ عواصم
وأبو نواس يقصد في مصراعي مقدمات شعره هذا الباب كقوله:

ألا دارها بالماء حتى تليتها
وكذلك قوله:

ديار نوار ما ديار نوار
وكقول ابن المعتز:

سأثني على عهد المطيرة والقصر
وكقوله:

هي الدار إلا أنها منهم قفر
وكقوله:

لأمانني حديث يفر
وكقول المتنبي:

وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيب الروح في بدلي

وقد قيل: إن من قبيل قوله **﴿عَلَى﴾**: **﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾** (٣٧)، وقوله: **﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾** (٧٤) **﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾**

= القوي المتين منها. لا ينكرون: لا يحجمون إذا حميت الحرب وتلاحم المقاتلون.
(١) عواص: جمع عاصية. أي أن أيديهم عاصية للأعداء لا تلين لهم. ويمكن أن يكون ثناء بالشرف والمكرمة، بأن ينكرون عواص لكل ما يخدش الكرامة والعزة، وعواصم: جمع عاصمة. وهي اليد التي تحمي زمارها وتمنع جارها. وقواض: قاضيات على العدو، قواضب: قواطع. ضرباتها قاطعة مستأصلة.

(٢) الشجوة: الحزن، شجاه الأمر: أحزنه. عوار: خاليات منه.

(٣) سورة الأنبياء. الآية: ٣٧.

مِن دُونِهِ ﴿١﴾.

* * *

٧ - المقابلة:

ويعدون من قبيل البديع المقابلة، وهي: أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، وذلك مثل قول النابغة الجعدي^(٢):

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا
وقال تأبط شرًا:

أهز به في ندوة الحي عطفه كما هز عطفني بالهجان الأوارك^(٣)
وكقول الآخر:

وإذا حديث ساءني لم أكتب وإذا حديث سرني لم أسرر
وكقول الآخر:

وذي أخوة قطعت أقران بينهم كما تركوني واحدًا لا أخا ليا
ونظيره من القرآن: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَالْيَوْمَ يَجْتَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ

(١) سورة الزمر. الآية: ١٤. وبعض الآية: ١٥.

(٢) النابغة الجعدي، أو نابغة بني جعدة: قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، من فحول الشعراء في الجاهلية. عمر طويلًا. قال يورخ لعمره الذي بلغ مئة واثنًا عشرة سنة:

أنت مئة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذلك وحجتان

(٣) ندوة الحي: مكان اجتماع الحي، أو اجتماع ساداته. وعطف الرجل: جانبه. وهز العطف كناية عن الشعور بالفخر والعزة. والهجينة: هي الناقة الأصيلة. والأوارك: القوية الأوارك. إشارة إلى قوتها وسرعتها.

عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴿١﴾.

* * *

٨ - الموازنة:

ويعدون من البديع الموازنة وذلك كقول بعضهم: اصبر على حر اللقاء، وممض النزال، وشدة المصارع.

وكقول امرئ القيس:

سليم الشَّظَا عبل الشوى شنج النَّسَا^(٢)

ونظيره من القرآن: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدِ

وَمَشْهُودِ ﴿٣﴾﴾ ﴿٣﴾.

* * *

٩ - المساواة:

ويعدون من البديع المساواة، وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وذلك يُعَدُّ من البلاغة، وذلك كقول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(٤)

(١) سورة النحل. بعض آية: ٥٣، ٥٤.

(٢) الشظا: جمع شظية. وهي عظم صغير في الساق متصل بمفصلها من أعلى إلى أسفل. والشوى: أطراف الجسم. قال - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْ لَطَفٌ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ١٥ - ١٦]. والعبل: الضخم من كل شيء. وعبل الشوى: ضخم الأطراف. والنسا. عصب يمتد من الورك إلى الكعب. مثاه: نَسْوَان. وجمعه: أنساء. وشنج النَّسَا: سريع تقبض الأرجل.

(٣) سورة البروج. الآيات: ١ - ٣.

(٤) الخليقة: الطبيعة والعادة والخلق. خالها: ظنها.

وكقول جرير:

فلو شاء قومي كان حلمي فيهم
وكان على جهال أعدائهم جهلي
وكقول الآخر:
إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخبثا
أصبت حليماً أو أصابك جاهل^(١)
وكقول الهذلي^(٢):
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها
وأول راض سيرة من يسيرها^(٣)
وكقول الآخر:
فإن هم طاعوك فطاعوهم
وإن عاصوك فاعصي من عصاك
ونظير ذلك في القرآن كثير.

• • •

١٠ - الإشارة:

ومما يعدونه من البديع الإشارة، وهو اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة، وقال بعضهم في وصف البلاغة: لمحّة دالة. ومن ذلك قول طرفة^(٤):
فطلّ لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب

- (١) المراد بالجهل هنا: الطيش وسوء الخلق. الخنا: السفاهة والبداعة وكل خلق رديء.
(٢) الهذلي: أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرث... ابن هذيل. من فحول الشعراء في الجاهلية.
(٣) السنة: السيرة والعادة.
(٤) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. من فحول الشعراء المحمّدين، من أشهر شعره قصيدته التي مطلعها قوله:
لخولة أطلال ببرقة نهدم وقت بها أبكي وأبكي إلى الغد

وكقول زيد الخيل^(١):

فخيبة مَنْ يخيب علي غني وباهلة بن أعصر والرباب
ونظيره في القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾^(٢)، ومواضع كثيرة.

* * *

١١ - المبالغة والغلو:

ويعدون من البديع المبالغة والغلو^(٣)، والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك
كقول الشاعر:

ونكرم جازنا ما كان فينا ونتبعه الكرامة حيثُ مالا^(٤)
ومن ذلك قول الآخر:
وهم تركوك أسلح من حبارى رأت صقرا، وأشرد من نعام^(٥)

(١) زيد الخيل: هو زيد الخيل بن مهلهل من طيء .. جاهلي أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ في وفد طيء، وسماه الرسول ﷺ: زيد الخير، وأقطعه الرسول ﷺ أرضا بالمدينة، وكانت المدينة وبة، فقال رسول الله ﷺ أن ينجو زيد من أم مِلْدَم . يقصد الحمى ، فلما وصل بلده مات.

(٢) سورة الرعد. بعض آية: ٣١. وجواب (لو) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن.

(٣) تقدم ذكر الغلو والكلام عنه.

(٤) هذا من أنواع الغلو. حيث تعدى الممكن عادة إلى المحال. إذ إن إكرامهم جارهم في كل مكان يحل فيه يتطلب منهم معرفة سابقة بكل الأمكنة التي سوف يذهب إليها. وهذا ضرب من علم الغيب لا يعلمه جارهم نفسه.

(٥) الحُبَارِي: طائر طويل العنق، رمادي اللون يتسم بالجبن والخوف. والحباري اسم للذكر والأُنثى والجمع. فهي بطبعها خائفة. فإذا رأَت صقرا كانت أشد خوفا. وهذه هي المبالغة.

ف قوله: «رأت صقرًا مبالغة».
 ومن الغلو قول أبي نواس:
 توهمتُ شيئا ليس يدركه العقلُ
 فما يرتقي التكيف فيها إلى مدى
 و قول زهير:
 لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
 وكقول النابغة:
 بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
 وكقول الخنساء^(٢):
 وما بلغت كف امرئ من متاول
 وما بلغ المهدون في القول مدحة
 وقول الآخر:
 له همم لا منتهى لكبارها
 له راحة لو أن معشَرَ جودها
 توهمتُ شيئا ليس يدركه العقلُ
 يحدثُ به إلا ومن قبله قبلُ
 قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا^(١)
 وأنا لترحوا فوق ذلك مظهرًا
 بها المجد إلا حيثما نلت أطولُ
 وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ^(٣)
 وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
 على البر صار البر أندى من البحر

* * *

- (١) بأولهم: أي بأسلافهم وأمجادهم. وهذا غلو فائق.
- (٢) الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصبية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة: كانت أبرع من نطقت برثاء. قضت حياتها ترثي أخويها صحرا ومعاوية. فلما أسلمت تحول جزعها إلى مثال في التأسي والانسير، وما جاء خبر استشهاد ابائها ما زادت على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم وأني لأرجو أن يجمعني الله بهم في الجنة.
- (٣) من أجمل ما قيل في المديح وأجمعه وأوجزه. وهو من المبالغة القرية. لا غلو فيه ولا إغراق.

١٢ - الإيغال:

ويرون من البديع الإيغال^(١) في الشعر خاصة، فلا يطلب مثله في القرآن، إلا في الفواصل. كقول امرئ القيس:

كأن عيونَ الوحشِ حولِ خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقب^(٢)
وقد أوغل بالقافية في الوصف، وأكد التشبيه لها، والمعنى قد يستقل دونها.

* * *

١٣ - التوشيح:

ومن البديع عندهم: التوشيح^(٣)، وهو أن يشيد أول البيت بقافيته، وأول الكلام بآخره. كقول البحترى:

(١) زيادة في آخر البيت يتم المعنى بدونها. لكنها تزداد لتأكيد تشبيهه أو زيادة معنى، وهو بهذا المعنى لا يطلب في القرآن ألبته، لا في الفواصل ولا في غيرها، إذ القرآن المجيد لا يضع كلمات زائدة يتم المعنى الشريف بدونها. وكذلك لا يوجد في القرآن العظيم كلمات أهم من كلمات أخرى.
بل كل كلمة وكل حرف له نفس الأهمية والمنزلة التي لكل الكلمات والحروف الشريفة.

(٢) سبق شرح البيت. والزيادة المشار إليها هنا قول الشاعر: الذي لم يثقب، فإن التشبيه يتم بدونها. لكن كون الحرز اليماني الذي هو الجزع غير مثقب يجعله أكثر بريقاً، وهذا يؤكد بريق عيون الوحش حول خبائنه.

(٣) يسمى لدى البلاغيين تسهيماً وإرساداً. وهو أن يضمن البيت من الشعر أو الفقرة من النثر ما يدل على عجزهما إذا عرف الروى أو الفاصلة..

وفي تحقيق هذا في كلام الله - تَعَالَى - نظر. إذ يترتب عليه أن سامع القرآن المجيد قد يسمع جزء آية فيدرك بقية الكلام فيها، ويكملها من عنده، فيكون قد قال كلاماً مثل كلام الله - تَعَالَى - ولو كان كلمة أو كلمتين. وليس هذا عندنا بمقبول على الإطلاق.

فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرّمته بحرام ومثله في القرآن: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾^(١).

١٤ - رد العجز عن الصدر:

ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله ﷻ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾^(٢)، وكقوله: ﴿لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى﴾^(٣)، ومن هذا الباب قول ذي الرمة:

وإن لم يكن إلا تعلُّ ساعة
وكتول جرير:

سقى الرمل جون مستهل غمامة
وما ذاك إلا حب من حل بالرمل^(٤)
وكتول الآخر:

(١) سورة المائدة. بعض الآية: ٣٩.. وليس في الآية ما يجعلها من قسم (التوشيح) الذي يتكلم عنه المؤلف - غَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنهُ - فليس في بدايتها ما يدل على نهايتها، أو يجعل سامع أولها قادرًا على إكمال آخرها؛ فإن نهاية الآية كان يمكن أن يقال فيه: (فإن الله غفور رحيم) أو: (فإن الله سميع عليم) أو ما شابه. نستغفر الله - شُبْحَانَهُ - ونعوذ به من تبديل الكلم. لكن النظم الشريف جاء بهذه العبارة القرآنية التي لا يمكن لبشر أن يرحم بها.

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٢١.

(٣) سورة طه. بعض الآية: ٦١.

(٤) الجون: الأسود، والأبيض. فهو من أسماء الضد، واستعماله في الأسود أكثر. والمراد هنا: السحاب الأبيض أو الأسود. والغمامة: السحابة البيضاء. فهي بدل من كلمة: جون.

يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل
وكقول أبي صخر الهذلي^(١):
عجبت لسغي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وكقول الآخر:
أصد بأيدي العيس عن قُصد أرضها وقلبي إليها بالمودة قاصد^(٢)
وكقول عمرو بن معدي كرب^(٣):
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

* * *

(١) أبو صخر الهذلي: عبد الله بن سالم السهمي الهذلي من شعراء الدولة الأموية، كان موالياً لبني مروان متعصباً لهم. وله في بني مروان مدائح كثيرة، ولهم عليه أباد أكثر.
(٢) العيس: الإبل التي يخالط بياضها شقرة. وقد يطلق على الإبل بعامة إذا كانت كريمة أصيلة.

والعيس: جمع. مذكرة: أعيس. ومؤنثه: عيساء.

(٣) عمرو بن معد يكرب الزبيدي، من مذحج، ويكنى أبا ثور. كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس في الجاهلية، وأدرك الإسلام وقدم على رسول الله ﷺ المدينة وأسلم. ثم ارتد عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ. ثم هاجر إلى العراق فأسلم وحسن إسلامه، وشهد موقعة القادسية، وله فيها بلاؤه. أوفده سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية. فأخذ عمر يسأله في شئون كثيرة وهو يجيب شعراً وحكماً. وسأله عن الحرب فقال: هي مرة المذاق، إذا قلصت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف. وهي كما قال الشاعر:

الحرب أول ما تكون فتية تسمي بزينتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشب ضرامها غادت عجوزاً غير ذات ضليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

١٥ - صحة التقسيم:

ومن البديع صحة التقسيم، ومن ذلك قول نصيب:
فقال فريق القوم: لا. وفريقهم نعم، وفريق قال: ويحك ما ندري
وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا.
وكقول الآخر:

فكأنما فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم^(١)
وقول المقنع الكندي^(٢):

إن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هروا غتي هويت لهم رشدا^(٣)
وإن زجروا طيرًا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرًا تمر بهم سغدا
وكقول عروة بن حزام^(٤):

بمن لو أراه غائبًا لفديته ومن لو رآني غائبًا لفداني

(١) يشبه شعرها في سواده وكثافته واحاطته بوجهها كأنه ليل مظلم ووجهها وسط هذا الليل كأنه نهار ساطع لشدة بياضه وتلألؤه وجماله.

(٢) المقنع الكندي: محمد بن عمير من كندة، وكان من أجمل الناس وجهًا وأمدهم قامه، وكان إذا كشف عن وجهه لقع، أي أصابته العين، فكان يتقنع عمره، لذا سمي المقنع.
(٣) ضيعوا غيبي: اغتابوني وتموا علي، أو سمحوا لغيرهم أن يفعل ذلك ولم يمنعوه. هروا غيبي: تمنوا ما يضرني.

(٤) عروة بن حزام، من بني عذرة. وهو أحد العشاق الذين قتلهم العشق، وصاحبه عفراء بنت مالك العذرية، وكان عروة يتيما في حجر عمه، فلما بلغ مبلغ الصبا علق عفراء، فسأل عمه زواجها فسوفه ثم زوجها غيره، فما زال مريضا بها لم ينفعه طب حتى مات. ولما علم معاوية رضي الله عنه بحالهما قال: لو علمت بحالهما لجمعت بينهما.

ونحوه قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(١).

* * *

١٦ - صحة التفسير:

ونحوه صحة التفسير، كقول القائل:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج^(٢)

* * *

١٧ - التكميل والتميم:

ومن البديع التكميل والتميم^(٣) كمقول نافع بن خليفة:

رجال إذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع
وإنما تم جودة المعنى بقوله: «يعطوه»، ذلك كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

(١) سورة البقرة. بعض آية: ٢٥٧.

(٢) يقول: إنه يقابل كل ظرف بما يناسبه. فالظرف الذي يحتاج إلى حلم يتعامل معه بالحلم. والذي يحتاج إلى شدة وقسوة يذل له ذلك. والبيت ينسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) التكميل - ويسمى الاحتراس، والاحتراز -: أن يكون في حشو الكلام ما يوهم خلاف مقصود المتكلم، فيأتي بما يدفع هذا الوهم، والتميم: أن يأتي في الكلام بزيادة تفيد نكتة بلاغية. مثل قوله - تعالى -: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٩٩].

عَلَّمَ السَّاعَةَ ﴿١﴾، إلى آخر الآية (١). ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

١٨ - الترصيع:

ومن البديع الترصيع (٣)، وذلك على ألوان، منها قول امرئ القيس:
 محش محش مقبل مدبر معا كئيس طباء الحلب في العدوان (٤)
 ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس:
 يا منة امتها السكر ما ينقضي من لها الشكر
 وكقوله وقد ذكرناه قبل هذا:
 ديار نوار ما ديار نوار كسؤنك شجوا هُنَّ منه عوار

(١) قول المؤلف: (إلى آخر الآية، ثم قال) يوهم أن قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ من آية أخرى. وأن الآية تمت قبل هذا الجزء منها. والصحيح غير ذلك، ونو قال: إلى آخر الأمور الخمسة التي لا يعلمهن إلا الله - تعالى - المذكورة في الآية. لكان ذلك هو الصحيح.

(٢) سورة لقمان. الآية: ٣٤. والآية بتمامها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ عَدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤).

(٣) الترصيع: تسجيع حشو البيت.

(٤) الحش: منجل يحش ويقطع به الحشيش. والحش: موقد نار الحرب وموجهها، ويقال لقائد الكتيبة: محش الكتيبة. وكل هذه المعاني تصح وصفا لفرس الشاعر. والحش: الفرس الجسور، والرجل الجريء، والحلب نبات تأكله الضياء فتضمحل بطونها، وضهور البضن يساعد على السرعة في الجري والعدو. ويروى مكان الصدر (مكر مفر). وفي معلقته المشهورة:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

١٩ - الترصيع مع التجنيس:

ومن ذلك الترصيع مع التجنيس. كقول بن المعتز:

ألم تجزغ على الرّبع المحيل وأطلالٍ وآثار محول^(١)
ونظيره من القرآن كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَإِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿١٥١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾^(٢)، وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾^(٣)، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾^(٤)، وكقوله: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْبِ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَالسَّيْحَتِ سَبْعًا ﴿٣﴾ فَالْتَفَيْتِ سَبْعًا ﴿٤﴾﴾^(٦).

وقد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه، ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام، ومنهم من بنى كلامه عليه، كقول ابن الرومي^(٧):

أبدانهُنَّ وما لبسنَ من الحرير ممَّا حريزُ
أردانهُنَّ وما مسسنَ من العبير ممَّا عبيزُ^(٨)
وكقوله:

فلراهب أن لا يريب أمانه ولراغب أن لا يريث نجاحه

(١) الربع المحيل: المجدب الذي لا ماء فيه ولا نبات. ومحول: أي تغيرت ومحيت.

(٢) سورة الأعراف. الآيتان: ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) سورة القلم. الآيتان: ٢ - ٣.

(٤) سورة العاديات. الآيتان: ٧ - ٨.

(٥) سورة الطور. الآيتان الأولى والثانية.

(٦) سورة النازعات. الآيتان: ٣ - ٤.

(٧) ابن الرومي: من الشعراء العباسيين المجيدين، وبخاصة في الرثاء. توفي ٢٨٣هـ.

(٨) الأردان: الأكماء: جمع: ردن. وهو الكم.

٢٠ - المضارعة:

ومما يقارب الترصيع ضَرْبٌ يسمى المضارعة، وذلك كقول الخنساء:
 حامي الحقيقة محمودُ الخليفة مَهْدِيُّ الطريقة نَفَّاعٌ وضَرَّازُ
 جَوَّابٌ قاصية، جَرَّازُ ناصية عَقَّادُ ألوية، لِلخَيْلِ جَرَّازُ

* * *

٢١ - التكافؤ:

ومن البديع باب التكافؤ، وذلك قريب من المطابقة، كقول المنصور^(١): «لا
 تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية»، وقول عمر بن ذر^(٢): «إنا لم نجد لك إذ
 عصيت الله فينا خيرا من أن نطيع الله فيك»، ومنه قول بشار:
 إذا أيقظتك حروبُ العدا فَنَبِهْ لها عمرا ثم نَمِّ

* * *

٢٢ - باب التعطف:

ومن البديع باب التعطف، كقول امرئ القيس:
 عود علي عود علي عود خلق
 وقد تقدم مثاله.

* * *

(١) المنصور: أبو جعفر المنصور وهو الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس.
 (٢) عمر بن ذر: هو أبو ذر عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة بن معاوية بن منبة بن غالب...
 ابن نوف بن همدان. كان فقيها، روى عن عطاء ومجاهد، وروى عنه وكيع وأهل
 الطرق. كان من المرجئة. توفي سنة ست وخمسين ومئة.

٢٣ - السلب والإيجاب:

ومن البديع السلب والإيجاب، كقول القائل^(١)
ونكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

* * *

٢٤ - الكناية والتعريض:

ومن البديع الكناية والتعريض، كقول القائل:
وأحمر كالديباج أما سماؤه فرياً وأما أرضه فمحور
ومن هذا الباب لحن القول^(٢).

* * *

(١) القائل هو: السموأل بن عادباء. الشاعر المعروف. وقد سبق الاستشهاد ببعض أبيات هذه القصيدة التي هي من أشهر وأبلغ ما قيل في الفخر.

(٢) المراد بلحن القول ما يدسه القائل في حشو كلامه من كلمات لها معنى ظاهر مقبول، ولها معنى آخر غير مقبول من السامع وإن كان القائل يقصده. وذلك مثل قول المنافقين: (راعنا) وهي في ظاهرها طلب الرعاية. ولكن ما يقصدونه معنى آخر فيه سخرية وتهكم بالنبي ﷺ. فهذا من لحن القول والتعريض. وقد بين الله - سبحانه - ذلك في قوله - تعالى - ناعياً عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّأْ لَيْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ﴾ [النساء: ٤٦].

ولذلك نهى الله - تعالى - المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة لاحتمالها ذلك الوجه القبيح. فقال - سبحانه -: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]. وقد جعل الله - تعالى - (لحن القول) من علامات المنافقين. فقال لرسوله ﷺ في شأن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد ﷺ: ٣٠].

٢٥ - العكس والتبديل:

ومن ذلك العكس والتبديل كقول الحسن^(١): «إن من خَوْفِكَ لتأمن خير ممن أَمَّنَكَ لتخاف»، وكقوله: «اللهم اغنني بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك»، وكقوله: «بع دنياك بآخرتك تريحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً»، وكقول القائل:

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا
وقد يدخل في هذا الباب قوله - تَعَالَى -: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾^(٢).

* * *

٢٦ - الالتفات:

ومن البديع الالتفات، فمن ذلك ما كتب إليّ الحسن بن عبد الله العسكري^(٣)، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي^(٤)، حدثني يحيى بن علي المنجم^(٥) عن أبيه^(٦) عن إسحاق بن إبراهيم^(٧) قال: قال لي الأصمعي: أتعرف

(١) الحسن: الحسن البصري الإمام الزاهد الواعظ. توفي سنة عشر ومئة. - رَجِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ..

(٢) سورة الحج. بعض آية: ٦١، وسورة لقمان. بعض الآية: ٢٩، وسورة فاطر. بعض الآية: ١٣، وسورة الحديد. بعض الآية: ٦.

(٣) الحسن بن عبد الله العسكري، صاحب كتاب: صناعتي النظم والنثر. المشهور بالصناعتين. وله غير ذلك مؤلفات كثيرة مفيدة. توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمئة.

(٤) الصولي: لغوي أديب ناقد. توفي سنة ست وثلاثين وثلاث مئة.

(٥) يحيى المنجم: شاعر وأديب. توفي سنة ثلاث مئة.

(٦) أبوه هو: علي بن المنجم. توفي سنة ٢٧٥ هـ.

(٧) إسحاق بن إبراهيم الموصلي. توفي سنة أربعين ومئتين.

التفتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامة؟ سُقي البشام^(١)
ومثل ذلك لجرير:

متى كان الخيام بذي طلوح سُقيت الغيث أيتها الخيام^(٢)
ومعنى الالتفات أنه اعترض في الكلام قوله: «سقيت الغيث»، ولو لم يعترض
لم يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظماً، وكان يقول: «متى كان الخيام بذي
طلوح أيتها الخيام»، فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلفظ
كان ذلك التفاتاً^(٣). ومثله قول النابغة الجعدي^(٤):

ألا زعمت بنو سعد بأني ألا كذبوا كبير السن فاني
ومثله قول كثير^(٥):

لو أن الباذلين، وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطال^(٦)

(١) البشامة: شجرة طيبة الريح والطعم يستاك بها. والجمع: بشام.

(٢) ذو طلوح: الوادي يكثر فيه شجر الطلح. وهو شجر كبير من أشجار البادية من نوع
العضة.

(٣) وهو بهذا المعنى يشمل الاعتراض. ويكون الاعتراض نوعاً من الالتفات.

(٤) النابغة الجعدي: هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة، من بني عامر بن
صمصمة. من فحول الجاهلية في الشعراء، كبرت سنة وعمر طويلاً. وكان قبل النابغة
الذياني بسنين طويلة. قال يذكر كبير سنه وخلو الأرض من رفقائه:

نداماي عند المنذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفرا
وقال يذكر سنه لما وصل اثنتي عشرة بعد المئة:

أنت مثة لعام ولدت فيه وعشر بعد ذاك وحجتان

(٥) كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، وكنيته: أبو صخر. من فحول الشعراء، وهو عند أهل
الحجاز مقدم على غيره. وكان كثير من النقاد يرونه أشعر أهل الإسلام.

(٦) المطال والمطل: التسوية في أداء الحقوق ورد الديون.

ومثله قول أبي تمام:

وأجذتهم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد^(١)
وكقول جرير:

طرب الحمام بذبي الأراك فشاقتي لا زلت في غلل وأيك ناصر^(٢)
التفت إلى الحمام فدعا لها، ومثله قول حسان^(٣):

إن التي ناولتني فرددتها قُلتَ - قُلتَ - فهاتها لم تقتل^(٤)
ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر^(٥):

وأجمل إذا ما كنت لا بداً مانعاً وقد يمنع الشيء الفتى وهو مجمل^(٦)
وكقول ابن ميادة^(٧):

(١) أنجدتم: أي أضحيتم من سكان نجد. إتهام داركم: بعد أن كانت داركم في تهامة. أنجدني: أعني.

(٢) ذو الأراك: المكان يكثر فيه شجر الأراك. وهو شجر ضيب يستاك به. والغلل: المكان تكثر فيه الأشجار بحيث يتغللها من يمشي فيه، أي يتوارى فيه. أو المكان الخصب يوجد بغلته. والأيك: الشجر المنتف الأغصان.

(٣) حسان بن ثابت من الخزرج من بني النجار، صحابي جليل رضي الله عنه، كان كثير الشعر جيده. لما قدم النبي ﷺ المدينة تناولته قريش تهجوه شعراً، فطلب الرسول ﷺ من عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك أن يهجوا قريشاً فلم يقدرأ على الهجاء. فقال لحسان: اهجم واثت أبا بكر يخبرك معائب القوم. فانتصر منهم حسان. وروي أن الرسول ﷺ كان يقول له: اهجم وروح القدس معك.

(٤) يصف كأس خمر - وذلك قبل أن يسلم ﷺ. وقتلت: أي مزجت بالماء، فخفت حدتها وقوتها. لم تقتل: لم تمتزج بالماء. وقتلت: دعاء على الساقى.

(٥) عبدالله بن معاوية بن جعفر، شاعر أموي عف كريم. توفي سنة إحدى وعشرين ومئة هـ.

(٦) أجمل: أي كن حسن الجواب واضح الاعتذار إذا رددت صاحب حاجة.

(٧) ابن ميادة: هو الرماح بن يزيد، وميادة أمه، وكانت أم وند، ويكنى أبا شراحيل. وهو من بني مرة بن عوف بن ذبيان. توفي سنة خمس عشر ومئة.

فلا صرمه ييدوه وفي اليأس راحة ولا وصله يصفوا لنا فنكارمه^(١)
 ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله - تعالى - عن إبراهيم الخليل من قوله:
 ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
 مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنَّا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾^(٢)،
 وقوله **عَلَّكَ**: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(٣)
 و**بِرَزْوِ اللَّهِ جَمِيعًا**^(٤)، ومثله قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ
 طَيِّبَةٍ﴾^(٥)، إلى آخر الآية. ومثله قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيِنَا
 فَأَنسَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ
 تَتْرِكُهُ يَلْهَثْ﴾^(٦)، ومثله قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً

(١) صرمه: أي قطيعته.

(٢) سورة العنكبوت. من الآية: ١٦ إلى الآية: ٢٤. وأول الآيات قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ هَبْنَا
 إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)
 [١٦].. والذي ذهب إليه المؤلف بعيد غاية البعد. فالكلام الذي حكاه القرآن عن أبي
 الأنبياء - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - أبعد ما يكون عن الاعتراض أو الالتفات. فهو
 من صلب دعوته. ولذلك ما كان يتم المعنى بدونها، وما كان يعتر مبلغا رسالته لو لم يقل
 لهم كل الذي جاء به النص الشريف. أما الالتفات والاعتراضات فهي كثيرة في القرآن
 العظيم وفي غاية الوضوح، بعيدا عن هذا التكلف الذي اتسم به كلام المؤلف. من ذلك
 قوله - تعالى - من سورة الواقعة: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾^(٢) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو
 تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ^(٣) إِنَّهُمْ لَقَرَّةٌ كَرِيمٌ^(٤) [الآيات: ٧٥ - ٧٧]. فالله - تعالى - أقسم
 بمواقع النجوم. وجواب القسم قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّهُمْ لَقَرَّةٌ كَرِيمٌ﴾^(٥) وجملة:
 ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٦) جملة معترضة وهي التفات. بل إن جملة
 الالتفات نفسها في داخلها اعتراض والتفات ثان وهو قوله - **عَلَّكَ** -: ﴿لَوْ تَطَّلَمُونَ﴾ فإن
 الكلام في الجملة هو: وإنه لقسم عظيم. وجاءت جملة: ﴿لَوْ تَطَّلَمُونَ﴾ اعتراضا داخل
 الاعتراض. أو التفات داخل الالتفات والله - سبحانه - أعلم.

(٣) سورة إبراهيم **الطَّلَمَاتُ**. من الآية ١٩ إلى الآية ٢١.

(٤) سورة يونس **الطَّلَمَاتُ**. بعض آية: ٢٢.

(٥) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٥ - ١٧٦.

يَمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ ﴿١﴾ .
ومنهم من لا يُعَدُّ الاعتراض والرجوع من هذا الباب، ومنهم من يُفَرِّدُهُ عنه
كقول زهير^(٢):

قف بالديار التي لم يعفها القدم
وكقول الأعرابي^(٤):

أليس قليلاً نظرة أن نظرتها
وكقول ابن هرمة^(٥):

ليت حظي كالحظة العين منها
ومن الرجوع قول القائل^(٦):

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
وقال الأعشى^(٧):

(١) سورة المائدة. الآية: ٣٨. وبعض الآية: ٣٩.

(٢) زهير بن أبي سلمى، من الطبقة الأولى لفحول شعراء الجاهلية. سبق التعريف به.

(٣) لم يعفها: لم يذهب أثرها ويمحها. الأرواح: الرياح. الديم: المطر الكثير الهطول.

(٤) الأعرابي: يقصد به: يزيد بن الطثيرة، والظثرية أمه، وأبوه اسمه: المنقش، كان شاعراً غزلاً
مغرماً بحديث النساء وقول الشعر فيهن.

(٥) ابن هرمة: من الخلج من قيس عيلان، وكان مولعاً بالشراب، جيء به سكران في ولاية
أبي العباس فأقيم عليه الحد، فلما ولي أبو جعفر امتدحه ابن هرمة فأعجبه، فقال: تمن
علي. قال: تكتب علي عامل المدينة ألا يحدثني إذ أتى بي إليه وأنا سكران، فكتب أبو
جعفر إلى عامله أن يحتال له فلا يقيم عليه الحد.

(٦) هو ابن المدينة، وهو شاعر أموي، واسمه: عبيد الله بن عبد الله. والمدينة أمه، وهو من
خثعم. وهو شاعر غزل يكثر القول في النساء.

(٧) الأعشى: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن
ثعلبة. يكنى: أبا بصير، من فحول شعراء الجاهلية.

صرمت ولم أصرمكم، وكصارم
وكقول بشار:

لي حيلة فيمن ينم
مَن كان يخلق ما يقول
وقال آخر:

وما بي انتصار أن غدا الدهر ظالمي
عليّ بلى أن كان من عندك النصر

* * *

٢٧ - التذييل:

وباب آخر من البديع يسمى التذييل، وهو ضرب من التأكيد، وهو ضد ما
قدمنا ذكره من الإشارة^(٢) كقول أبي داود^(٣):

إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب^(٤)
وأخذه الخطيئة^(٥) فقال:

(١) الصرم: القطيعة والهجران. والكشخ: ما بين الخاصرة والضلوع. وطوى كشحا: أعراض.
(٢) التذييل ضد الإشارة لأن التذييل إطناب وإسهاب. أما الإشارة فقد بينها المؤلف سابقا
بأنها المعاني الكثيرة في الكلام القليل.

(٣) أبو داود اختلفوا في اسمه. فقيل: هو جارية بن الحجاج. وقيل: حنظلة بن الشرقي. وهو
شاعر جاهلي مجيد. كان امرؤ القيس يروي له.

(٤) العناج: حبل أو سير يشد تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلى الدلو بما يمسك الدلو.
بحيث إذا انقطعت أذن الدلو امسكها العناج أن تقع في البئر. والكرب: حبل يشد في
وسط خشبة الدلو فوق الرشا ليقويه. والرشا هو الحبل الذي يجذب به الدلو.

(٥) الخطيئة: جرول بن أوس بن مالك بن جوية بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن
عيس بن بغيض بن ريث بن غطفان. كان شاعرا مفلحا من فحول الشعراء المخضرمين،
وكان الناس قد شكوا سلاطة لسانه وشدة هجائه فأوعده عمر رضي الله عنه أن يقطع لسانه، =

فَدَعَوْا نَزَالَ فَكُنْتَ أَوَّلَ نَازِلٍ وَعَلَامَ أَرْكَبَهُ إِذَا لَمْ أَنْزَلْ
وَقَقُولٍ جَرِيرٍ:

لَقَدْ كُنْتَ فِيهَا يَا فِرْزِدُوقَ تَابِعًا وَرَيْشَ الذَّنَابِيِّ تَابِعًا لِلْقَوَادِمِ^(١)
ومثله قوله **عَلَّكَ**: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ إلى
قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْمَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْمَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا خَطِيئِينَ﴾^(٢).

= = =

٢٨ - الاستطراد:

وباب من البديع الاستطراد، فمن ذلك ما كتب إلي الحسن بن عبد الله^(٣)

= وألقاه في مكان مظلم أعده للحبس. فقال الخطيئة يخاطب عمر:
ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر، عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهي البشر
ما أتروك بها إذ بايعوك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
ولما سمع عمر البيت الأول فاضت عيناه من خشية سؤال الله إياه عن أطفال الخطيئة، ثم
اشترى أعراض الناس من الخطيئة يجعل معين أعطاه له، وأطلق سراحه بعد أن عاهده ألا
يتعرض لأحد بالهجاء.

(١) ريش الذنابي: ريش الأذنان. وريش القوادم هو: قوادم الريش في كل جناح. كناية عن
صغر سنه وحدثاته.

(٢) سورة القصص. الآيات: ٤ إلى ٨.

(٣) الحسن بن عبد الله: هو حسن بن عبد الله العسكري. المشهور بأبي هلال العسكري
صاحب كتاب الصناعتين. المتوفي ٣٩٥هـ.

قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة^(١) لحسان بن ثابت^(٢) رضي الله عنه:
 إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
 ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ورمى برأس طِمْرَةَ ولجام^(٣)
 وكقول السموأل:
 وأنا لقوم لا نرى القتل سبّة إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
 وكقول الآخر^(٤):
 خليلي من كعب أعينا أحاكما على دهره إن الكريم معينُ
 ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى نداءه حزينُ
 وكقول الآخر:
 فما دَرَّ قرن الشمس حتى كأننا من ادعي نحكي أحمد بن هشام^(٥)

(١) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى اللغوي البصري، أعلم من الأصمعي وغيره بالأنساب والأيام. له تصانيف كثيرة. كان شعوبياً. وقيل: كان من الخوارج الإباطية. توفي سنة تسع ومائتين.

(٢) حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه الصحابي المعروف وشاعر الرسول ﷺ وهذا البيتان من قصيدة له يذكر غزوة بدر ونصر الله - تعالى - المسلمين. وفرار المشركين. ومنهم الحارث بن هشام الذي ورد ذكره في البيت الأول.

(٣) الطمرة: الفرس شديد العدو. يقول: إنه رمى برأس العداة، أي أطلق لها العنان فرارا من المعركة.

(٤) القائل: بشار بن برد، شاعر مطبوع. كان يرمي بالزندقة. كان أعمى، وسمع مرة صوت جارية فطرب له ووقع حبه في قلبه فقال:

يا قوم أذني لبعض الحمي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(٥) ذر: ظهر وبدا. قرن الشمس: أول ما يبدو من قرصها عند مطلعها. العي: العجز. وهنا: العجز عن البيان.. يقول: إنهم قضوا الليل في شرب الخمر فما أن بدأت الشمس في الشروق حتى كانوا من السكر عاجزين عن الكلام.

وكقول زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان ولكنَّ الجواد على علاته هرم^(١)
وفيما كتب إليَّ الحسن بن عبد الله قال: أخبرني محمد بن يحيى، حدثني
محمد بن علي الأنباري، قال: سمعت البحترى^(٢) يقول: أنشدني أبو تمام
لنفسه:

وسابح هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوان
أظمى الفصوص ولم تظماً قوائمه فجل عينيك في ريان ظمآن
ولو تراه مشيحاً والحصى فلق بين السنابك من مشى ووحدان
أيقنت - إن لم تَبْتَثْ - أن حافره من صخر تدمر أو من وجهة عثمان^(٣)
وقال لي: ما هذا من الشعر؟ قلت: لا أدري. قال: هذا المستطرد، أو قال:
الاستطراد، وقلت: وما معنى ذلك؟ قال: يُرى أنه يصف الفرس ويريد هجاء
عثمان، فقال (ما قال): وقال البحترى:

ما أن يعاف قذى ولو أوردته يوماً خلائق حمدويه الأخول
قال: فقيل للبحترى: إنك أخذت هذا من أبي تمام. قال: ما يعاب عليَّ أن

(١) هرم بن سنان. ممدوح زهير بن أبي سلمى.

(٢) البحترى: أبو عبادة البحترى. من الشعراء العباسيين المجيدين. توفى سنة أربع وثمانين
ومئتين هـ.

(٣) هطل هتان: المطر المتتابع النزول. التعداء: العدو. الجراء: الجري. الفصوص: جمع فص،
وهو ملتقى كل عظمين من الجسم. وأظمأها: كناية عن شدة عرقها ونزول الماء منها
حتى جف ماؤها فصارت شبيهة بالظمآن.

والمشيع: الجاد. وهنا: الجاد في الجري. والسنابك: جمع سنبك وهو طرف الحافر من
الحصان وغيره.. يصف الحصان بأنه سريع الجري متابعه كالغيم الذي يسيل ماؤه ولا
ينقطع، ومن شدة جرية كانت مفاصل رجليه وجسمه يسيل منها العرق حتى جف ما
بها من ماء، وكانت حوافره تفلق الحصى كأنها صخر شديد من صخور تدمر.

أخذه منه وأتبعه فيما يقول.

ومن هذا الباب قول أبي تمام:
صَبَّ الفراق علينا صَبًّا من كِتابِ
ومنه قول السري الرفاء^(٢):

عليه إسحق يوم الروع متقمًّا^(١)

يرمي بسهم الحين من يرمي به
بقنا ابن عبد الله أو بحرابه

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم

ونظيره من القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظِلَالَهُ عَنِ
الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾^(٣) كأنه كان المراد أن يجري
بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله سجدة، وإن كان ابتداء الكلام
في أمر خاص^(٤).

* * *

٢٩ - التكرار:

ومن البديع عندهم التكرار، كقول الشاعر:

هلا سألتُ جُموعَ كندةٍ
يومَ ولو أينَ أيناً؟

- (١) الروع: الفرع. والبيت يمدح فيه أبو تمام قائدا عباسيا اسمه إسحق.
(٢) السري الرفاء: أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلبي. كان
شاعرا مجيدا عذب الألفاظ، كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف. كانت وفاته
بيغداد سنة نيف وستين وثلاثمئة هـ.
(٣) سورة النحل: الآيات: ٤٨ - ٤٩.
(٤) هذا تحليل للآيتين خاص بالمؤلف لا ينسحب على غيره، ولا نلتزم نحن به. إذ نخالفه
مخالفة صريحة في التعبير عن مراد الله - سبحانه - .. بمثل قول المؤلف: (كأنه كان المراد) ذ
مراد الله تعالى - واقع على ما أراد الله - سبحانه - ولا يقال: كان المراد كان كذا ثم تحول
إلى كذا.

وكقول الآخر:

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى لها^(١)
ونظيره من القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾﴾^(٢)،
وكالتكرار في قوله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ﴿١﴾﴾^(٣)، وهذا فيه معنى زائد على
التكرار؛ لأنه يفيد الإخبار عن الغيب.

٣٠ - الاستثناء:

ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء^(٤) كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلولّ من قراع الكتاب^(٥)
وكقول النابغة الجعدي:

(١) أولى لها: أي وليها الشر وقاربها. أو هو دعاء بالويل والهلاك. ومنه قول الله - تعالى - في
شأن من يكذب رسول الله ﷺ: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَآوَىٰ ﴿١٦﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَآوَىٰ ﴿١٧﴾﴾
[القيامة: ٣٤ - ٣٥]؛ أي: ويل لك ثم ويل. وهذا من أوضح الشواهد القرآنية على القسم
البلاغي الذي يتحدث عنه المؤلف.

(٢) سورة الشرح. الآيتان: ٥ - ٦.

(٣) سورة الكافرون. فاتحة السورة.. وتسمى سورة الكافرون وسورة: قل هو الله أحد: سورتنا
الإخلاص. وتسمى سورة الكافرون أيضا: سورة البراءة. أي البراءة من عبادة غير الله -
شُبْحَانَهُ.. ومن أوضح الأمثلة على التكرار ما في سورة: الرحمن من تكرر قوله - تعالى -
: ﴿فِي آيَاتِ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ أَلَّا تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾﴾ حيث تكررت في السورة الكريمة إحدى وثلاثين
مرة.. وكذلك ما ورد في سورة المرسلات. من قوله - شُبْحَانَهُ -: ﴿وَلَيْلٌ يُؤَمِّمُ الْمُسْكَدِينَ ﴿١٥﴾﴾.
حيث وردت في السورة الكريمة عشر مرات.

(٤) وهو المدح بما يشبه الذم. وهو من أكثر أنواع المدح تأثيرا في النفس.

(٥) الفلول: الآثار في السيف من كثرة الضرب به من خدوش والتواء في حده. وقراع
الكتاب: منازلها وحرابها.

فتى كملت أخلاقه غير أنه جوادٌ فلا يبقى من المال باقياً
 فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا
 وكقول الآخر:
 حلیم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيبُ
 وكقول أبي تمام:
 تنصل ربها من غير جرم إليك سوى النصيحة والوداد^(١)
 ووجوه البديع كثيرة جداً؛ فاقصرنا على ذكر بعضها، ونبهنا بذلك على ما
 لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

* * *

هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز؟

وقد قدر مقدرون أنه يمكن الاستفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي
 نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا؛ لأن هذه
 الوجوه إذا ما وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها،
 وذلك كالشعر الذي إذ عرف الإنسان طريقه صحَّ منه التعمل له،، وأمكنه نظمه.
 والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها فليس مما يقدر البشر على
 التصنع له، والتوصل إليه بحال.

* * *

وبيّن ما قلنا أن كثيراً من المحدثين قد تصنَّع لأبواب الصنعة، حتى حشى
 جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع
 أبو تمام في لاميته:

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهلٌ وصدرك منها مدة الدهر أهل^(٢)

(١) من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه.

(٢) ذهلية: امرأة من قبيلة ذهل. ذاهل: ساه مشغول. أهل: مسكون.

- تطل طول الدمع في كل موقف
دوارس لم يجف الربيع ربوعها
فقد سحبت فيها السحاب ذبولها
تَعَفِّينَ من زاد العفاة إذا انتحى
لهم سلف سمر العوالي وسامر
ليالي أضللت العزاء وخذلت
من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت
مها الوحش إلا أن هاتا أوانس
هوى كان خلسا إن من أطيب الهوى
- وتمثل بالصبر الديار الموائل^(١)
ولا مرٌّ في أغفالها وهو غافل^(٢)
وقد أحمَلتْ بالتَّوَرُّ تلك الخمائِلُ^(٣)
على الحَيِّ صرف الأزمة المتماحلُ^(٤)
وفيهم جمال لا يفيض وجمال^(٥)
بعقلك آرام الخدور العقائل^(٦)
لها وشحا جالت عليها الخلاخلُ^(٧)
قنا الخط إلا أن تلك ذوابلُ^(٨)
هوى جلت في أفيائه وهو خاملُ^(٩)
- ومن الأدباء من عاب عليه هذه الآيات ونحوها، على ما قد تكلف فيها من

- (١) تطل طول الدمع: تسكب الدمع كثيرا، تمثل به: تعذبه. الموائل: الدوارس كما فسرها في مطلع البيت التالي.
- (٢) يجف الربيع ربوعها. لم يهجر الربيع ديارها. الأغفال: القفار.
- (٣) سحبت فيها السحاب ذبولها: هضمت عنيتها. أحمَلتْ بالنور: صارت بالزهر خميلة.
- (٤) تعفين: طلبن الإعفاء. العفاة: السائلون. صرف: حادث. ومنه صروف الزمان أي حوادثه.
- المتماحل: المتعامل.
- (٥) سلف: أجداد. سمر العوالي: الرماح. والسامر: مكان السمر ليلا: يفيض: يحول وينقضي. وجمال: جمال.
- (٦) العزاء: التسلي، خذلت: قطعت: الآرام: الغزلان. العقائل: الأصيلات المصونات يقول: أضعت وصال الأصيلات اللواتي كالغزلان.
- (٧) الهيف: الرقة ودقة الحصر. الخلاخيل: حلبي تلبس في السيقان. التوشح: قلائد عريضة أو ما يشبهها يشد به الكتف اليمنى والخاصرة اليسرى أو العكس. جالت: تحركت من اتساعها على الخاصرة. يصفهن بشدة دقة الحصر.
- (٨) المها: بقر الوحش، تشبه به النساء وبخاصة في جمال العيون. قنا الخط: الرماح. ذوابل: صلبة.
- (٩) الأفياء: الأنحاء. خامل: أي عليل طيب.

البديع، وتعمّل من الصنعة، فقال: قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته، اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه، وقد تعصّب عليه أحمد بن عبيد الله ابن عمار^(١) وأسرف، حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه، ولما قد أولع به من الصنعة، ربما غطى على بصره، حتى يبدع في القبيح، وهو يريد أن يبدع في الحسن، كقوله في قصيدة أولها:

سَرَتْ تستجيزُ الدمعَ خوفَ نوى غدٍ وعاد قتادًا عندها كل مرقد^(٢)
فقال فيها:

لعمري لقد حررتُ يومَ لقيتُهُ لو أن القضاءَ وحدهُ لم يبرد^(٣)
وكقوله:

لولم تدارك مسن المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا^(٤)
فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت، كقوله:

تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت أعمازهم قبل نُضج التين والعنب
وكقوله:

لو لم يُمِث بين أطراف الرماح إذا لمات، إذ لم يُمِث، من شدة الحزن
وكقوله:

خشنت عليه أخت بني خشين

(١) أحمد بن عبيد الله بن عمار. أديب لغوي عليم بالشعر ونقده. ألف في سرقات أبي تمام. توفي سنة أربع عشرة وثلاث مئة.

(٢) تستجير الدمع: تطلبه وتستحبه. النوى: البعد والفراق. القتاد: الشوك.

(٣) حررت: اشتد غيظي وحنقي حتى سرت السخونة في جسدي. لم يبرد: لم يلق حتفه، يقول: لولا غيظه وحنقه ما برد ومات. ولو كان القضاء وحده دون غيظه ما لقي حتفه. وهذا من ضلالات الشعر بل كفرياته.

(٤) يقول: إن المجد كاد يهرم ويموت من قلة من يغذيه ويتعمده بالكرم والشجاعة. لولا المدد المدوح أدركه فجدد شبابه.

وكقوله:

ألا لا يمدُّ الدهرُ كَفًّا بَسِيئِ إلى مجتدي نصر فقطع من الزند^(١)

وقال في وصف المطايا:

لو كان كلفها «عبيد» حاجةً يوماً لزنَى شدقمًا وجديلاً^(٢)

وكقوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربةً غادرته عودًا ركوبًا^(٣)

فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها. حتى استثقل نَظْمُهُ واستوخم رَضْعُهُ، وكان التكليف باردًا، والتصرُّف جامدًا، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح.

* * *

وأما البحثري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقولُ التصنع له، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنًا رشيقيًا وظريفًا جميلًا، وتصنعه للمطابق كثيرٌ حسن، وتعمُّقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة. والرغبة في السلامة، فلذلك يخرج سليمًا من العيب في الأكثر. وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسن، وعودُ العبارات عن الغاية القصوى، فشيء لا بد منه، وأمر لا محيص عنه، كيف وقد وقف على مَنْ هو أجلُّ منه، وأعظم قدرًا، في هذه الصنعة، وأكبر في الطبقة، كامرئ القيس وزهير والنابعة، وإلى يومه^(٤).

(١) مجتدي نصر: طالب عطاياه. والزَّند: موصل طرف الذراع في الكف.

(٢) شدقم وجديل: فحلان مشهوران. وأصل الشدقم: الأسد الواسع الشدق. والجديل: زمام البعير المجدول من آدم أو شعر. وزنٌ: من الظن أو التهمة. فتقول: زن فلان بفلان خيرًا أو شراً: ظنه به أو اتهمه، ويروى: (لأنسى) بدلا من (لزننى) وهو وجيه.

(٣) الأخدعان: عرقان على جانبي العنق. والعود: البعير كبير السن.

(٤) أي أن بلوغ الكمال في صناعة اللغة أمر لا يتوفر لأحد، وإنما هو قصر على الكتاب العزيز. وكل شاعر أو ناثر مهما بلغ في حسن الأداء من جانب قصر به جانب آخر. =

ونحن نبيّن تميز كلامهم، وانحطاط درجة قولهم، ونزول طبقة نظمهم، عن بديع نَظْم القرآن، في باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة الله وعونه.

* * *

● لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع:

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدّمناه؛ من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر، ووصفوه فيه؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم، والتدرب به، والتصنّع له، كقول الشعر، ورّصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة. وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسلّم يرتقى فيه إليه، ومثال يقع طالبه عليه^(١). فربّ إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعاً، أو صنعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرف، وقد يادره به ما قد تَعُودُه^(٢).

وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلفون أنواع البارع^(٣)، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة، فيحشون به

ومحال أن يبلغ أحد في ذلك مبلغ الكمال، وإلا ما عجز عن معارضة القرآن. وقد ضرب أمثلة بمن هم أكبر من البحثري وبين كيف وقف بهم جهدهم عن حد الكمال. وقول المؤلف: وإلى يومه: أي أن التقصير ضرب لازب منذ من ضرب بهم المثل وحتى زمان البحثري. ونقول: وما بعد زمانه وحتى تقوم الساعة لا يكون الكمال في لغة العرب لأحد من الخلق؛ لأنه وقف على معجزة اللغة الخالدة: القرآن المجيد.

- (١) أي يصنع على مثاله.
- (٢) أي قد يحاول إنسان أن يغير مما تَعُود من شعر أو نثر أو سجع، وأن يخرج على ما تَعُود، لكن عاداته تغلبه فلا يخرج كلامه إلا على ما قد ألف وتَعُود.
- (٣) أي أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية.

كلامهم، ومن كان قد تدرَّب وتقدَّم في حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف، ولم يحتاج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن بسيطاً من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله. وهذا طريق لا يتعذَّر، وباب لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذاً، ويقف فيه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة، بحسب ما يمده من الطبع.

فأما شأو نظر القرآن فليس له مثال يُحتذى إليه، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقاً، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق بعض كلامه بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد^(١). لأن ما جرى هذا المجرى، ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكتاب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه. ولو كان كل شعره نادراً، ومثلاً سائراً ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيماً، وكلُّ كلامه مملوءاً من رونقه ومائه، ومُحللاً بيهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستقل، والغث المستنكر، لم بين الإعجاز في الكلام ولم بين التفاوت العجيب بين النظام والنظام.

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعضه إلى تفسير، وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه.

ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم: إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وإنه لا ينفك القرآن عن فنٍّ من فنون بلاغتهم، ولا وجه من وجوه فصاحتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضوع كان جديراً.

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً؛ لأننا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه

(١) الوحشي من الكلام: العويص. وفلان يتوخى الوحشي في كلامه: أي يأتي فيه بالعويص.. والأوابد في الكلام: غرائبه وعجائبه.

الخاصة، ووقفًا عليها، ومضافًا إليها، وإن صحَّ أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع، والتعمُّل المستشنع^(١).

* * *

فصل

في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

قد بينّا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تُحَدِّثُوا على أن يأتوا بمثله، وقُرِّعُوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به، تبيّنوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز. وكذلك نقول: إن مَنْ كان من أهل اللسان العربي، إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحدّ الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرّف اللغة، وما يعدونه فصيحًا بليغًا بارعًا من غيره، فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينّا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو مَنْ ليس من أهل اللسان سواء^(٢).

(١) أي أننا لا ننكر وجود هذه المحسنات - في الجملة - في القرآن المجيد. لكن بلاغته وإعجازه وطريقته التي تفرّد بها بما كان بها في القمة من الحسن والبهجة، لا تتوقف على هذه المحسنات التي أشرنا إليها، بل إلى شيء آخر، وهو حسن استعمالها، وجمال استغلالها، وبراعة رصفها في الكلام الشريف دون تعمل أو تكلف.

(٢) أي أن صاحب اللسان العربي الذي لم يبلغ في الفصاحة مبلغها، ولم يعرف وجوه التصرف في اللغة، شأنه في معرفة إعجاز القرآن شأن الأعجمي أو الفارسي الذي لا يعرف العربية. فكلاهما يدركان إعجاز القرآن ليس بعلمهما، وإنما بمعرفتهما أن العرب عجزوا عن معارضته.

فأما من كان قد تنهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع انتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب. وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز^(١) من قيمة الثوب وجودته وردائه ما يخفى على غيره.

وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربما اختلفوا فيه؛ لأن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق مأوه وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه، ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى. كما يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان، وسبق إلى البيان. وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيرًا فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس^(٢) حين أنشده:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا

أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.

وروي أن جريرًا سئل عن أحسن الشعر فقال: قوله:

إن الشقي الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضله لصدق معناه.

ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والإفراط فيه، حتى ربما قالوا: أحسن

الشعر أكذبه، كقول النابغة:

(١) البزاز: تاجر الثياب. والبيز: نوع من الثياب.

(٢) عبد بني الحسحاس بن هند بن سفيان بن غضاب بن كعب بن سعد بن ثعلبة بن دودان

ابن أسد بن خزيمية. من فحول الشعراء، كان عبدًا رقيقًا، واسمه سحيم.

يقدُّ السلوقيُّ المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الحجاب^(١) وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد، وفي المائة والسلاسة.

* * *

ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة، وألطف تعمُّلاً وأن يتخيَّر الألفاظ الرشيقَةَ للمعاني البديعة، والقوافي الواقعة، كمذهب البحري، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب:

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الكلام اختياراً وتجنّب ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد^(٢)
ويرون أن مَنْ تعدَّى هذا كان سالكاً مسلکاً عاميًّا، ولم يروه شاعرًا ولا مصيبًا.

وفيما كتب الحسن بن عبد الله^(٣) أو أبو أحمد العسكري^(٤) قال:
أخبرني محمد بن يحيى، قال: أخبرني عبد الله بن الحسن قال: قال لي

(١) يقد: يشق ويقطع، السلوقي: درع تلبس في الحرب مشهورة بجودتها، الصفاح: الحجارة الصلدة العريضة، الحجاب: نوع من الذباب يضيء ليلاً. يصف الشاعر سيفاً أو ضارباً به بأنه الضربة تشق الدرع وما تحته ثم تنزل على الصخر فتخرج منه شرراً مضيئاً كضياء هذا الذباب ليلاً.

(٢) المذهب الذي عبر عنه البحري بهذه الأبيات لا يصدق عليه ما قال المؤلف الفاضل: «ما كان أكثر صنعة»، بل ما كان أيسر صنعة وألطف استعمالاً، وهو ما يعبر عنه بقولهم: السهل الممتنع.

(٣) أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين، تقدم التعريف به.

(٤) أبو أحمد العسكري، خال أبي هلال العسكري، صاحب كتاب «صناعة النظم والشر»، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين.

البحثري: دعاني علي بن الجهم^(١) فمضيت إليه، فأفضنا في أشعار المحدثين، إلى أن ذكرنا شعر أشجع، فقال لي: إنه يُخلي، وأعادها مرات، ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها.

فلما انصرفت فكرت في الكلمة، ونظرت في شعره فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة، ليس فيها بيت رائع، وإذا هو يريد هذا بعينه، أن يعمل الأبيات فلا يصيب فيها بيت نادر، كما أن الرامي إذا رمى برشفة فلم يصب بشيء قيل: قد أخلى، قال: وكان علي بن الجهم أحسن الناس علمًا بالشعر.

وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام، والذي يجمع الغريب والمعاني، مثل أبي عمرو بن العلاء^(٢)، وخلف الأحمر^(٣)، والأصمعي^(٤).
ومنهم من يختار الوحشي من الشعر، كما اختار المفضل^(٥) للمنصور^(٦) من المفضليات، وقيل إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن.

(١) علي بن الجهم: من الشعراء العباسيين المجيدين، كان رقيق الحواشي عذب الألفاظ، توفي سنة تسع وأربعين ومئتين.

(٢) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني، أحد القراء السبعة المشهورين، اختلف في اسمه على إحدى وعشرين قولاً، وسبب ذلك أنه لهيئته لم يكن يسأل عن اسمه، كان إمام البصرة في القراءات والنحو واللغة، قرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد، توفي - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سنة أربع، وقيل سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

(٣) خلف الأحمر البصري أبو محرز بن حيان، راوية ثقة علامة، قيل لم يكن أحد أعلم بالشعر من خلف والأصمعي، له مصنف في جبال العرب وما قيل فيها من الشعر، توفي في حدود الثمانين بعد المائة.

(٤) الأصمعي: عالم أدب نقادة، تقدم التعريف به.

(٥) المفضل: هو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي بن شيان بن سود بن غدره بن منبه ابن نكرة، فضله قصيدته التي يقال له: المنصفة، وأولها قوله:

ألم تر أن جبيرتنا استقلوا فَنَيْتًا وَنَيْتُهُمْ فَرِيق

وهو من شعراء البحرين المجيدين.

(٦) المنصور: الخليفة المعروف، وقيل إنه اختارها لابنه المهدي.

وذكر الحسن بن عبد الله أنه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال: حضرت مع البحري مجلس عبيد الله بن عبد الله طاهر^(١): وقد سُئِلَ البحري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد^(٢)، أيهما أشعر؟ فقال البحري: أبو نواس أشعر، فقال عبيد الله:

إن أبا العباس ثعلباً^(٣) لا يطابقك على قولك ويفضل مسلماً، فقال البحري: ليس هذا من علم ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلم ذلك مَنْ وقع في سلك^(٤) الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته.

فقال عبيد الله: زَرَيْتُ بك زنادي^(٥) يا أبا عبادة، وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال: جرير أشعرهما، فقيل بماذا؟ فقال: لأن جريراً يشتد إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق؛ لأنه يشتد أبداً، فقيل له: فإن يونس^(٦)، وأبا عبيدة^(٧) يفضلان الفرزدق على جرير، فقال: ليس

(١) عبيد الله بن عبد الله طاهر: أديب لغوي شاعر ناقد، توفي سنة ثلاثمائة هجرية.
(٢) مسلم بن الوليد الملقب: صريع الغواني، من أبناء الأنصار، وكان مداخاً مجيداً، ولقب صريع الغواني لقوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين الجبل

(٣) أبو العباس ثعلب: أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني، إمام الكوفيين في النحو واللغة، ولد سنة مئتين، ومات سنة إحدى وتسعين ومئتين، وذكره الداني في طبقات القراء، وله كتاب في القراءات جيد.

(٤) أي سلك طريق تأليفه ومعاناة نظمه.

(٥) عبارة إعجاب وثناء، تقول لمن أعجبتك وأعانتك: وَرَت بك زنادي والأصل في الزناد، أنهما عودان من شجر أخضر يحك أعلاهما بأسفلهما فتندح من ذلك النار، والأعلى هو: الزند، والأسفل: الزنده، وقد ضرب الله - تَعَالَى - بذلك مثلاً على قدرته فقال - سُبْحَانَهُ -: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أُنشِرَ مِنْهُ تُوفِقُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [يس: ٨٠].

(٦) يونس بن حبيب البصري أبو عبد الرحمن، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، بارع في النحو، كانت له حلقة بالبصرة يتابها أهل العلم وطلاب الأدب، توفي سنة ثنتين وثمانين ومئة.

(٧) أبو عبيدة: معمر بن المثني اللغوي البصري، مولى بني تميم رهط الصديق أبي بكر رضي الله عنه، =

هذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار امرأته فراح عليها بقولة جرير:

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار^(١)
وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق: ما لك لا تنسب كما ينسب جرير؟
فغاب حولاً ثم جاء فأنشد:

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك بنّي أن طلبوا دمي
والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب
الحماسة، وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكر للمستنكر الوحشي،
والمبتذل العامي، وأتى بالواسطة.

وهذه طريقة من ينصف في الاختيار، ولا يعدل به غرض يخص؛ لأن الذين
اختاروا الغريب إنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار
التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع
إليها في أنفسها، ويبين هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في
النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة
على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على
الأذن، ومستنكر المورد على النفس، حتى يتأني بفرابته في اللفظ عن الأفهام، أو
يتمتع بتعويض معناه عن الإبانة، ويجب أن يتكبد ما كان عليه اللفظ مبتذل
العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع، مجتلب التأسيس على غير أصل ممدد،

= أول من صنّف في غريب الحديث، توفي سنة تسع ومئتين.

(١) بيت على قدر من الضعف في التعبير عن الغرض الذي سبق من أجله، وأي نواح ذلك
الذي يستحي فيه أن يبكي شريكة حياته مجرد بكاء، وأي وفاء لزوجه وأم أولاده ذلك
الذي يمنعه الحياء من زيارته قبرها؟ ذلك رغم أن العرب لم يكن لديهم من العادات
التمكئة مثل تمكن عادة زيارة القبور حتى بعد سنين وهي أطلال، والبكاء عليها.

ولا طريق موطن.

وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع، ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي، لأنهم بدؤوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حرفاً وصلّة بين الحرفين، ليتمّ الابتداء والانتهاء على ذلك، والثنائي أقل، وكذلك الرباعي، والحماسي أقل، ولو كان كله ثنائياً لتكررت الحروف، ولو كان كله رباعياً أو خماسياً لكثرت الكلمات.

وكذلك بني أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا، فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف، وما هو أربعة أحرف سورتان، وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان، فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه: فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً وإنما جعله اسماً لشيء خاص، ومن جعل ذلك حرفاً قال: أراد أن يحقق الحروف مفردها ومنظومها^(١).

(١) في كلام المؤلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نظر، فلو أنه وقف بكلامه بعيداً عن الحروف في أوائل السور القرآنية الكريمة لربما كان كلامه مقبولاً، أما كلامه عن الحروف القرآنية في أوائل السور فكلام غير مسلم، بل مرفوض ولا يخضع أبداً للقاعدة التي أجراها على اللغة، ذلك أن الحرف له صوت، وله اسم، أما الصوت فهو ما يكون من مخرجه حين النطق به، ففي الألف نقول: «آ» فالصوت الذي يخرج من الحلق حين ننطق بحرف الألف هو صوت ذلك الحرف، أما اسمه فهو مكون من ثلاثة أحرف وهو: «ألف»، فالاسم في الأحرف غير أصواتها، ونحن في أوائل السور التي بدئت بأحرف لا ننطق أصوات الحروف، بل ننطق بأسمائها، ففي سورة البقرة لا نقرأ فاتحتها من الأحرف فنقول: «الْم» وإنما ننطق بأسماء الحروف فنقول «ألف لام ميم» فكل حرف منها ينطق اسمه من ثلاثة حروف، وهذه هي القراءة الشريفة، من ثم فإن القواعد التي أراد أن يخضع لها اللغة العربية أو يفسرها بها قد تصدق في غير ما ورد من أحرف في بدايات السور القرآنية، ومحاولة المؤلف الخروج من مأزق السور التي بدئت بحرف واحد متعللاً بأن البعض ذهب إلى أنه =

ولضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال، يتكرر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات مختلفة كثيرًا، كتحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك، ولذلك لا يمكن أن ينضم من معه الشعر في تلك الألسنة على الأعراب التي تُمكن في اللغة العربية، والعربية أشدها تمكّنًا، وأشرفها تصرفًا وأعدلها، ولذلك جعلت حلية نظم القرآن، وعلق بها الإعجاز، وصارت دلالة في النبوة.

وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس، التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها، وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها^(١)، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد، وأشدّ تحقيقًا في الإيضاح عن الطلب، وأعجب في وضعه، وأرشق في تصرفه، وأبرع في نظمه، كان أولى وأحق بأن يكون شريفًا، وقد شبهوا النطق بالخط، والخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة وصحة ولطف، حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال، وشبهوا الخط والنطق بالتصوير، وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صور لك الباكي المتضاحك، والباكي الحزين، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر، وكما أنه يحتاج إلى لطف يد في

= اسم لشيء خاص أو غير ذلك من التعلات، هذه المحاولة لا حاجة به إليها لأن الحرف الواحد في أوائل السور لا ينطق حرفًا بل ينطق ثلاثة أحرف، فيقال: صاد، قاف، نون، ونطقها هكذا يحقق له القاعدة التي زعمها من أن العربية تقوم في أصلها على الثلاثي، أما السور التي بدت بثلاثة أحرف، فهي تنطق في الحقيقة تسعة أحرف، كما بينا في أسماء أحرف أوائل سورة البقرة، ولعل الذي غرر بالرجل أنه خلط بين أصوات الحروف وأسمائها.

(١) عبر الشاعر عن هذا المعنى فقال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلًا

تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج إلى لطفٍ في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير^(١).

وفي جملة الكلام ما تقصر عبارته وتفضل معانيه^(٢)، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات^(٣)، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقاً للآخر، ثم ينقسم ما يقع وفقاً إلى ما يفيدها على تفصيل وإلى ما يفيدها بدونه، وكل واحد منهما قد ينقسم على أن يكون كل واحد منهما بديعاً شريفاً غريباً لطيفاً، وقد يكون كل واحد منهما مستجلباً متكلفاً، ومصنوعاً متعسفاً، وقد يكون واحد منهما حسناً رشيماً وبهيجاً نضيراً، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما، إنما يميز من يميز، ويعرف من يعرف، والحكم في ذلك صعب شديد، والفصل فيه شأؤ بعيد.

وقد قل من يميز أصناف الكلام، فقد حكي عن طبقة أبي عبيدة وخلف الأحمر^(٤) وغيرهم في زمانهم أنهم قالوا: ذهب من يعرف نقد الشعر. وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار، وما يجب أن يجمعوا عليه

(١) ذكر للتعبير عن المعاني القائمة بالنفس ثلاث وسائل على ثلاثة مستويات. المستوى الأول: الكلام، وهو سمعي، أو وسيلة إدراكه حاسة السمع، المستوى الثاني: الخط، وهو بصري، بمعنى أن وسيلة إدراكه حاسة البصر، وعلى هذين المستويين يكون المعنى واضحاً في الألفاظ مسموعة ومكتوبة، ويشترك في إدراك الألفاظ ومعانيها حاستا السمع والبصر جميعاً، وهذا أفضل من إدراكها بحاسة واحدة وأكد في الاحتفاظ بها، أما المستوى الثالث: فهو الرسم والتصوير، وهو وسيلة تعبير فيها من الإبهام والغموض واختلاف الأنفس في التلقي عنها وفهم مضمونها ما ليس يوجد في وسيلتي الكلام والخط، على أنه لا يخفى أن الخط نوع من الرسم والتصوير.

(٢) وهو الإيجاز، مثل قوله - تعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٣) وهو الإطناب، مثل قوله - تعالى -: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴿٧٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَاهْتَمُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ١٧، ١٨].

(٤) خلف الأحمر: رواية مشهور، ولفوي وأديب وناقد، تقدم التعريف به.

ويرجعوا عند التحقيق إليه، فكلام المقتدر نمط وكلام المتوسط باب؛ وكلام المطبوع له طريق، وكلام المتكلف له منهاج، والكلام المنصوع المطبوع له باب. ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشبهه عنده هذه الطرق، فهو يميّز قدر كل متكلم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه ويحلّه محلّه، ويعتقد فيه ما هو عليه، ويحكم فيه بما يستحق من الحكم، وإن كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعمّ إحسانه عرف. ألا ترى أن منهم مَنْ يجود في المدح دون الهجو، ومنهم مَنْ يجود في الهجو وحده، ومنهم من يجود في المدح والسخف، ومنهم مَنْ يجود في الأوصاف، والعالم لا يشدّ عنه مراتب هؤلاء، ولا يذهب عليه أقدارهم حتى أنه إذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة، فأنشد غيرها من شعره، لم يشك أن ذلك من نسجه، ولم يرتب في أنه من نظمه، كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشبهه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره، وكذلك أمر الخصب، فإن أشبهه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقتين، وتماثل الصورتين، كما قد يشبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنع، ويقصد فيه التسهّل، ويسلك الطريقة الكتابية، ويتوجه في تقريب الألفاظ، وترك تعويض المعاني، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه.

ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس، ولا تشج ابن الرومي، من تشج البحتري، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه، وبديع رونقه، وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه فيشبهه بشعر ابن الرومي، ويحركه ما لشعر أبي نواس من الخلاوة والرقّة والرشاقة والسلاسة، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم^(١)، وكذلك يميز بين شعر الأعشى في التصرف، وبين شعر امرئ القيس،

(١) مسلم بن الوليد: تقدم التعريف به.

وبين شعر النابغة وزهير، وبين شعر جرير والأخطل، والبعيث^(١) والفرزدق، وكلُّ له منهج معروف، وطريق مألوف.

ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته، وبين طبقة مَنْ بعده، حتى أنه لا يشتهه عليه ما بين رسائل ابن العميد، وبين^(٢) رسائل أهل عصره ومَنْ بعده، ممن برع في صنعة الرسائل، وتقدّم في شأوها، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين، حتى خلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجاً، فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع، وتارة طريقة الأصل، وبرع في ذلك باقتراده، وتقدم بحذقه، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره، وإن كان قد يشتهه البعض، ويدق القليل، وتغمض الأطراف، وتشذ النواحي.

وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتدانى رسائل كتّاب دهر، حتى تشتهه اشتباهاً شديداً، وتمائل تماثلاً قريباً، فيغمض الفصل. وقد يتشاكل الفرع والأصل، وذلك فيما يتعذر إدراك أمدّه، ولا يتصعب طلاب شأوه، ولا يتمنع بلوغ غايته، والوصول إلى نهايته؛ لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان، إذا تفاضلوا وتفاوتوا في مضمار، فصل قريب، وأمر يسير.

وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ وسارق المعاني، ولا من اخترعها ولا من يلم بها، ولا من يجاهر بالأخذ من يكاتم، ولا مَنْ يخترع الكلام اختراعاً ويتدهه ابتداهاً^(٣)، ممن يروي فيه، ويجيل الفكر في تنقيحه، ويصبر عليه

(١) البعيث: هو خدش بن بشر بن خالد بن يبيّة بن قرط بن سفيان بن مجاشع بن دارم، من فحول الشعراء، والسبب في تسميته البعيث أول بيت قاله من الشعر هو:

تَبَعْتُ مَنْيَ مَا تَبَعْتُ بَعْدَمَا أُمِرْتُ حَبَالَ كُلِّ مِرْتَهَا شَذَرَا

(٢) تكرار لفظة: «بين» غير فصيح، والصواب حذفها.

(٣) يأتي بها على البدئية دون تصنع وتكلف ومعاناة.

حتى يتخلَّصَ له ما يريد، وحتى يتكرر نظره فيه. قال أبو عبيدة: سمعت أبا عمرو^(١) يقول: زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر؛ لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان زهير يسمى كبير شعره الحوليات المنقحة، وقال عدي بن الرقاع^(٢):

قصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كهوب قناته حتى يقيم ثقافه منأدها^(٣)
وكقول سويد بن كراع^(٤):

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما أصادى بها سربًا من الوحش نُرْعَا
ومنهم من يعرف بالبديهة وحدة الخاطر، ونفاذ الطبع، وسرعة النظم، يرتجل القول ارتجالاً، ويطبعه عفواً صفواً، فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم، وجاهدوا خواطرهم، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي، واللفظ الملوكي، كما لا يخفى عليهم الكلام العامي، واللفظ السوقي.

ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلاً، ويعطونه - كيف تصرفه - ويعرفون مراتبه، فلا يخفى عليهم ما يختص به كلُّ فاضل تقدّم في وجه من وجوه النظم،

(١) أبو عمرو بن العلاء، أحد القراء السبعة، توفي سنة أربع وخمسين ومئة، تقدم التعريف به.
(٢) عدي بن الرقاع: من حيٍّ من قضاة يسمى عاملة، كان صافاً، وهو أحسن من وصف ظلية بقوله:

تزجى أغنقُ كان إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مداها

وكذا له الكثير الذي سبق إليه في هذا الميدان.

(٣) نظر المثقف: أي أنظر فيها نظر المثقف، والمثقف: صانع الرماح، يصلح من رماحه وينظر في الموج منها ويقومه، القناة: الرمح، والمناد: المعوج. يشبه نفسه في نظره في قصيدته ليصلح من أفاظها ومعانيها، بصانع الرماح، الذي يصنع الرمح ثم ينظر فيه ليصلح من عوجه.

(٤) سويد بن كراع بن كراع الفُكَلِيُّ، من بني عُكَلٍ، كان شاعراً محكماً، وكان رجل بني عكل المقدم فيهم، وصاحب الرأي والعقل والرأي النافذ، من فحول الشعراء.

من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره، ولا يساهمه سواه.
 ألا تراهم وصفوا زهيرًا بأنه: أمدحهم وأشدهم أثر شعر، قاله أبو عبيدة،
 ورؤي أن الفرزدق انتحل بيتًا من شعر جرير وقال: هذا يشبه شعري، فكان هؤلاء
 لا يخفى عليهم ما قد نسيناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن، وهذا كما يعلم
 البرازون هذا الديقاج عَمِلَ يَتَشْتَرُ^(١)، وهذا لم يعمل بتستر، وأن هذا من صنعة
 فلان دون فلان، ومن نَشَج فلان دون فلان، حتى لا يخفى عليه وإن كان قد
 يخفى على غيره.

ثم إنهم يعلمون أيضًا مَنْ له سَمَتْ بنفسه، ومذهب برأسه، وَمَنْ يقتدي في
 الألفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره، يجعل سواه قدوةً له، وَمَنْ يُلْمُ في الأحوال
 بمذهب غيره، ويأتي في الأحيان بمخترعه.

وهذه أمور ممهدة عند العلماء، وأسباب معروفة عند الأدباء، وكما يقولون:
 إن البحترى يغير على أبي تمام إغارة، ويأخذ منه صريحًا وإشارة، ويستأنس
 بالأخذ منه، بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره، ويألف أتباعه كما لا يألف
 أتباع سواه، وكما كان أبو تمام يُلْمُ بأبي نواس ومسلم، وكما يعلم أن بعض
 الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى، ويؤلف ما يقوله من فرق شتى، وما
 الذي نفع المتنبي^(٢) جحوده الأخذ، وإنكاره معرفته الطائين؟ وأهل الصنعة

(١) البرازون: تجار الثياب، والديقاج: نوع من النسيج سداه ولحمته من الحرير. وَتَشْتَرُ: بفتح
 التاء الأولى وضم الثانية وسطهما سين ساكنة - بلد بخوزستان كانت مشهورة بصنع
 الثياب في ذلك الزمان.

(٢) المتنبي: شاعر مجيد كثير التصرف في شعره وأغراضه، مجيد في كل منهما وإنما سمي
 بذلك لادعائه النبوة، وقيل غير ذلك، وهو القائل:

الليل والخيال والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
 اعترضه قطاع طرق وهو في سفر ليلاً فقتلوا جميع من معه، ولما ركب فرسه هاربًا منهم
 فأرًا بنفسه، ذكَّره واحد من قطاع الطرق بذلك البيت، فقال المتنبي: قتلني قتلك الله،
 ثم رجع وقاتل حتى قتل.

يدلّون على كل حرف أخذه منهما جهازًا، أو ألمّ بهما فيه سرايرًا، وأما ما لم يأخذ عن الغير، ولكن سلك النمط، وراعى النهج، فهم يعرفونه، ويقولون: هذا أشبه به من التمرة بالتمرّة، وأقرب إليه من الماء إلى الماء، وليس بينهما إلا كما بين الليلة والليلة، فإذا تباينا، وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه، وسلك في غير جانبه، قيل: بينهما ما بين السماء والأرض، وما بين النجم والنون، وما بين المشرق والمغرب.

وإنما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله، وغامضه وجليله، وقرينه وبعيده، ومعوجه ومستقيمه، فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول، وهو قريب متناول، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم، ويعد عما هو في عرفهم، ويفوت مواقع قُدْرِهِمْ؟ وإذا اشتبه ذلك، فإنما يُشْتَبِه على ناقص في الصنعة، أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه، ويدبرونه بينهم، ولا يتجاوزونه، فللكلام سبل مضبوطة، وطرق معروفة محصورة، وهذا كما يُشْتَبِه على مَنْ يدّعي الشعر من أهل زماننا، والعلم بهذا الشأن، فيدّعي أنه أشعر من البحتري، ويتوهّم أنه أدقّ مسلکًا من أبي نواس، وأحسن طريقًا من مسلم، وأنت تعلم أنهما متباعدان، وتحقق أنهما لا يجتمعان، ولعل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه، ويطالع ضياء نجمه، ويراعى حفاف جناحه، وهو راكد في موضعه، ولا يضربُ البحتريّ ظنه، ولا يُلْحِقُه بشأوه همه.

فإن اشتبه على متأدب، أو متشاعر، أو ناشئ، أو مرمد^(١)، فصاحة القرآن وموقع بلاغته، وعجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله.

(١) ضد الناشئ، من: أرمد: إذا قدم وبل، أي له خبرة قديمة في فن الشعر، أو هي من أرمد: التصاق بالرماد، كناية عن خلو باعه عن هذا الفن، وجهله به كلية.

وإنما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل، لتعرف أن ما ادعينا من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن، وعجيب نظمه وبديع تأليفه، أمر لا يجوز غيره، ولا يُختمَل سواه، ولا يشتهه على ذي بصيرة، ولا يَخِيل عند أخي معرفة، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين، ويميز بين مَنْ يجري على شاكلة طبعه، وغريزة نفسه، وبين مَنْ يشتغل بالتكلف والتصنع، وبين مَنْ يصير التكلف له كالمطبوع، وبين مَنْ كان مطبوعه كالتعمل المصنوع، هيئات هيئات، هذا الأمر - وإن دقَّ - فله قوم يقتلونه علمًا، وأهل يحيطون به فهما، ويعرفونه إليك إن شئت، ويصورونه لديك إن أردت، ويجعلونه على خواطرك إن أحببت، ويعرضونه لفطنتك إن حاولت، وقد قال القائل:

للحرب والضرب أقوامٌ لها خلقوا وللدواوين كُتَّابٌ وحسَّابٌ
ولكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس، وفي كل فرقة الجاهل والعالم
والمتوسط، ولكن قد قلَّ مَنْ يميز في هذا الفن خاصة، وذهب مَنْ يُحصَل في هذا
الشأن إلا قليلاً.

فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات، والتحقق بمجاري البلاغات، فإنما يكفيك التأمل، ويغنيك التصوُّر، وإن كنت في الصنعة مرمداً وفي المعرفة بها متوسطاً، فلا بدَّ لك من التقليد، ولا غنى بك عن التسليم: أن الناقص في هذه الصنعة كالحارج عنها، والشادي^(١) فيها كالبائن منها.

فإن أراد أن يقرب عليه أمراً، ويفسح له طريقاً ويفتح له باباً، ليعرف به إعجاز القرآن فإنما نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر، ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله،

(١) الشادي في صنعة العربية: من حصَّل منها طرفاً يسيراً وفاته منها الكثير، من قولهم: فلان شدا من الأدب والعلم: حصل منه طرفاً.

ويراعيه حق مراعاته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، والطالع عن الإلهية، الجامع بين الحكم والحكم، والأخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين، والمستوعب لجلية اليقين، والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها، بالألفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها، ونعمد إلى شيء من الشعر المجمع عليه فنئين وجه النقص فيه، وندل على انحطاط رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمل ذلك، وتأمل ما تذكره، من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته، وانكشف له واتضح، وثبت ما وصفناه لديه ووضح؛ وليعرف حدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة، ووجه التقدّم في الفصاحة^(١).

وذكر الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»^(٢) أن الفارسيّ سئل، فقيل له: ما

البلاغة؟

فقال: معرفة الفصل من الوصل، وسئل اليوناني عنها فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وسئل الرومي عنها فقال: حسن الاقتضاب عند

(١) ليس يخاف على من يقرأ الكتاب الذي بين أيدينا أن المؤلف - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عاشق للأدب شعراً ونثراً، وأن حديث المؤلف عن الشعر وفنونه، والأدب وصنوفه فاق كثيراً حديثه عن القرآن العظيم وإعجازه، وليس من شك في أن الحديث عن أوجه الإعجاز في القرآن المجيد ما كان بحاجة إلى كل هذه الإسهابات في الأبواب والفصول عن الشعر والشعراء وقصائدهم، وشروح قصائدهم المشهورة، ويبدو أن المؤلف - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - توسل بالحديث عن إعجاز القرآن ليشبع هواه من الحديث في الشعر والأدب، وقد يكون ابتداء برغبة صادقة لبيان إعجاز القرآن العظيم، ولكن هواه غلبه، فجنح به إلى الشعر والشعراء.

(٢) يبدو أن الأسئلة الآتية والإجابة عليها بما هو مثبت، إنما هو اجتهاد من الجاحظ وتعالّم منه بمعرفة خصائص كل لغة من اللغات التي ذكرها، والناظر في هذه الأسئلة وإجاباتها يجد أن البلاغة المشوّل عنها إنما تتحقق بجماع تلك الإجابات، وتوافر تلك الآراء، فليس بين الآراء التي وردت في الإجابات تعارض أو تنافر، بل بينهما تكامل وتعاون.

البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وسئل الهندي عنها فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال مرة: التماس حسن الموقع، والمعرفة بساحات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني، أو غمض، وشرد من اللفظ وتعذر، وزينته أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، وأن لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة، ويكون في قواه فصل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، ويهذبها بغاية التهذيب.

وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة: الحذق بطريقة الكلام وتجويده، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة.

وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها: فمنهم من عبّر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، وقد قيل: معناها الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس، على عبارات جلية ومعان نقية بهية.

والذي يصور عندك ما ضمناً تصويره، وحصل عندك معرفته إذا كنت في صنعة الأدب متوسطاً، وفي علم العربية متبيهاً، أن تنظر أولاً في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإن تبيّن لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر، وحقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل، فلا بدّ لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة، وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

خطبة للنبي ﷺ

روى طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول: «ألا أيها الناس: توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة

في السر والعلانية، ترزقوا وتؤجروا وتنصروا.
واعلموا أن الله ﷻ قد افترض عليكم الجمعة، في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهري هذا، إلى يوم القيامة، حياتي ومن بعد موتي.
فمَنْ تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا برك له في أمره، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا بر له، ألا ولا يؤم إعرابي مهاجرًا، ألا ولا يؤم فاجر مؤمنًا، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه»^(١).

خطبة له ﷺ

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجلٍ قد بقى لا يدري ما الله تعالى قاضٍ عليه فيه، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن ديناه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيار دار إلا الجنة أو النار».

خطبة له ﷺ

«إن الحمد لله أحمدوه وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

إن أحسن الحديث كتاب الله، وقد أفلح من زين الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه، أحبوا مَنْ أَحَبَّ الله، وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تُفَسِّحُوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، اتقوا الله حق

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، وأخرجه البيهقي: كتاب الجمعة، والحديث ضعيف لوجود عدد من الضعفاء في سلسلة رواته.

تقاته، وصدقوا صالح ما تعلمون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله»^(١).

خطبة له ﷺ في أيام التشريق

قال بعد حمد الله:

«أيها الناس، هل تدرّون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام. قال: ألا فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه. ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظالموا ثلاثاً، ألا إنه لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كلّ دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه، ألا وإن أول دم وُضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب^(٢)، ألا وإن كلّ ربا كان في الجاهلية موضوع، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس^(٣)؛ لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون.

ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٤)، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبد.

(١) راجع «كنز العمال» (١٢٤/١٦، ١٢٥).

(٢) ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب هو ابن عم رسول الله ﷺ، كان في بني ليث للرضاع على عادة العرب فقتلته هذيل، وظل دمه مطلوباً فيمن قتلوه حتى وضعه رسول الله ﷺ.

(٣) كان العباس عم رسول الله ﷺ له أموال يخرجها بالربا على عادة العرب ونظامهم وقتذاك، وشاء الله - تعالى - أن يكون ربا العباس بن عبد المطلب أول ربا يطبق فيه شرع الله حين حرم الربا، كما شاء - سبحانه - أن يكون أول دم يوضع هو دم ابن عم رسول الله ﷺ ربيعة بن الحارث.

(٤) سورة التوبة، بعض آية: ٣٦.

المصلون، ولكن في التحريش بينكم.

اتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان^(١) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم حقاً ولكم عليهن حق، ألا يوطنن فرشكم أحداً غيركم، فإن خفتن نشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما أخذتموهن بأمانة الله - تعالى -، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، ثم بسط يده فقال: ألا هل بلغت؟ ليلعب الشاهد الغائب، فربَّ مُبْلَغٍ أبلغ من سامع^(٢).

خطبته ﷺ يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مالٍ يُدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة، منها أربعون خلفه في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾... الآية^(٣).

يا معشر قريش - أو يا أهل مكة - ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء».

(١) عوان: جمع عان، والعاني هو الأسير، وكل من ذل واستكان فهو عان، يقول - تعالى -: ﴿وَعَنْتِ الرَّجُلُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] أي خضعت وذلت، والمقصود أن النساء مثل الأسرى عند الرجال.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

خطبته ﷺ بالخيف

روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخيف من منى فقال: «نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة، إن دعوتهم تكون من ورائه. ومن كان همه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»^(١).

خطبة له ﷺ

رواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، خطب بعد العصر فقال: «إلا إن الدنيا خضرة حلوة، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، ألا لا يمتنع رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه، قال: ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف، فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»^(٢).

كتاب النبي ﷺ إلى ملك فارس

«من محمد رسول الله إلى كسرى^(٣) عظيم فارس: السلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير.
 (٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عن الجميع - وأبو داود الطيالسي في مسنده، والبيهقي. وقوله: ﷺ: «فيما مضى» أي: بالنسبة إلى ما مضى.
 (٢) كسرى: لقب حكام فارس في ذلك الزمان، مثل: قيصر لقب حكام الرومان، ومثل فرعون: لقب حكام مصر وملوكها قديماً.

محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم».

كتاب له ﷺ إلى النجاشي^(١)

«من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة: سبلم أنت، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة، فحملت بعيسى، فحملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم من طين يده ونفخه، واني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، واني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من أتبع الهدى».

نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية

«هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله ﷺ سهيل بن عمرو^(٢): اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن

(١) النجاشي: أصحمة النجاشي، والنجاشي لقب ملوك الحبشة، وليس اسما لواحد منهم على التعيين، وأصحمة النجاشي رحب بالمسلمين المهاجرين إلى أرضه وأكرمهم، ورفض تسليمهم لشركي مكة، وقد أكرمه الله - تعالى - بالإسلام، وما توفي بالحبشة أخير الله - تعالى - رسوله ﷺ بوفاته فضلى عليه الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - صلاة الجنازة غائبا، ولا يعتبر النجاشي صحابيا خلافاً للبعض؛ لأنه لم ير الرسول ﷺ، رحم الله النجاشي رحمة واسعة.

(٢) سهيل بن عمرو هذا من أشرف مكة وعقلائهم وسيد من ساداتهم، كان من أسرى المشركين يوم بدر، وتأخر إسلامه حتى فتح مكة، وقد ذكروا فيه؛ أنه لم يكن أحد من كبراء مكة أسلم يوم الفتح أكثر صلاة وصياما ولا صدقة، ولا أقبل على ما يعينه من أمر الآخرة من سهيل بن عمرو، وقد تغير لونه من كثرة البكاء، وقد كان يختلف إلى معاذ ابن جبل يقرئه القرآن وهو يبكي، قيل: توفي في طاعون عمواس، وقيل: استشهد يوم الصفة، - رضي الله عنه وأرضاه.

بعض، على أنه مَنْ أتى رسول الله ﷺ بغير إذن وليه ردّه عليهم، وَمَنْ جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يرُدّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه، وَمَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عامًا قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك وأقمت بها ثلاثاً، وأن معك سلاح الراكب، والسيوف في الركب، فلا تدخلها بغير هذا»^(١).

* * *

الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول ﷺ

ولا أطول عليك، وأقتصر على ما ألقىته إليك، فإن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط، وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشبهه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسحناه لك من كلام رسول الله ﷺ في خطبه ورسائله، وما عساک تسمعه من كلامه، ويتساقط^(٢) إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً، وأمدًا مديدًا، وميدانًا واسعًا، ومكانًا شاسعًا. فإن قلت لعله أن يكون تعلم للقرآن وتصنع لنظمه، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه، فثبت في نفسك، وارجع إلى عقلك، واجمع لبك، وتيقن أن الخطب يحتشد لها في المواقف العظام، والمحافل الكبار، والمواسم الضخام، ولا يتجوز فيها، ولا يستهان بها، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه^(٣)، ويشمر لها عن جد واجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال، وكيف

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) لفظة خارجة، ما كان ينبغي أن تذكر بجانب ما يأتيها من معين النبوة السامي لفظة: «يتساقط».

(٣) جراميز الشيء: أطرافه ومجتمع بدنه، وجراميز الإنسان: أطرافه وبدنه، ويقال: جمع

جراميزه: إذا قبض استعدادًا للثوب، والمعنى: مما يجمع له الكاتب همته وبلاغته.

يتعرض للتفريط؟

فستعلم لا محالة أن نَظْمَ القرآن من الأمر الإلهي، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي.

فإذا أردت زيادة في التَّبَيُّن، وتقدُّمًا في التعرف، وإشرافًا على الجلية، وفوزًا بمحكم القضية، فتأمل - هداك الله - ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي ﷺ واحد، وسبكها سبك غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشعارين، وذلك أمر له مقدار معروف، وحد - ينتهي إليه - مضبوط، فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج، ولجمته طريق، وتبيئت ما يمكن فيه من التفاوت، نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى، وتأملته مرة ثانية، فتراعي بعد موقعه، وعالي محله وموضعه، وحكمت بواجب من اليقين، وثلج الصدر بأصل الدين^(١).

خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد، فإن وليت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نَزَلَ القرآن وَسَنَّ النبي ﷺ، وَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا، واعلموا أن أكيس الكيس التَّقَى، وأن أحقق الحمق الفجور، وأن أفواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى

(١) لم يكن ضروريًا - لكي يبين إعجاز القرآن وتفردّه - أن ينزل بكلام الرسول ﷺ ويهبط به إلى مستوى عامة الصحابة، فلا يكون بين كلامه ﷺ وكلامهم - رضوان الله عليهم -، سوى ما بين كلامهم بعضهم مع بعض من الفروق العادية، أو «من التفاوت بين كلام الفصيحين، وشعر الشعارين»، فإنه من المقرر أن رسولنا ﷺ أعطي جوامع الكلم، وقد جعل رسول الله ﷺ هذا من خصائصه الشريفة، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، وكان كلامه ﷺ في الرتبة العليا التي لا تطاول، ليس إعجازًا كإعجاز القرآن، ولكنه أيضًا ليس كلامًا مثل كلام أحدهم، وإلا فكيف جعل الرسول ﷺ هذا من خصائصه؟

أخذ منه الحق.

أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت أعينوني، وإن زغت فقوموني». ^(١)

عهد لأبي بكر الصديق إلى عمر رضي الله عنهما

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر: إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذاك ظنّي به ورأيي فيه، وإن جارّ وبدّل فلا علم لي بالغيب والخير أردت لكم، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم، (وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون)» ^(١).

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال: «دخلت على أبي بكر الصديق ﷺ في علته التي مات فيها، فقلت: أراك بارئاً يا خليفة رسول الله. فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدّ عليّ من وجعي، إني وليتُ أموركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه ^(٢) أن يكون له ^(٣) الأمر من دونه، والله لتتخذن نضائد الدياج ^(٤)، وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي ^(٥) كما يألم أحدكم النوم على حسك

(١) سورة الشعراء، بعض الآية الخاتمة للسورة.

(٢) كناية عن الغيظ والضيق وعدم الرضا.

(٣) الضمير في: «له» لعمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) نضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة، والأصل في: منضود، ونضيد: المرتب المنسق المضموم بعضه إلى بعض، ومنه قوله الله - تعالى -: ﴿وَطَلَّحَ مَنْضُورٍ﴾ [الواقعة: ٢٩]، والدياج: الحرير.

(٥) الصوف الأذربي: نسبة إلى أذربيجان، وهو صوف ناعم جيد الصنعة، وأذربيجان من الجمهوريات الإسلامية التي فك الله - تعالى - أسرها من روسيا الشيوعية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي الملحد.

السعدان^(١)، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب رقبتة في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، يا هادي الطريق جزت، إنما هو والله الفجر أو البحر^(٢).

فقلت: خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، فإن هذا يهيضك^(٣) إلى ما بك، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً، لا تأس على شيء فاتك من أمر الدنيا، ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً.

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا، منها قصة السقيفة.

نسخة كتاب

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب رضي الله

عنهم:

«سلام عليك فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك، فإننا نحدرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجب فيه القلوب^(٤)، وإننا كنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع في آخر زمانها أن يكون إخوان

(١) الحسك: الشوك، والسعدان: نبات كثير الشوك تأكله الإبل كأجود ما يكون الأكل لها.

(٢) الفجر: الوقت المعروف، والمقصود ضياؤه، والبحر: الشر، والمقصود: المهالك التي يقع فيها المسافر الذي لا يتحرى الضوء ليصير طريقه، بل يدلج في ظلام الليل فيقع في المهالك.

(٣) يهيضك: أي يزيدك مرضاً، أو يعيدك أشد مرضاً بعد أن خفت ما بك، والأصل في «هاض» أنها في كسر العظم بعد ما اندمل أو قارب الالتئام، ومن ذلك قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: «والله لو نزل بالجالال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها».

(٤) تعنو الوجوه: تخضع وتذل، ومنه: العاني، وهو الدليل الأسير، تجب القلوب: تخفق بشدة وتضطرب من شدة الهول.

العلائية أعداء السريرة، وأنا نعوذ بالله أن تُنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك، والسلام.

● فكتب إليهما:

من عمر بن الخطاب، إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل:
سلام عليكم، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما أنني وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع، وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك؟ وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله.

وكتبتما تحذراني ما حذرت به الأمم قبلنا، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بأجال الناس يقربان كل بعيد، ويبلغان كل جديد، ويأتیان بكل موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة أو النار، ثم توفي كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب.

وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلائية أعداء السريرة، ولستم بذلك وليس هذا ذلك الزمان، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرغبة، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم، ورغبة بعض الناس إصلاح دنياهم.

وكتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وإنما كتبتما نصيحة لي، وقد صدقتكما، فتعهداني منكما بكتاب، ولا غنى بي عنكما^(١).

(١) كنز العمال، (١٦٠/١٦ - ١٦١).

عهد من عهد عمر رضي الله عنه

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس^(١).

سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

أس^(٢) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك^(٣) ولا يياس ضعيف من عدلك.

البيئة على من ادعى، واليمين على من أنكر^(٤)، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً، ولا يمنحك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك، وهديت لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك^(٥)، مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك^(٦)، واعمد إلى أشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بيئةً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيئاً^(٧) في ولاء أو نسب.

(١) هو: أبو موسى الأشعري، صاحب رسول الله ﷺ و. رضي الله عنه، توفي بمكة المكرمة سنة اثنتين وأربعين.

(٢) أي اجعلهم سواء، أو اجعلهم سواسية.

(٣) الحيف: الميل عن الحق، وهو جور وظلم.

(٤) من أمهات القواعد الأصولية في القضاء الإسلامي.

(٥) أي تردد في صدرك بين الحق والباطل، افهمه جيداً وتحقق منه.

(٦) مبدأ القياس في الشريعة الإسلامية.

(٧) أي متهمًا في الولاء أو النسب، أي مشكوكًا فيهما بالنسبة إليه.

فإن الله ولي منكم السرائر، ودرأ^(١) بالإيمان والبيئات، وإياك والغلق^(٢) والضجر والتأذي بالخصوم، والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعظّم الله به الأجر، ويُحسن به الذخر، فمن صحت نيّته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه، شأنه الله^(٣)، فما ظنك بثواب الله ﷻ في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام^(٤).

ولعمر ﷺ خطب مشهورة مذكورة في التاريخ لم نقلها اختصارًا.

ومن كلام عثمان بن عفان ﷺ

خطبة له ﷺ

قال: «إن لكل شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، في هذا الدين عثابون ظنّانون، يظهرون لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طغام^(٥) مثل النعام، يتبعون أول ناعق، أحب مواردهم إليهم النازح^(٦)، لقد أقرتم لابن الخطاب بأكثر مما نعمتم عليّ، ولكنه وقمكم وقمعكم^(٧)، وزجركم زجر النعام

(١) أي دفع، والدراء: الدفع، ومنه قول رسول الله ﷺ: «اذرءوا الحدود بالشبهات»؛ أي: ادفعوها، والمراد هنا أن الله - تَعَالَى - دفع الباطل وبين الحق بالبينّة أو اليمين، كما سبق وبين بقوله: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

(٢) الغلق: الضجر والملل وضيق الصدر.

(٣) التخلق: تكلف الإنسان ما ليس من خلقه، والمراد: من تكلف للناس ما ليس من خلقه نفاقًا وخداعًا كشف الله ستره، وأطلعهم على خبيثته نفسه.

(٤) انظر العهد وبيانه في كتاب: الكامل للمبرد ٩/١٠.

(٥) الطغام: هم الغرغاء والدُهماء وعوام الناس ممن لا رأي لهم ولا حكمة.

(٦) النازح: البئر التي قل ماؤها ولم يبق فيها شيء ينزح، يصفهم بأنهم من جهلهم لا يردون من موارد الماء إلا الآبار التي ذهب معيتها.

(٧) وقم: أذل وأخضع، وقمع: ضرب على يده وألزمه الطاعة، والأصل في قمع: ضربه بالمقمعة، وهي عصا من حديد أو خشب يضرب بها، ومنه قول الله - تَعَالَى - في شأن الكافرين: ﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

الْحَزْمَةَ، وَاللَّهُ إِنِّي لِأَقْرَبَ نَاصِرًا، وَأَعَزَّ نَفَرًا، وَأَقَمْتُ^(١) إِنْ قُلْتُ هَلُمَّ أَنْ تُجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عَمْرٍ، هَلْ تَفْقَدُونَ مِنْ حَقُوقِكُمْ شَيْئًا؟ فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الْحَقِّ مَا أَشَاءُ؛ إِذَا فِئِمَ كُنْتُ إِمَامًا؟».

كتابه إلى علي حين حصر - رضي الله عنهما:

أما بعد، فقد بلغ السيل الزبي^(٢)، وجاوز الحزام الطيبين^(٣)، وطمع في مَنْ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَأَقْبِلْ إِلَيَّ، عَلِيٌّ كُنْتُ أُمَ لِي.

فَإِنْ كُنْتَ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلَّا فَأَدْرِكُنِي وَلَا أَمْرُقُ
وَمِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَبِضَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ارْتَجَتْ الْمَدِينَةَ بِالْبُكَاءِ كَيَوْمِ قَبْضِ النَّبِيِّ ﷺ، وَجَاءَ عَلِيٌّ بِأَكْبَا مَسْتَرْجِعًا^(٤) وَهُوَ يَقُولُ: الْيَوْمَ انْقَطَعَتْ خِلَافَةُ النَّبِوةِ، حَتَّى وَقَفَ عَلِيٌّ بَابَ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ:

«رَحِمَكَ اللَّهُ أبا بَكْرٍ، كُنْتُ إِفْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْسَهُ وَثِقْتَهُ وَمَوْضِعَ سِرِّهِ، كُنْتُ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا، وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَانًا، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا، وَأَخَوْفَهُمْ لِلَّهِ، وَأَعْظَمَهُمْ غِنَاءً فِي دِينِ اللَّهِ^(٥)، وَأَحْوَطَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَيْمَنَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ^(٦)، وَأَمَنَهُمْ عَلَى أَصْحَابِهِ، أَحْسَنَهُمْ صَحْبَةً، وَأَكْثَرَهُمْ مَنَاقِبَ، وَأَفْضَلَهُمْ سَوَابِقَ، وَأَرْفَعَهُمْ دَرَجَةً، وَأَقْرَبَهُمْ وَسِيلَةً، وَأَقْرَبَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَنًّا وَهَدِيًّا

(١) أقمن: أجدد وأحق.

(٢) الزبي: جمع زبية، وهي الراية لا يصل إليها الماء، وحفيرة يشتوى فيها ويختبز، وحفرة في مكان عال تغط فوهتها فإذا وطئها الأسد وقع فيها.

(٣) الطيبين: منى طيبى، والطيبى: حلمة الضرع التي يرضع منها ولد البقرة وما شابه، وقد تطلق على الضرع نفسه، وجمعها أطباء. وهي لغير الإنسان من الحيوان، وذلك مثل - أيضًا - في بلوغ الشدة متهاها.

(٤) يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٥) أي أعظمهم عطاء ومنفعة للإسلام والمسلمين.

(٦) أيهم: من اليمن، كنت أكثرهم يمنا وسفدًا للمسلمين.

ورحمة وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقاً؛ فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [سورة الزمر، بعض آية: ٢٢]، واسيته حين بخلوا، وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا، وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة والوقار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وهن أصحابك، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تبععوا^(١)، مضيت بنوره إذ وقفوا، واتبعتك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمر، وأشرفهم عملاً.

كنت للدين يعسوباً^(٢)، أولاً حين نفر عنه الناس، وآخرياً حين أقبلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً، إذ صاروا عليك عيالاً فحملت أثقال ما ضعفوا، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، وشمرت إذ خنعوا^(٣)، وعلوت إذ هلعوا^(٤)، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا؛ وكنت كما قال رسول الله ﷺ أَمَرْتُ النَّاسَ عَلَيْهِ فِي صَحْبَتِكَ وَذَاتِ يَدِكَ، وكنت كما قال ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم،

(١) تبععوا: أي تابعوا كلامهم في عجلة دون أن ينطقوا بما يفهم، مأخوذة من بيع: حكاية صوت الماء حين يخرج من فوهة الإناء متتابعاً.

(٢) يعسوب: في الأصل ملكة النحل، وهي أنثى؛ لكن العرب كانوا يظنونها ذكراً لضخامتها وأهميتها بالنسبة لجماعتها، ولذلك ضربوا بها المثل لكبير القوم، يقال: يعسوب قومه: رئيسهم وكبيرهم ومقدمهم.

(٣) خنعوا: ذلوا وخضعوا.

(٤) هلعوا: وصل بهم الخوف إلى حد اليأس والجدع.

لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هواده، الضعيف الدليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم، وأمرك حزم، ورأيك علم وعزم، فأبلغت وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالجد فوزًا مبيّنًا، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام، فإن لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاء، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدًا، فألحقك الله نبيه، ولا حرمنّا أجرك، ولا أضلنا بعدك.

وسكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا، حتى علت أصواتهم^(١).

خطبة أخرى لعلي عليه السلام

أما بعد: فإنّ الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع، المضمار اليوم وغداً السباق^(٢)، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله فقد فاز، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر علمه وضره وأمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة، ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره به الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال^(٣)، ألا وإنكم قد أمرتم

(١) أخرجه البيهقي في التفسير، والبغدادى في فضائل أبي بكر وعمر، وغيرهم، راجع كنز العمال: ٥٤٥/١٢.

(٢) المضمار: المكان الذي يكون فيه سباق الخيل، وقد أخذت الكلمة من: صَمَرَ الخيل: إذا علفها وسقاها ثم أركضها في المضمار حتى تخف وتدق وتضحى صالحة للسباق، ومدة تضمير الخيل كانت لدى العرب أربعين يوماً، ثم يبدأ سباقها.

(٣) يجر به الضلال: أي ينحرف به إلى طريق المهالك.

بالظعن، ودلتم على الزاد، ألا وإن أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل^(١).

وخطب فقال بعد حمد الله: أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو، ولا أهمل سدّي فيلغو^(٢)، ما دنياه التي تحسنت إليه، بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر إليه، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالأخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته^(٣).

وكتب علي عليه السلام إلى عبد الله بن عباس - رحمه الله - وهو بالبصرة: أما بعد، فإن المرء يسر بدرك ما لم يكن ليحزمه، ويسوءه فؤت ما لم يكن ليُدركه، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق، وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك، وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعاً، وما نلتها فلا تنعم به فرحاً، وليكن همك لما بعد الموت.

كلام لابن عباس عليه السلام

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس: ما منع أمير المؤمنين^(٤) أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين^(٥): قال: منعه والله من ذلك حاجز القدر، وقصر المدة،

(١) رواه الدينوري وغيره، راجع كنز العمال: ٢٠٣/١٦.

(٢) فيلغو: أي يتكلم بالكلام لا فائدة فيه ولا نفع، وقد يكون من ورائه الضرر، من ذلك وصف الله - تبارك وتعالى - المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

(٣) سهمته: أي عمله للآخرة بجل وسأم وثناقل، إذ من معاني سهم: الحمل على الأمر فيه كراهة ونفور، شبه عليه السلام إقبالهم على الدنيا بأنه: بأعلى همهم، وعملهم للآخرة بأنه بتكاسل وضيق وعدم إقبال، والخطبة ذكرها السبكي في «الدين الخالص».

(٤) يقصد علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٥) يشير إلى قضية التحكيم المشهورة في واقعة «صفين» بين علي بن أبي طالب، ومعاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عن الجميع -، حين أوشكت المعركة أن تنتهي لصالح أمير المؤمنين علي، فرفع جند معاوية المصاحف طالبين الاحتكام إلى كتاب الله - تعالى - ووقف =

ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه^(١)، ناقصاً لما أبرم، ومبرماً لما نقض، أسف^(٢) إذا طار، وأطير إذا أسف، ولكن مضى قدر وبقي أسف، ومع يومنا غد، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى.

خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه

أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، خير المثل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، خير الأمور أوسطها، وشر الأمور محدثاتها، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، خير الغنى غنى النفس، وخير ما ألقى في القلب اليقين، الخمر جماع الإثم، النساء حباله الشيطان، الشباب شعبة من الجنون، حُبُّ الكفاية مفتاح المعجزة، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا **دَبَّرًا**^(٣)، ولا يذكر الله إلا **هَجْرًا**^(٤)، أعظم الخطايا اللسان الكذوب، سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكُل لحمه معصية^(٥).

من يتأل على الله يكذبه، ومن يَغْفِر يُغْفَر له، مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عُفي عنه، الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، الأمور بعواقبها، ملاك العمل خواتيمه، أشرف الموت الشهادة، من يعرف البلاء يصبر

= القتال، وأدرك علي أنها خدعة فحاول الاستمرار في القتال ولكن غالب جنده توقفوا ووضعوا السلاح، وفي الاحتكام اختار علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري نائباً عنه، واختار معاوية عمرو بن العاص نائباً عنه، وانتهت القضية بما هو معلوم مشتهر.

- (١) أي لَوَقَفْتُ ضد هوى نفسه.
- (٢) أي أهبط إذا علا، وأعلو إذا هبط.
- (٣) **دَبَّرًا**: أي يأتيها متخلفاً عن إقامة الصلاة، أو لا يهتم لها، من قولهم: جعل الأمر **دَبَّرَ** أذنه، أي أهمله ولم يهتم له.
- (٤) لا يذكر الله إلا **هَجْرًا**: أي على تباطؤ وتباعد.
- (٥) المقصود اغتيابه والنم عليه، من قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

عليه، ومَنْ لا يعرف البلاء ينكره^(١).

خطبة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

قال الراوي: لما حضرته الوفاة قال لمولى له: مَنْ بالباب؟ فقال: نفر من قريش يتباشرون بموتك! فقال: ويحك وَلِمَ؟ ثم أذن للناس، فحمد الله فأوجز، ثم قال: أيها الناس، إننا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعَدُّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم فيه عتوّاً، لا نتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوَّف من قارعة حتى تحل بنا، فالتاس على أربعة أصناف: منهم مَنْ لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال جده، ونضيض وفره^(٢)، ومنهم المسلط سيفه^(٣)، والمجلب برجله^(٤)، والمعلن بشره، وقد أشراط نفسه^(٥)، وأوبق دينه^(٦) لحطام ينتهزه، أو مقنب^(٧) يقوده، أو منبر يفرعه، وبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمناً، ومماً عند الله عوضاً، ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية، ومنهم مَنْ أقعدهم عن الملك ضئولة في نفسه، وانقطاع سببه، فقصر به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى، وبقي رجال أغضَّ

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١٨٨/٤)، والدين الخالص للسبكي: (٢٥٤/٤).

(٢) مهانة نفسه: ذلته وضعف عزيمته، كلال جده: ضعف مجهوده، نضيض وفره: قلة ماله.
(٣) الشاهر سيفه.

(٤) المجلب برجله: الجامع رجاله، يقال: أجلب قومه: إذا جمعهم للعدو، ومنه قوله - تَعَالَى -
مَخَاطِبًا الشَّيْطَانَ - لَعْنَةُ اللَّهِ -: ﴿وَأَحْلَبَ عَلَيْهِمْ حَيْكَةَ وَرَجُلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

(٥) أشراط نفسه: أعداها وهياها.

(٦) ضيع دينه.

(٧) المقنب: جماعة الفرسان.

أبصارهم ذكُرُ المرجع، وأراق دموعهم خوفُ المحشر، فهم بين شديد ناد^(١)، وخائف متقمع^(٢) وساكت مكعوم^(٣)، وداع مخلص، وموجع ثكلان، قد أحملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم دامية، وقلوبهم قريحة، وقد وعظوا حتى ملوا، وفهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حتاة القرظ^(٤) وقراضة الجلم^(٥)، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم مَنْ بعدكم، فإرضوها ذميمة، فإنها قد رفضت مَنْ كان أشغف بها منكم^(٦).

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

أيها الناس: إنكم ميتون ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين، لقد قصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، يا أيها الناس إنه مَنْ يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأتيه، فأجملوا في الطلب^(٧).

(١) نأذ: نافر، ومن قولهم: نذَّ البعير، نَفَر، ونأذ فلان فلاناً، خالفه أي أنهم شددوا على أنفسهم في الطاعة، وخالفوا الأصناف التي ذكرها قبل ذلك.

(٢) متقمع: واقف عند حدود الطاعة، فلا يدلج في المعصية، من قمع نفسه: منعها عن المعاصي.

(٣) مكعوم: أي مغلق الفم، من قولهم: كعم فلاناً الخوف: عقل لسانه عن الكلام، فهو مكعوم وكعيم، والأصل في الكعامة أنها رباط يشد على فم البعير أثناء هياجه حتى لا يعض أو يأكل.

(٤) الحتاة: ما يسقط من الشيء الجاف إذا فركته وحثته، والقرظ: نوع من أنواع السنط يخرج قروناً، يدبغ به.

(٥) الجلم: المقص، وقراضته: ما يتساقط منه حين يقرض به شيء ما، مثل قولهم: قلامة الظفر.

(٦) العقد الفريد (٤/١٥٢).

(٧) مناقب عمر بن عبد العزيز: ابن الجوزي ص ٢٣٤.

خطبة للحجاج بن يوسف

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق، وبني اللكيعة^(١)، وعبيد العصا وأولاد الإماء، والفقع بالقرقر^(٢)، إني سمعت تكبيراً لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان، وإنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براءة الهمداني:

وكنت إذا قود غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميماً تجتنبك المظالم^(٣)
أما والله لا تفرع عصا عصا إلا جعلتها كأس الدابر.

خطبة لقس بن ساعدة الأيادي^(٤)

أخبرني محمد بن علي الأنصاري بن محمد بن عامر، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري، قال: حدثنا الأنصاري علي بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الغسيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن محمد بن حسان، عن محمد بن حجاج اللخمي، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال:

لما وَفَدَ وَفَدَ عبد القيس على رسول الله ﷺ قال: أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير له أحمر فقال: أيها الناس اجتمعوا، وإذا اجتمعتم فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا

(١) اللُكَع، واللُكَعَة، واللُكَيْعَة: اللقيمة الحمقاء، أي: يا بني اللثام.

(٢) أي: الضرب بالعصا على فقرات الظهر، والفقع: الفرقة حين الضرب، والقرقر الظهر.

(٣) قائل البيتين عمر بن بَرّاق الهمداني، أغار عليه البعض فاستاق إبله وخيله، فاستشار عمر

امرأة كانت محل ثقته، فخوفته أعداءه ونصحته بالعودة، لكنه جمع شجاعته وأغار على

عدوه فاسترجع أمواله وأخذ الكثير من عدوه، وفي ذلك قال تلك الأبيات.

(٤) انظر أسد الغابة: ٢٠٤/٤.

وعيتم فقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت.

أما بعد، فإن في السماء لخبيراً، وإن في الأرض لخبيراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور^(١)، وبحار لا تغور، أقسم بالله قسماً حقاً لا كاذباً فيه ولا آثماً، لئن كان في الأرض رضا ليكون سخط، إن لله - تعالى - ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا.
ثم قال رسول الله ﷺ: «أيكم يروي شعره؟ فأنشدوه:

في الزاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ	ولا من الباقيين غابر ^(٢)
أيقنت أنني لا محالة	حيث صار القوم صائر

أخبرني الحسن بن عبد الله بن سعيد، حدثنا علي بن الحسين بن إسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد الله بن الضحاك، عن هشام، عن أبيه أن وفدًا من إياد قدموا على رسول الله ﷺ، فسألهم عن حال قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس:

ياناعي الموت والأموات في جدث عليهم من بقايا بزهم خرق^(٣)

(١) تمور: تتحرك في مساراتها بزوغًا وأفولًا، والأصل في مار: تحرك في سرعة وتدافع، ومار البحر: اضطرب وماج.

(٢) الغابر: الباقي، ومنه قوله الله - تعالى - عن إهلاك قوم لوط عليهم السلام: ﴿فَأَبَیْتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]، أي من الباقيين بالبيت فأهلك مع قومه الذين هلكوا.

(٣) الجدث: القبر، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ =

دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق
 منهم عرأة ومنهم في ثيابهم منها الحديد ومنها الأورق الخلق^(١)
 مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في أثر آيات، وأموات بعد
 أموات، ضوء وظلام، وليال وأيام، وغني وفقير، وشقي وسعيد، ومحسن
 ومسيء، أين الأرباب الفعلية؟ ليصلحن كل عامل عمله، كلا بل هو الله واحد،
 ليس بمولود ولا واد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غداً، أما بعد؛ يا معشر أياد، أين
 ثمود وعاد؟ وأين الأبناء والأجداد، أين المحسن الذي لم يشكر؟ أين الظالم الذي
 لم ينقم؟ كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا، ولكن ذهب يوم ليعودن يوم.
 قال: وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن أياد بن نزار، أول من آمن
 بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكل على عصا، وأول من تكلم بأما بعد^(٢).

خطبة لأبي طالب

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا
 وبيتًا محجوبًا، وجعلنا الحكام على الناس، وإن محمد بن عبد الله ابن أخي لا
 يوازن به فتى من قريش إلا رجح به بركةً وفضلًا ومجدًا ونبلاً، وإن كان في المال
 مقلًا، فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة،
 ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعلي^(٣).

= يَسْلُوكَ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١].

(١) الأورق: ما كان لونه لون الرماد، والخلق: البالي.

(٢) أوردتها الطبراني في الكبير: ٨٨/١٢، والبيهقي في الدلائل: ١٠٨/٢، وابن الجوزي في
 الموضوعات: ٢١٣/١، والمشهور أن أول من قال: «أما بعد» هو داود الطائي، قيل: وهذه
 هي فصل الخطاب في قوله - تعالى - عن داود: ﴿وَأَيُّنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي: ٧٣/١.

الفرق الظاهر بين كلام البشر وكلام الله

قد نسخت لك جملاً من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن، فتأمل ذلك، وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن، والفصاحة والفطن، والألفاظ المثورة والمخاطبات الدائرة بينهم، والأمثال المنقولة عنهم، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لبّ وجمع عقل، في ذلك، فسيق لك الفصل بين كلام الناس وبين^(١) كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة.

فإن خيل إليك أو شبه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن؛ لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدق مسلماً من جميع أصناف المحاورات، ولذلك قالوا له ﷺ: هو شاعر أو ساحر، وسؤل إليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب وأرق وأبرع، وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين.

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحدق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام يقول: إن الكلام المنشور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في الشعر؛ لأن الشعر يضيق نطاق الكلام، ويمنع القول من انتهائه، ويصدّه عن تصرفه على سنته^(٢)، وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك، وذكر أنه لا يتمتع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة^(٣).

(١) إعادة كلمة «بين» هنا غير فصيح.

(٢) وذلك لما في الشعر من قيود النظم وضوابطه.

(٣) يضاف إلى ذلك ما في الشعر ونظمه من تأثير واضح وجمال أخاذ.

ويشهد عندي للقول الأخير^(١) إن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في مشور قولهم ما نجد في منظومه، وإن كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حدّ لم يعهد في سالف أيام العرب، ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وإن ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذب في بابه، ووفى له جميع أسبابه، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب، وقد حكى عن المتنبّي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل عليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكي على فصاحته كان مفحماً، فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده، عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أبلغ.

وإذا كانت الفصاحة في قول الشعر، أو لم تكن، وبيننا أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم، ويتقدم في بلاغته على كل قول، بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح، وقفت على جلية هذا الشأن. فانظر فيما نعرضه عليك، وتصور بفهمك ما نصوّره، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمل ما نرتبه، ينكشف لك الحق.

إذا أردنا تحقيق ما ضمنناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة، متفق على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها ومعانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحدق في البراعة، فنقفك^(٢) على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف

(١) الذي يرى أن في الشعر من الفصاحة والبلاغة ما ليس يوجد في النثر.

(٢) وقف من الأفعال الثلاثية لازمة ومتعدية، فاللازم تقول: «وقف زيد»، ومن المتعدية تقول:

«وقف زيد محمداً»، ويقال يقال: أوقف، ومن ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ

﴿١٤﴾ [الصافات: ٢٤]، ولم يقل النظم الشريف: وأوقفوهم من الرباعي؛ لأن اللغة العربية ليس

فيها: «أوقف» وقد بينا ذلك فضل بيان لوقوع الخطأ فيه من الكثيرين، كذلك مما يماثل: وقف،

الفاعل: «رجع» فهو ثلاثي لازماً ومتعدياً، ومن المتعدية قوله - تَعَالَى -: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى

رَبِّكَ فَارْجِعْ﴾ [التوبة: ٨٣] وأمثال ذلك كثير، لكننا أشرنا إلى هذين لكثرة وقوع الخطأ فيهما.

فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ونبين ترتيبها وتنزيلها.

فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته فقد أضل، وعلى ركاكته قد أزل؛ وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم، وآتاه من علم.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: «والليل الأضحى»^(١)، والذئب الأدلم^(٢)، والجذع الأزلم^(٣)، ما انتهكت أسيد من محرم، وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه، وقال أيضاً: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس»، وكان يقول: «والشتاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق^(٤)، فما لكم لا تجتمعون»، وكان يقول: «ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قریشاً قوم يعتدون»، وكان يقول: «والمبيديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمناً، لقد

(١) الليل الأضحى: شديد الظلمة.

(٢) دلم الشيء: أسود لونه في ملوسة، وأدلم: تهدت شفتاه، وكلاهما يصلح وصفاً للذئب.

(٣) الجذع الأزلم: جذع النخلة المقطوع.

(٤) المذق: اللبن المخلوط بماء.

فضلتم على أهل الوبير^(١)، وما سبقكم أهل المدر^(٢)، ريفكم فامنعوه والمعتر فأووه، والباغي فناوئوه».

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان - وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها - فقالت له: ما أوحى إليك؟ فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحلبى، أخرج منها نسمة تسعي، من بين صفاق وحشا»^(٣)، وقالت: فما بعد ذلك؟ قال: أوحى إلي: «إن الله خلق النساء أفواجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعسًا إيلجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالا»^(٤)، نتاجًا»، فقالت: أشهد أنك نبي.

ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيب، وزُوي أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقوامًا قدموا عليه من بني حنيفة، عن هذه الألفاظ، فحكوا بعض ما نقلناه، فقال أبو بكر: سبحان الله، ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل^(٥): فأين كان يذهب بكم؟ ومعنى قوله: «لم يخرج عن آل» أي ربوية، ومن كان له عقل لم يشتهه عليه سخف الكلام.

فنرجع الآن إلى ما ضمنناه، من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها، وتقدم أصحابها في صناعتهم، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب، وتباعد مواقع البلاغة، ونستدل على مواضع البراعة.

(١) الوبير: صوف الإبل والأرانب وأمثالهما، وأهل الوبير هم سكان البادية؛ لأنهم يتخذون بيوتهم من الوبير.

(٢) المدر: الطين اللزج المتماسك، وأهل المدر: هم سكان القرى الذين يتخذون بيوتًا مبنية من المدر.

(٣) الصفاق: غشاء يفصل ما بين الجلد والأمعاء، يسميه الأطباء: البريتون، والحشا: ما دون الحجاب الحاجز مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكروش.

(٤) السخال: جمع سخلة، والسخلة: هي الذكر والأنثى من ولد الضأن ساعة يولد.

(٥) آل من معانيه: الربوية، وكذلك: السراب، وآل الأمير رعيته: عني بهم وقام على رعيتهم، وكذلك: أهل كل إنسان وأقرباؤه هم آله.

امرؤ القيس ومعلقته^(١)

وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتبع فيها، من ذكر الديار، والوقوف عليها، إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والشبيه الذي أحدثه، والتلميح الذي يوجد في شعره، والتصريف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه، من صناعة وطبع، وسلاسة وعلو، ومثانة ورقة، وأسباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح.

وقد ترى الأدباء أولًا يوازنون بشعره فلانًا وفلانًا، ويضمون أشعارهم إلى شعره، حتى وربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة، وأمور بدیعة، وربما فضلوه على، أو سواوا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمهم عليه، وبرزوه بين أيديهم.

ولما اختاروا قصيدته في السبعيات، أضافوا إليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها، ثم تراهم يقولون: لفلان لامية مثلها، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته، وتساويه في طريقته، وربما غيرت في وجهه في أشياء كثيرة، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة، وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره، كان أمرًا محصورًا، وشيئًا

(١) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن يعرب بن نور بن مُرْزَع بن معاوية بن كندة، والمرار: نبت حامض إذا أكلته الإبل قلصت عن مشاferها فظهرت أسنانها، وقد سمي حجر «آكل المرار» لما روي أن ابنته سبها أحد الملوك، فقالت له: كأنك بأبي قد جاءك كأنه جمل قد أكل المرار، تعني أنه من شدة الغضب قد بدت أنيابه فسمي حجرًا آكل المرار، وامرؤ القيس من فحول الشعراء من الطبقة الأولى لفحول الجاهلية، وقصته معروفة مشتهرة، وهو القائل لما بلغه مقتل والده، وكان على مجلس شراب: ضيعني صغيرًا، وحملني دمه كبيرًا، اليوم خمر وغدًا أمر، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، وقد كان بعض المؤرخين للشعر يقول: بدأ الشعر بملك، وختم بملك، يقصد امرأ القيس، وأبا فراس الحمداني.

معروفاً، أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، وتنظر إلى المحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن، منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته، ومثانته إلى عدوبته، والإصابة في معناه إلى تحسين بهجته، حتى إن منهم من إن قصر عنه في بعض تقدم عليه في بعض؛ لأن الجنس الذي يرمون إليه، والغرض الذي يتواردون عليه، مما للآدمي فيه مجال، وللشعري فيها مثال، فكل يضرب فيه بسهم، ويفوز فيه بقدر، ثم قد تفاوتت السهام تفاوتاً، وتباين تبايناً، وقد تتقارب تقارباً، على حسب مشاركتهم في الصنائع، ومساهماتهم في الحرف، ونظم القرآن جنس مميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظر متخلص.

فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس، في أجود أشعاره، وما نبين لك من عواره على التفصيل.
وذلك قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضّح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال^(١)
الذين يتعصبون له، أو يدعون محاسن الشعر، يقولون: هذا من البديع؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجع واسترجع، كله في بيت، ونحو ذلك. وإنما بيّنا هذا، لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت.

(١) مطلع معلقة امرئ القيس المعروفة، واللوى: كتيب الرمل يطول ويلتوي، وسقطه: طرفه، والسقط: الطرف من كل شيء وجانبه، والدخول، وحومل، وتوضّح، والمقراة: أسماء لأربعة أماكن تحيط بسقط اللوى، وهو المكان الذي فيه مبكى الشاعر، لم يعف رسمها: لم يذهب أثرها، جنوب وشمال: رياح تأتي من هاتين الجهتين، من الشمال والجنوب، ونسجها لآثار الحبيب، أن تأتي ريح من إحدى الجهتين فتستر الأثر بالرمل، فتأتي الرياح الأخرى فتزيح التراب عنه.

تأمل أرشدك الله، وانظر هداك الله: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرًا، ولا تقدّم به صانعًا، وفي لفظه ومعناه خلل:
فأول ذلك: أنه استوقف من يبكي لذكرى الحبيب، وذكره لا تقتضي بكاء الخلي، وإنما يصح طلب الإسعاد^(١) في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه، ويرق لصديقه في شدة بُرّخائه، فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه، فأمر محال، فإن كان المطلوب وقوفه وبكائه أيضًا عاشقًا، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر؛ لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه، والتواجد معه فيه^(٢).

ثم في البيتين ما لا يفيد، من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن، من: «الدخول»، «وتوضح»، «المقراة»، و«وسقط اللوى»، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا، وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربًا من العي^(٣).
 ثم إن قوله: «لم يعف رسمها»، ذكر الأصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا.

وهذا بأن يكون من مساويه أولى؛ لأنه إن كان صادق الود فلا يزيد عفاء الرسوم إلا جدّة عهد، وشدة وجد، وإنما قرع له الأصمعي إلى إفادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه، فيقال: أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه؟ وأي معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر، ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل.

ثم في هذه الكلمة خلل آخر؛ لأنه عقب البيت بأن قال: «فهل عند رسم

(١) الإسعاد: مشاركة الباكي ومعاونته بالتباكي معه، يقال: أسعدت النائحة الثكلى: أعانتها بالبكاء والنواح.

(٢) نقد دقيق وموفق، وإن كان فيه شيء من التجاهل.

(٣) وهذه الفقرة من النقد موفقة، سوى أنه يقال في الرد عليها: إن ذكر هذه المواضع والإطالة فيها نوع من التلذذ بذكر آثار الحبيب، وذلك غرض صحيح.

دارس من معول؟»، فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير:
 قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم^(١)
 وقال غيره: أراد بالبيت الأول أنه لم ينظمس أثره كله، وبالتالي أنه ذهب
 بعضه، حتى لا يتناقض الكلامان؛ وليس في هذا انتصار؛ لأن معنى «عفا ودرس»
 واحد، فإذا قال: لم يعف، ثم قال: قد عفا فهو تناقض لا محالة، واعتذار أبي
 عبيدة أقرب لو صحَّ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير،
 فهو إلى الخلل أقرب.

وقوله: «لما نسجتها»، كان ينبغي أن يقول «لما نسجها»، ولكنه تعسف،
 فجعل: «ما» في تأويل التأنيث لأنها في معنى الريح، والأولى التذكير دون
 والتأنيث، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف.

وقوله: «لم يعف رسمها»، كان الأولى أن يقول: «لم يعف رسمه»؛ لأنه
 ذكر المنزل، فإن كان ردَّ ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها
 فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه «بعفائه»، أو بأنه لم يعف
 دون ما جاوره.

وإن أراد بالمنزل الدار حتى أتت فذلك أيضًا خلل، ولو سلم من هذا كله ومما
 نكره ذكره كراهية التطويل، لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين،
 بل يزيد عليهما ويفضلهما.

ثم قال:

(١) يعفها: يذهب أثرها، والديم: جمع ديمة، وهي السحابة الممطرة، والأرواح جمع ربح،
 والبيت ناقض فيه الشاعر نفسه، حيث قرر أولاً: أن الديار لم يعفها القدم، ثم نقض ذلك
 بقوله: نعم، أي قد عفاها القدم، فأبي القولين نصدق؟ والمؤلف يسوق هذا البيت مثلاً
 للخطأ الذي وقع فيه امرؤ القيس حيث أخبر أن رسمها باق بقوله: لم يعف رسمها، ثم
 ناقض نفسه في بيت آخر: فهل عند رسم دارس من معول.

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
 وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول^(١)؟
 وليس في البيتين أيضاً معنى بديع، ولا لفظ حسن كالأولين، والبيت الأول
 منهما متعلق بقوله: «قفا نيك»، فكأنه قال: قفا وقوف صحبي بها على مطيهم،
 أو قفا حال وقوف صحبي، وقوله: «بها» متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ،
 ففي ذلك تكلف، وخروج عن اعتدال الكلام، والبيت الثاني مختل من جهة أنه
 قد جعل الدمع في اعتقاده شافياً كافياً، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة
 أخرى، وتجمل ومعول عند الرسوم؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل
 على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة
 أخرى^(٢)؟

وقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
 إذا قامتا تضرع المسك منهما نسيم الصبا يأتي برياً القرنفل^(٣)
 أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلك بهجة، فقد
 يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى، وأما البيت الثاني فوجه

(١) المطي: جمع مطية، وهي الراحلة، والتجمل: الاعتصام بالصبر، والعبرة: الدمعة، ومهراقة: منصبة، مثل: حراقة، يقال: أريق وأهريق، والرسم الدارس: الأثر المحو، والمعول: المستند والمتكل.

(٢) ما أدق هذه الفقرة من النقد وأجملها.

(٣) والدأب: الشأن والعادة، وفي التنزيل الشريف قوله - تَعَالَى -: ﴿يَسْتَلْ دَأْبُ قَوْمٍ نُوْحٍ وَعَادٍ وَشَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣١]، والدأب: الجد في العمل، قال - تَعَالَى -: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، أي بجهد واستمرار، مأسل: اسم مكان. ضاع المسك يضرع. من باب قال -: انتشرت رائحته، نسيم الصبا: أي مثل نسيم الصبا، ريا القرنفل: رائحة القرنفل.

التكلف فيه قوله: «إذا قامت تَضَوَّع المسك منهما»، ولو أراد أن وجود أفاد أن بهما طيبًا على كل حال، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير، ثم فيه خلل آخر؛ لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك، شبه ذلك بنسيم القرنفل، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص، وقوله: «نسيم الصبا» في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله.
وقوله:

ففاضت دموع العين مني صباية على النحر حتى بل دمعي محملي
ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل^(١)
قوله: «ففاضت دموع العين»، ثم استعانه بقوله: «مني» استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مريح ولا بديع، وقوله: «على النحر» حشو آخر؛ لأن قوله: «بل دمعي محملي»، يعني عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله: «حتى بل دمعي محملي»، إعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى بلت محملي، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله، ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير، ولو كان أبداع لكان يقول: حتى بل دمعي مغانيهم وعراضهم، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية، إذ الدمع يبعد أن يبل المحمل، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل، وإن بله فلقلته وأنه لا يقطر، وأنت تجد في شعر الخبزُرُزِّي^(٢) ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه.

والبيت الثاني: خال من المحاسن والبديع، خلوه من المعنى، وليس له لفظ

(١) الصباية: الشوق، المحمل: حمالة سيفه، دارة جلجل: مكان به ماء.

(٢) الخبزُرُزِّي: أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر البصري، المعروف بالخبزُرُزِّي، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يخبز الخبز بدكان له بمبرد البصرة، وكان ينشد أشعاره في الغزل ارتجالًا، والناس يزدحمون عليه لسماع أشعاره، والمؤلف يضرب به المثل للشعراء الضعاف.

يروق ولا معنى يروع، ومن طبائع السوقة، فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب.
وقال:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبًا من رحلها المتحمل
فَظَلَّ العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المقتل^(١)
تقديره: اذكر يوم عقرت مطيتي، أو يرده على قوله: «يوم بدارة جلجل»،
وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته، قال بعض الأدباء: قوله: «يا
عجبا» يعجبهم من سفهه في شبابه من نحره ناقته لهم، وإنما أراد أن لا يكون
الكلام من هذا المصراع منقطعًا عن الأول، وأراد أن يكون الكلام ملائمًا له.
وهذا الذي ذكره بعيد، وهو منقطع عن الأول، وظاهره أنه يتعجب من تحمل
العذارى رحله، وليس في هذا تعجب كبير، ولا في نحر الناقة لهن تعجب، وإن
كان يعني به إنهن حملهن رحله، وأن بعضهن حملته، فعبّر عن نفسه برحله،
فهذا قليلًا يشبه أن يكون عجبًا، لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه، ولو سلم
البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب، ولا معنى بديع، أكثر من سفاهته مع
قلة معناه، وتقارب أمره، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا، وإلى هذا
الموضع لم يمر له بيت رائع، وكلام رائع.

وأما البيت الثاني: فيعدونه حسنًا، ويعدون التشبيه مليحًا واقعًا، وفيه شيء،
وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم، فلا يعلم أنه وصف شحمها، وذكر تشبيه
أحدهما بشيء واقع، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسله، وهذا نقص
في الصنعة، وعجز عن إعطاء الكلام حقه، وفيه شيء آخر من جهة المعنى، وهو
أنه وصف طعامه الذي أطعم من أضاف بالجودة، وهذا قد يعاب، وقد يقال: إن

(١) عقر: ذبح، مطيته: ناقته، رحلها المتحمل: رحلها الذي حملته العذارى بعد أن ذبحها
لهن، العذارى: جمع عذراء، وهي البكر من النساء، الهداب، ما تدلى من الشيء،
الدمقس: الحرير.

العرب تفتخر بذلك ولا يروونه عيباً، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة، ويجري على ألسنتهم، فليس بشيء قد سبق إليه، وإنما زاد «المفتل» للقافية، وهذا مفيد، ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة، ولم يعد أهل الصنعة ذلك من البديع، ورأوه قريباً. وفيه شيء آخر، وهو أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم وإن سوغ التبجح بما أطعم للأضياف، إلا أن يورد الكلام مورد المجون، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة.
وقوله:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل^(١)
مذلل، وأنت تعلم أنه على ما يعني به، فهو غير موافق للأبيات المتقدمة، لما فيها من التناقض الذي بيننا، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فرع إليه؛ لأنه رأى اللفظ مستكرهاً على المعنى الأول؛ لأن القائل إذا قال: «ضرب فلان بسهمه في الهدف» بمعنى أصابه، كان كلاماً ساقطاً مردولاً، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجروح، فلما بكتنا وذرفنا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ، ولكنه إذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل؛ لأنه إن كان محتاجاً - على ما وصف به نفسه من الصباية - فقلبه كله لها، فكيف يكون بكاؤها هو

(١) الخدر: كل ما توارى فيه الإنسان من بيت ونحوه، ويطلق بخاصة على ستر يمد للمرأة في ناحية من البيت، وأراد الشاعر بالخدر هنا: الهودج، وهو ستر يضرب للمرأة فوق ظهر البعير تجلس فيه حال السفر، مرجلي: جاعلاً إباي راجلة، أي ستسقط الهودج وأضطر أن أمشي على رجلي، الغبيط: القتب الذي يوضع فوق ظهر البعير ويوضع فوقه الهودج.

الذي يخلص قلبه لها^(١)؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى، وهو منقطع عنه؛ لأنه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها، ولا سبب يوجب ذلك، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال، ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتاً وكان بديعاً ولا عيب فيه فليس بعجيب؛ لأنه لا يُدعى على مثله أن كلامه كله متناقض، ونظمه كله متباين، وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحدًا من المتأخرين، فضلاً عن المتقدمين، وإنما قدم في شعره لأبيات قد برع فيها، وبأن حذقه بها، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً في الجودة، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ.

وقلنا: إنه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعريية كالمهل^(٢) مستنكرة، وبين كلام سليم متوسط، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى، وبين حكمة حسنة، وبين سخف مستشنع، ولهذا قال الله - عز اسمه -: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: بعض آية ٨٢].

فأما قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

(١) تكلف شديد من المؤلف، وتحميل لمعان ربما لم ترد على ذهن الشاعر، والمعروف أن الشاعر إنما يجب أن ينظر إليه كشاعر، وليس كفيلسوف عارف بالتأويلات ووجوهها، وبخاصة إذا كان الشاعر مطبوعاً، فهو يقول الشعر على البديهة دون تعمل أو تكلف أو دراسة لكل تلك الوجوه المتكلفة التي أثارها ويثيرها المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ..

(٢) المهل: كل سائل ثقيل، مثل: المعادن المذابة كالذهب والحديد، والقطران الرقيق، ودُزْدِي الزيت، وهو ما ترسب من الزيت بعد غليه، والقيح والصدید، كل ذلك يسمى مهلاً، ولعل المؤلف يقصد ما يستقدر من المهل كرقيق القطران، أو القيح، وفي التنزيل الشريف: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] أي تكون سائلة متحركة فقدت ثباتها وهيئتها.

تجاوزت أحراسًا إليها ومعشرًا عليَّ حراسًا لو يُسرُّون مقتلي^(١)
فقد قالوا: عني بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقتها، وهذه كلمة
 حسنة ولكن لم يسبق إليها، بل هي دائرة في أفواه العرب، وتشبيه سائر، ويعني
 بقوله: «غير معجل» أنه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً، بل يتكرر له الاستمتاع
 بها، وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش، فلا يستعجل إذا دخلها خوف
 حصانتها ومنعتها، وليس في البيت كبير فائدة؛ لأنه الذي حكى في سائر أبياته،
 فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها، فتكريره في هذا البيت مثل ذلك
 قليل المعنى، إلا الزيادة التي ذكر من منعتها، وهو - مع ذلك - بيت سليم اللفظ في
 المصراع الأول دون الثاني.

والبيت الثاني ضعيف، وقوله: «لو يسرون مقتلي» أراد أن يقول لو أسروا، فإذا
 نقله إلى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة، والاختلال على نظمه يبيِّن، حتى
 أن المتحرز يحترز من مثله.
 وقوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(٢)
قد أنكر عليه قوم قوله: «إذا ما الثريا في السماء تعرضت» وقالوا: الثريا لا
 تتعرض، حتى قال بعضهم: سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء، لأنها تعرض، والعرب

(١) بيضة خدر: شبه المرأة بالبيضة المكنونة في خدرها، وذلك في صفائها ورقتها وكونها
 محفوظة عن أيدي العابثين، لا يرام خباؤها: لا سبيل لأحد إلى الوصول إلى خدرها،
 والخباء: البيت من الوبر أو الصوف، الأحراس: جمع حارس، والمعشر: القوم الذين تعيش
 معهم، حراسًا: جمع حريص على قتله في سرية.

(٢) الثريا: مجموعة من النجوم على هيئة نور، تعرضت: أبدت عرضها وهو جانبها، الوشاح:
 خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان معطوف أحدهما على الآخر، أو نسيج عريض يرصع
 بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها، المفصل: الذي رصع بأكثر من نوع من
 الجواهر والخرز وغيره، وروي: المفضل مكان المفصل.

تفعل ذلك، كما قال زهير: «كأحمر عاد» وإنما هو أحمر ثمود.
وقال بعضهم في تصحيح قوله: «تعرض»: أول ما تطلع، كما أن الوشاح إذا
طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته، وهذا كقول الشاعر:

تعرضت لي بمجان خِلْ تعرض المهرة في الطَّوْل^(١)
يقول: تريك عرضها وهي في السن.

وقال أبو عمرو: يعني إذا أخذت الثريا في وسط السماء، كما يأخذ الوشاح
وسط المرأة، والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به، وأنه من
محاسن هذه القصيدة، ولولا أبيات عدة فيه لقايله ما شئت من شعر غيره، ولكن
لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولي على الأمد.

أنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم مثل
ما في وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن، فإما أن يكون قد عارضه أو زاد
عليه.

فمن ذلك قول ذي الرمة^(٢):

وردت اعتسافاً والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق^(٣)
ومن ذلك قول ابن المعتز^(٤):

(١) المجان: المجون والمداعبة، خِلْ: خليل. الطول: الحبل يربط في وتد أو نحوه يطول للدابة
لترعى به، المهرة: الأنتى مما ينتج من الخيل.

(٢) ذو الرمة: غيلان بن عقبة بن بهيش... عدي بن عبد مناة بن أد، من فحول الشعراء
الإسلاميين... ت ١١٧.

(٣) وردت اعتسافاً: جئت على غير هدى، من اعتسف الطريق: سار فيه على غير هدى، قمة
الرأس: قمة جبل معهود، ابن الماء: الطير من الطيور التي تحلق حول الماء، محلق: صاعد
في طيرانه.

(٤) ابن المعتز: شاعر عباسي مجيد، تولى الخلافة يوماً وليلة وقتل.

وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أذحي يُلحَنُ بَدْفَدٍ^(١)
وكقوله:

كأن الثريا في أواخر ليلها تَفْشُحُ نَوْرٍ أَوْ لَجَامٍ مُفَضَّضٍ^(٢)
وقوله أيضًا:

فناولينها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامي به الساقى^(٣)
وقول الأشهب بن رميلة^(٤):

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربي قرطٌ مسلسل^(٥)
ولابن المعتز:

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرطٍ أرادته وقد سقطا
أخذه من ابن الرومي^(٦) في قوله:

طيب ريقه إذا ذقت فاه والثريا بجانب الغرب قرطُ
ولابن المعتز:

قد سقاني المدام والصبح بالليل مؤنزر

(١) الأذحي: النعام، ويقال للنعام، بنت أذحية، فدغد: فدغد الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها، وتجمع على: فدافد.

(٢) النور: الزهر، اللجام: الحديدية في فم الفرس، ثم أطلق عليها مع ما يلحق بها من سيور وأشياء أخرى، مفضض: مطلي بالفضة.

(٣) الجنى: ما يجنى من ثمر وزهر وغيره، الندامي: جلساء الشراب.

(٤) الأشهب بن رميلة: هو الأشهب بن ثور بن حارثة، ورميلة أمه، وينسب إليها فيقال: ابن رميلة، كان شاعرًا مجيدًا، وكان يهاجي الفرزدق وغيره، وضعه صاحب طبقات الفحول، في الطبقة الرابعة من فحول الشعراء في الإسلام.

(٥) لساريها: أي الماشي ليلاً ينظر إليها، القرط: ما يعلق في الأذن.

(٦) ابن الرومي: شاعر عباسي مجيد رثاء، سبق التعريف به.

والثريا كنور غصن على الأرض قد نثر^(١)
وقوله:

وتروم الثريا
كانكباب طمر كاد يلقي لجاما^(٢)
ولاين الطثرية^(٣):

إذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهى من سلكه فتبددا^(٤)
ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا، لطال عليك
الكتاب، وخرج عن الغرض، وإنما نريد أن نبين لك أن الإبداع في نحو هذا أمر
قريب، وليس فيه شيء غريب، وفي جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن
أو يساويه أو يقاربه.

فقد علمت أن ما حلق فيه، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه، أمر مشترك،
وشريعة مورودة، وباب واسع، وطريق مسلوك، وإذا كان هذا بيت القصيدة،
ودرة القلادة، وواسطة العقد، وهذا محله، فكيف بما تعدها؟ ثم فيه ضرب من
التكلف؛ لأنه قال: «إذا ما الثريا في السماء تعرضت أثناء الوشاح»، فقوله:
«تعرضت» من الكلام الذي يُستغنى عنه؛ لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في
وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب، فالتحويل بالتعرض، والتطويل بهذه
الألفاظ، لا معنى له، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل، فلا معنى لقوله:

(١) المدام: الخمر، مؤنثر: ملفت، النور: الزهر.

(٢) الطمر: الفرس الجواد الشديد العدو.

(٣) ابن الطثرية: هو يزيد بن الطثرية، والطثرية أمه، وهو شاعر أموي غزل، قتلته بنو حنيفة يوم
الفليح، فرثته أخته بشعر جيد.

(٤) الجمان: اللؤلؤ، أو حب يصنع من الفضة على هيئة اللؤلؤ، أو نسيج من جلد مطرز بخرز
ملون تتوشح به المرأة، ومراد الشاعر المعنى الأول أو الثاني.

«تعرض أثناء الوشاح» وإنما أراد أن يقول: تعرض قطعة من أثناء الوشاح، فلم يستقم له اللفظ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع. وقوله:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت: يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العماية تنجلي^(١)
انظر إلى البيت الأول والأبيات التي قبله، كيف خلط في النظم، وفرط في التأليف، فذكر التمتع بها، وذكر الوقت والحال والحراس، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها، ووصل إليها، من نزعها ثيابها إلا ثوبًا واحدًا، والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخرًا، وقوله: «لدى الستر» حشو، وليس بحسن ولا بديع، وليس في البيت حسن، ولا شيء يفضل لأجله.

وأما البيت الثاني ففيه تعليق واختلال، ذكر الأصمعي أن معنى قوله: «مالك حيلة»: أي ليست لك جهة تجيء فيها والناس حوالِي. والكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه إليه فيه ضرب من التفاوت. وقوله:

فقمتم بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرجل
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت ذي حفاف عقنقل^(٢)

(١) نضت: خلعت، لبسة المتفضل: الثوب الواحد المبتدل بلبسه الرجل أو المرأة في البيت للخدمة أو النوم، يمين الله: أقسم بالله، العماية: الضلال والفساد، ويروى: الغواية، وكلاهما بمعنى واحد.

(٢) المِرْط: كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به، وتلتفع به المرأة، والملاءة نوع من المروط، مرجل: منقوش بنقوش تشبه صور الرجال، ويروى: مرَّجَل، بالخاء بدل الجيم، وهو المنقوش بما يشبه رحال الإبل. أجزنا ساحة الحي: قطعناه وانصرفنا عنها، =

البيت الأول من مساعدتها إياه، حتى قامت معه ليخلوا، وإنما كانت تجر على الأثر أذبال مرط مرجل، والمرجل: ضرب من البرود يقال لوشي الترجيل، وفيه تكلف؛ لأنه قال: «وراءنا على إثرنا»، ولو قال: «على إثرنا»، كان كافياً، والذيل إنما يجر وراء الماشي، فلا فائدة لذكره «وراءنا»، وتقدير القول فقمت أمشي بها، وهذا أيضاً ضرب من التكلف، وقوله: «أذبال مرط» كان من سبيله أن يقول: ذيل مرط، على أنه لو سلم من ذلك كان قريئاً ليس مما يفوت بمثله غيره، ولا يتقدم به سواه، وقول ابن المعتز^(١) أحسن منه:

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلاً، وأسحب أذيالي على الأثر
وأما البيت الثاني فقوله: «أجزنا» بمعنى قطعنا، والخبث: بطن من الأرض، والحقف: رمل معوج، والعنقل: المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض، وهذا بيت متفاوت مع الأبيات المتقدمة؛ لأن فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة، وهذا قد أغرب فيه، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة، وليس في ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه فائدة.

والكلام الغريب، واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام، فقد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله **عَجَّلَكَ** في وصف يوم القيامة: ﴿بَوْمًا عَبُوسًا قَطَرِيرًا﴾^(٢)، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب

= بطن خبت: مكان منخفض وطيء حوله نواح مرتفعة، الحقاف: كئبان الرمل المعوجة المتوية، والعنقل: الوادي العظيم المتسع، والكيب العظيم المتداخل من الرمل.

(١) ابن المعتز، شاعر عباسي، تولى الخلافة قليلاً ثم قتل.

(٢) سورة الإنسان، بعض آية: ١٠، والقمطير: الشديد العبوس، ولسنا مع المؤلف الفاضل في أن اللفظة هنا مباينة لنسج الكلام، بل هي من لحمته وسداه، إذ الكلام عن يوم القيامة وأهواله وعبوسه وشدته، فناسب أن تختار له من الكلمات ما يتناسب مع تصوير ما فيه من رعب وهول، وإذا كانت كل لفظة من ألفاظ القرآن المجيد لا تناسب وضعها من الكلام تماماً بحيث لا تنوب عنها غيرها، فأين نجد ذلك؟

ما تحمد في موضعها، وروى أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته:
 بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما جدوا لبين تجزع^(١)؟
 كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم قلبا يقر ولا شراباً ينقع^(٢)؟
 قال: وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله:
 وتقول بوزع: قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع^(٣)
 فقال: أفسدت شعرك بهذا الاسم.
 وأما قوله:

هصرت بُغصني دوحة فتمايلت علي هضيم الكشح رياً الخلخل
 مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل^(٤)
 فمعنى قوله: «هصرت»: جذبت وثبتت، وقوله: «بغصني دوحة» تعسف،
 ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنتين: والمصراع الثاني أصح، وليس فيه شيء إلا
 ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين، وأنت تجد ذلك في وصف كل
 شاعر، ولكنه مع تكرره على الألسن صالح، ومعنى قوله: «مهفهفة» أنها مخففة
 ليست مثقلة، والمفاضة التي اضطرب طولها، والبيت - مع مخالفته في الطبع
 الأبيات المتقدمة، ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهة، وما فيه من الخلل من

(١) بان: فارق، الخليط: المخالطون والمجاورون من الأحباب، أي استعدوا للفراق، واليين: البعد
 والفراق، ورامتين: اسم مكان.

(٢) بنتم: فارقتم وبعدم، شراباً ينقع: يروي غليلي ويشبع عطشي، شبه شوقه إليه بالعطش
 الذي لا يرويه إلا هو.

(٣) بوزع: اسم حبيته، دببت على العصا: كناية عن كبر سنه وضعفه.

(٤) هصرت: جذبت، الدوحة: الشجرة العظيمة الأغصان، هضيم: ضامر، الكشح: ما بين
 الخاصرة والضلع، رياً الخلخل: ممتلئة مكان الخلخل، مهفهفة: لينة الخصر ضامرتة، غير
 مفاضة: لا هي ذات طول مضطرب ولا بطنها مترهلة، الترائب: جمع تربة وهي موضع
 القلادة من الصدر، مصقولة: بيضاء مجلوة، السجنجل: المرأة.

تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض - ليس بطائل، ولكنه قريب متوسط.

وقوله:

تصدُّ وتبدي عن أسيل وتقي بناظرة من وحش وجرّة مُطفِل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذ هي نصته ولا بمعطِل^(١)
معنى قوله: «عن أسيل» أي بأسيل، وإنما يريد خدًا ليس بكزّ، وقوله: «تقي»
يقال: اتقاه برأسه أي جعله بينه وبينه، وقوله: «تصد وتبدي عن أسيل» متفاوت؛
لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد، وقوله: «تقي بناظرة»، لفظة
مليحة، ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه، وهو مختلف، وهو قوله: «من وحش
وجرة»، وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا، كان من سيئه أن يضيف
إلى عيون الأطباء أو المها دون إطلاق الوحش، ففيهين ما تستنكر عيونها، وقوله:
«مطفِل» فسروه على أنها ليست بصبية وأنها استحكمت، هذا اعتذار متعسف،
وقوله: «مطفِل» زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي،
ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال: إنها إذا كانت مطفلاً
لحظت أطفالها بعين رقة، ففي نظر هذه رقة نظر المودة، ويقع الكلام معلقاً تعليقاً
متوسطاً.

وأما البيت الثاني فمعنى قوله: «ليس بفاحش» أي ليس بفاحش الطول،
ومعنى قوله: «نصته» رفعته، ومعنى قوله: «ليس بفاحش» في مدح الأعناق، كلام
فاحش موضوع منه، وإذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الأعناق ما

(١) تصد: تعرض، تبدي: تظهر، أسيل: خد جميل فيه ملامسة وعدم اكتناز، تقي: تجعل بينها
وبين الآخر وقاية، أي حاجزاً، والناظرة: العين، وجرّة: اسم لمكان، مطفِل: ذات طفل،
والجيد: العنق، الريم: الظبي الأبيض، ليس بفاحش: أي عنقها طويل طويلاً مناسباً، نصته:
رفعته، ولا بمعطِل: ولا بخال من الخلي.

يشبه السحر، فكيف وقع على هذه الكلمة، ودفع إلى هذه اللفظة؟ وهلا قال كقول أبي نواس^(١):

مثل الظباء سمت إلى روض صوادر عن غدِير^(٢)
ولست أطول عليك فتستقل، ولا أكثر القول في ذمّه فتستوحش، وأكلك
الآن إلى جملة من القول، فإن كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت ما
رمينا إليه واستغنيت، وإن كنت من الطبقة خارجاً^(٣)، وعن الإتيان بهذا الشأن
خالياً، فلا يكفيك البيان وإن استقرينا جميع شعره، وتبعنا عامة ألفاظه، ودلنا
على ما في كل حرف منه.

اعلم أن هذه القصيدة قد تردت بين أبيات سوقية مبتذلة، وأبيات متوسطة،
وأبيات ضعيفة مردولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهه وأبيات معدودة بديعة،
وقد دلنا على المبتذل منها، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع
السمع، ويهول القلب، ويكد اللسان، ويعبس معناه في وجه كل خاطر، ويكفهر
مطلعه على كل متأمل أو ناظر، ولا يقع بمثله التمدح والتفاسح، وهو مجاني لما
وضع له أصل الأفهام، ومخالف لما بُني عليه التفاهم بالكلام، فيجب أن يسقط
عن الغرض المقصود، ويلحق باللفز^(٤) والأشارات المستبهمة.

(١) أبو نواس: شاعر عباسي خليع مجاهر بالمعاصي، مشبب بالنساء والعلمان، أكثر شعره في
الخمر والدفاع عنها والترغيب فيها، واسمه: الحسن بن هانئ، مولى الحكم بن سعد
العشيرة من اليمن، وهو القائل في غلام له اسمه أحمد:

يا أحمد المرجى في كل نائبة قم سيدي نعصي جبار السماوات

(٢) صوادر: عائذات بعد أن ارتوت من الغدير، وقوله: «سمت» معنى جميل يفيد أن الروض
مرتفع عن الغدير، وفي صعودهن إلى الروض ترتفع رؤوسهن فتظهر أعجادهن أو أعناقهن،
وهذا يعطي معنى قول امرئ القيس: إذا هي نصته: أي رفعت جيدها ليرى.

(٣) أي خارجاً من طبقة أهل الصنعة، يقصد العلماء المتقنين لصنعة اللغة وفنونها.

(٤) اللفز: في اللغة جحر الضب واليربوع والفأر، تحفر أحجارها على هيئة ملتوية تمثل مشكلة
للباحث عنها، وقد تجعل لأحجارها منفذين تخفي واحداً وتظهر الآخر، فإذا ابتغيت من =

فأما الذين زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله:

ويُضحِّي فتيه المسك فوق فراشها نوم الضحى لم تنتطق عن تفضل^(١)
والمصرع الأخير عندهم بديع، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة، لها من
يكفيها، ومعنى قوله: «لم تنتطق عن تفضل» يقول لم تنتطق وهي فضل، و«عن»
هي بمعنى بعد، وقال أبو عبيدة: لم تنتطق فتعمل ولكنها تفضل.
ومما يعدونه من محاسنها:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي^(٢)
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازًا وناء بكلكل^(٣)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل^(٤)

= الظاهر هربت من الحفي، وأطلق: اللفز كذلك على كل مُعَمَّى من الكلام ومشكل من
العبارات، ويجمع على أَلغاز.

(١) ويضحى: وقت الضحى حين تستيقظ من نومها وتغادر فراشها، فتيه المسك: دقيق
المسك الناشئ عن تفتيته، فهو فعيل بمعنى مفعول، نوم الضحى: أي تام حتى الضحى
ولا تستيقظ مبكرًا؛ لأن لديها من يخدمها، وهذا كناية عن كونها منعمة مترفة،
والمفضل في اللباس: الذي يلبس ثوبًا واحدًا للخدمة أو النوم، فهو يقول إنها مترفة منعمة
تنام حتى الضحى؛ لأن لديها من يقوم على خدمتها، وتكثر من استعمال المسك حتى إن
فتاته ليظل منشورًا على فراشها بعد أن تغادره، وهي تلبس اللباس الواحد ليس للخدمة أو
العمل ولكن للتفضل والترفة.

(٢) أرخى سدوله: أرسل أستاره، أنواع الهموم: أنواع الأحزان، ليبتلي: ليختبر صبري
وتحملي.

(٣) تمطى بصلبه: تمدد بظهره، وأردف أعجازًا: اتبع ذلك بحط مؤخرته، وناء بكلكل: وأتبع
ذلك بصدرة، يشبه نزول الليل به بالبعير حتى يرك، فإنه يمدد ظهره، وينزل مؤخرته ثم
يلبي ذلك صدره.

(٤) انجل: أي انكشف، وانه، بأمثل: أي بأفضل، يقول: أيها الليل اذهب حتى يأتي الصباح،
وإن كان الصباح مليئًا بالهموم مثلك.

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النايفة^(١):

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ وليل أفاقيه بطيء الكواكب^(٢)
 نصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب^(٣)
 تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بأيب^(٤)
 وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء، فقدمت أبيات امرئ القيس
 واستحسن استعارتها، وقد جعل لليل صدرًا يثقل تنحيه، ويطيئ تقضيه، وجعل
 له أردافًا كثيرة، وجعل له صلبًا يمتد ويتناول، ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو
 تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة، ورأوا أن الألفاظ جميلة، واعلم
 أن هذا صالح جميل، وليس من الباب الذي يقال إنه متناه عجيب، وفيه إلمام
 بالتكلف، ودخول في التعمل.

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله:

وقد اغتدى والطيئ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
 مكرٌّ مفرٌّ مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٥)
 وقوله أيضًا:

(١) النايفة: هو النايفة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية، من الطبقة الأولى لفحول شعراء
 الجاهلية، سبق التعريف به.

(٢) ناصب: مقيم متعب، بطيء الكواكب: كناية عن طوله.

(٣) أراح الليل عازب همه: أعاد إليه همه الذي كان ذهب ونسأه.

(٤) تقاعس: ثبت ولم يبرح مكانه، الذي يتلو النجوم: الصباح.

(٥) اغتدى: أخرج في الغداة وهي الصباح، وكناتها: أوكارها، منجرد: الحصان قليل الشعر،

وهي صفة مدح، قيد الأوابد: يدرك الأوابد وهي الوحوش كأنها مقيدة وهو يجري،

كناية عن سرعته، هيكل: عظيم الجسم، مكر مفر مقبل مدبر: سريع الكر وهو الهجوم

والفر وهو الهروب والإقبال والإدبار، جلمود صخر: حجر عظيم، حطه السيل من عل:

أسقطه السيل من أعلى جبل.

له أبطلا ظنبي وساقًا نعامة وإرخاء سزحان وتقريب تثقل^(١) فأما قوله: «قيد الأوابد» فهو مليح، ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير، والتعمل بمثله ممكن، وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفًا، ويؤلفون المحاسن تأليفًا، ثم يوشحون به كلامهم، والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفاقًا، ويَطَّرِد في كلامهم اطرادًا. وأما قوله في وصفه: «مكر مفر» فقد جمع فيه طباقًا وتشبيهاً، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف، وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة، ولكن قد عورض فيه وزوجم، والتوصل إليه يسير، وتطلُّبُه سهل قريب.

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في آياتها تفاوتًا بينًا، في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والتسهل، والاسترسال والتوحش والاستكراه.

وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها، ولا سواء كلام^(٢) ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة، ويتلَوّن تلون الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه، وبين قول يجري في سبكه على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حد، وفي صفائه على باب، وفي بهجته ورونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب، وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد، لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن.

وكنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فتكلم عليها، وندل على معانيها

(١) أبطلا: خاصرتا، مثني خاصرة، والإرخاء نوع من العدو السريع، والسرْحان: الذئب، والتقريب: ضرب من العدو يضع فيه رجله مكان يديه، تنقل: ولد الثعلب.

(٢) أي ليس كلامًا مستويًا متمثلًا، كلام فيه مثل هذه الوجوه المتقابلة، والحالات المتناقضة.

ومحاسنها، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها، ونبسط لك القول في هذا الجنس، ونفتح عليك في هذا المنهج.

ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعيابه، ووزنه بميزانه ومعياره، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة، وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة، وهذا القدر يكفي في كتابنا.

ولم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني، وما عابوه عليه في أشعاره، وتكلموا به على ديوانه؛ لأن ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا، ومجانب لمقصوده.

وإنما أردنا أن نبين الجملة التي بينها، لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة، ومنزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم، وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرَّ عليه فيه، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد معنى قد توافدا عليه، وتوافيا إليه، فهما فيه شريكا عنان، وكأنهما فيه رضيعا لبان، والله يؤتي فضله من يشاء.

عودة إلى إعجاز القرآن

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ووصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه، نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر^(١)، وأقرب عليك الغامض، وأسهل لك العسير.

واعلم أن هذا^(٢) علم شريف المحل، عظيم المكان قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليس له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفتن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر.

وكيف لا يكون كذلك؛ وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها^(٣)، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجذ الأخرى - لو وضعت موضعها - في محل نفار، ومرمى شراد، ونائية عن استقرار.

(١) انظر؛ كيف سيتمكن المؤلف - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - من تبسيط هذا العلم حتى يجعل إعجاز القرآن في مثل الشمس وضوحاً، والفجر يقيناً؛ مع قوله قبل ذلك: إن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه!؛

(٢) يقصد: علم إعجاز القرآن، وكل العلوم التي تستخدم نفس الغرض.

(٣) الجران: باطن العنق من البعير وغيره، ويجمع على: أجرنة وجرن، وألقى بجرانه مثل يضرب للشيء يوضع في مكانه الملائم فيثبت ويستقر، يقال: ضرب الإسلام بجرانه: ثبت واستقر، وفي الحديث الشريف عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «... حتى ضرب الحق بجرانه».

ولا أكثر عليك المثال، ولا أضرب لك فيه الأمثال، وأرجع بك إلى ما وعدتك من الدلالة، وضمنت لك من تقريب المقالة، فإن كنت لا تعرف الفصل الذي بيننا - بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجاري النظام، لم تستفد مما نقره عليك شيئاً، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك، ولكل شيء سبب ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله.

خذ الآن - هداك الله - في تفرغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك متوكلاً على الله، ومعصماً به، ومستعيذاً به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم.

سماه الله - عز ذكره - حكيمًا وعظيمًا ومجيدًا^(١)، وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]، وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [سورة الحشر: الآية ٢١]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۝٢٢﴾ [سورة النجم: الآية ٢٢]، وقال: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ

(١) وصف القرآن بالحكيم في قوله - تعالى -: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [يس: ١]، [٢]، ووصف القرآن بالعظيم في قوله - سبحانه -: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ٨٧]. ووصف القرآن بالمجيد في قوله - سبحانه -: ﴿قُلْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝٢١﴾ [ق: ٢١]، وفي قوله - سبحانه -: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝١١﴾ [الرحمن: ١١] في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. ووصف القرآن بالكريم في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]. ووصف القرآن بأنه عزيز في قوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّهُ لَكَنُزُّ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(٢) سورة الرعد: بعض آية ٣١، وجواب «لو» في الآية محذوف للعلم به، تقديره: لكان هذا القرآن.

هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمِينٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٨].

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد ابن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري الطائي، عن الحارث الأعور، عن علي رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله إن أمتك ستفتن من بعدك، فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: «بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، وتبين من بعدكم، وهو فصل ليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾» [سورة الجن: بعض آيتي ١، ٢] لا يخلق^(١) على طول الرد، ولا تقضي عبره، ولا تفي عجائبه^(٢).

وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد الله، حدثنا المسيب بن شريك، عن عبيدة، عن أسامة ابن أبي عطاء، قال: أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي رضي الله عنه في ليلة، فذكر نحو ذلك في المعنى، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد الله، حدثنا المسيب بن شريك، عن بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة

(١) يخلق: يلى، من: خلق الثوب، بلى، اللام في خلق بفتح وتكسر.
(٢) الجامع الصحيح للترمذي، باب ما جاء في فضائل القرآن: ٢٤٥/٤.

كلها، غير أنه لا يوحى إليه»^(١)... وذكر الحديث.

ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض نوره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته، لكان كما وصفه الله - تعالى - جل ذكره من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢].

فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع، قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: بعض آية ٥٢] يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية، وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده، وفتاحة عقده، وغرة شهره، وعين دهره.

وكذلك قوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: بعض آية ٥٢]، فجعله روحاً؛ لأنه يحيى الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نوراً؛ لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليتهدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليتهدي فكيف كان يهدي لولاه فقد صار يهدي ولم يكن من قبل ذلك ليتهدي، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى: بعض آية: ٥٢، وآية: ٥٣، التي هي

(١) رواه البيهقي، وابن عساكر، والأنباري، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

خاتمة السورة] فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث^(١)، فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان^(٢)، وقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى، وقد صيرها شريف النظم أشد اثلاً من الكلام المؤلف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم، وبهذا بين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته.

الأمر أظهر والحمد لله، والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف، تأمل قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة الأنعام: الآية: ٩٦]. انظر إلى هذه الكلمات الأربع^(٣) التي ألف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة، وبمفردها درة؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي، ولست أقول إنه شمل الإطباق^(٤) المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه؛ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة، فإذا ألفت ازدادت حسناً، وزادت إذا تأملت معرفة وإيماناً.

ثم تأمل قوله: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمْ آيَاتٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٤٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٤٨) وَالْقَمَرَ

(١) يريد الجمل الثلاث. وهي: الأولى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. والثانية: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. والثالثة: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

(٢) اللتان هما: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

(٣) أي الجمل الأربع من الآية؛ وهي: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، و﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾، و﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(٤) يقصد: الطباق.

قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٦﴾ [سورة يس الآيات: ٣٧ - ٣٩] (١).
 هل تجد كل لفظة، وهل تعلم كل كلمة، تستقل بالاشتقاق على نهاية
 البديع، وتتضمن شرط القول البليغ؟
 فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف لا تفوت
 حد المعهود، ولا تحوز شأو المألوف؟ وكيف لا تحوز قصب السبق، ولا تتعالى عن
 كلام الخلق؟

* * *

ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من
 براهينها وقصصها، تأمل السورة التي فيها النمل، وانظر في كلمة كلمة وفصل
 فصل:

بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَلنَّاقِ
 الْقُرْآنَاتِ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦١﴾ [سورة النمل: بعض الآية: ٦]، ثم وصل بذلك
 قصة موسى عليه السلام وأنه رأى نارًا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَانِيكُم مِّنْهَا
 بَخْبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ [سورة النمل بعض آية: ٧].
 وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿لَعَلَّآ آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى
 النَّارِ هُدًى﴾ [سورة طه: بعض آية: ١٠].

وفي موضع: ﴿لَعَلَّآ آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
 تَصْطَلُونَ﴾ [سورة القصص: بعض آية: ٢٩].

قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن
 جميع طرق ذلك، ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة الطور: بعض آية:
 ٣٤]، ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم... وكل كلمة من هذه

(١) العرجون: ما يمسك التمر أو البلح. وهو من النخلة مثل العنقود من شجرة العنب. وقيد
 العرجون بالقديم؛ لأنه كلما قدم وجف اشتد عوجه.

الكلمات^(١) وإن أنبأت عن قصة، فهي بليغة بنفسها، تامة في معناها. ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل: الآية: ٨].

فانظر إلى ما جرى له الكلام، من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الشئ، وكيف انتظم الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، وما دل به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلاً يدل عليه ومعجزة تهديه إليه.

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء.

ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة، هي تجدها كما وصفنا من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامت ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها.

ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبلغ التنزيل.

* * *

وإن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين، وتحقق بما ادعينا زيادة تحقق، فإن كنت من أهل الصنعة^(٢)، فاعمد إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث، فعبّر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر، وتبين في نظم القرآن الدليل الباهر، ولذلك أعاد

(١) يقصد كل آية من الآيات السابقة التي اقتبسها من السور المشار إليها.

(٢) أي صناعة اللغة.

قصة موسى في سور، وعلى طرق شتى، وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى^(١). فعلك ترجع إلى عقلك، وتستمر ما عندك، إن غلظت في أمرك، أو ذهبت في مذاهب وهمك، أو سلطت على نفسك وجه ظنك.

متى تهياً لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة، من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل؟ وأحسب أنه لا يسلم من هذا - ومحال أن يسلم منه - حتى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد، والألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها فيجملوها فقررة من كلامه، وقطعة من قوله ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة، فمتى يتفق له في قدر ما نقول: إنه من القرآن معجز؟ هيهات هيهات!

إن الصبح يطمس النجوم وإن كانت زاهرة، والبحر يغمر الأنهار وإن كانت زاخرة متى تهياً للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام، بعد ذكر العنوان والتسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل الآية: ٣١]، والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير^(٢)، واشتغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها^(٣)، وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [سورة النمل: بعض آية: ٣٢]، وذكر قولهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْئِدِيبِ وَالْأَمْرِ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل: الآية: ٣٣] لاتجد في

(١) وكذلك نهج القرآن العظيم مع كل القصص الذي أورده للأمم الماضية من مثل قصة أي البشر آدم عليه السلام، وقصة نوح، وقصص عاد وثمود، وإبراهيم ولوط، فقد أورد ذلك القصص وغيره في أكثر من سورة من السور الكريمة، وبأكثر من أسلوب من أساليبه المعجزة. وذلك لذات الغرض الذي أشار إليه المؤلف - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - .

(٢) الكلام عن بلقيس ملكة سبأ.

(٣) أي مستشاريها.

صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به، وقوله ^(١): ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ [سورة النمل: بعض آية: ٣٣]، تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمته لما قبله، وذلك قوله: ﴿فَأَنْطَرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل: بعض آية: ٣٣] ^(٢)، ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيد الاختصار بسطاً، لتمكنه ووقوعه موقوعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه.

وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الأفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام.

ثم لو وقع على الأفهام أخل بما يجب فيه من شروط الإحكام، أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيت ناقصاً في وجه الحكمة، أو مدخولاً في باب السياسة، أو مصفوقاً في طريق السيادة، أو مشترك عبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع.

وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاهد، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، وبدائع ترى.

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة في قوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: بعض آية: ٣٤]، هذه الكلمات الثلاث ^(٣)، واحدة منها كالنجم في علوه ونوره،

(١) الضمير يعود إلى مُنْزَل القرآن سبحانه وتعالى.

(٢) الإشارة تعود إلى الأوصاف الخمسة التي وصف بها التنزيل الشريف في الكلام السابق على الإشارة مباشرة.

(٣) يقصد الجمل الثلاثة في الآية السابقة وهي: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وكالياقوت يتلأأ بين شذوره (١)

ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة (٢) وحسن موقعها، وعجيب إحكامها، وبارع معناها.

وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكنني قد بينت بما فسرت، وقررت بما فصلت، والوجه الذي سلكت، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت.

ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، فأجل (٣) الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح، والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاض، وإن طال عليك تأمل الجميع فاقنصر على سورة واحدة أو على بعض السور.

ما رأيك في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص الآية: ٤].

هذه تشتمل على ست كلمات (٤)، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعين، وفصاحتها علا ما تعرف، وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وتفسير ذكر العلو في الأرض

(١) الشذور: القطع المتفرقة للشيء الواحد. مثلك شذور الذهب: أي حبات الثبر التي تجمع من مستقره. والشذور أيضًا: حبات اللؤلؤ يفصل بها بين الأحجار الكريمة في عقد واحد. ولعل هذا المعنى الذي قصد إليه المؤلف.

(٢) قوله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

(٣) أجل الرأي: أي سرحه ومرره

(٤) أي ست جمل؛ هي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، ﴿يُدِّخُّ آبَاءَهُمْ﴾، ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

باستضعاف الخلق وبذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما؛ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعظفت عجزه على صدره^(١)، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ آيَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص الآية: ٥).

وهذا من التأليف بين المؤلف، واجمع بين المستأنس.

كما أن قوله: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص الآية: ٧٧)، وهي خمس كلمات^(٢)، متباعدة في المواقع، نائية المضارح، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع.

ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة القصص الآية: ٦٨)، ومثلها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ بَطَرْتِ مَعِشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) ومن المؤلف قوله: ﴿فَحَسَبْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (٨١)، وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من

(١) وهي قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(٢) يقصد ما احتوته الآية الكريمة من أمرين ونهيين. بين كل أمرين نهي، وبين كل نهيين أمر ثم ختام ذلك الخبر عن الله - تعالى -. بقوله - تعالى -: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(٣) سورة القصص الآية: ٥٨.

الكبريت الأحمر^(١)، ومن الباب الآخر قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الآية: ٨٨ خاتمة سورة القصص].

كل سورة من هذه السور، تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ونفور الطبع، وشراد الكلام، وتهافت القول، وتَمَنُّع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة وفصل إلى فصل، حتى تتبين^(٢) عليك مواضع الوصل، ويستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواضع زاجرة، وأمثالا سائرة، وحكما جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات من التنزيه والتحميد شريفة.

وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر، عامي الكلام، سوقى الخطاب، مسترسلا في أمره متساهلا في كلامه، عادلا عن المؤلف من طبعه، وناكبا عن المعهود من سجيته، فإن اتفق له في قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوا، وما تجاوزها لغوا، ولا أقول إنها تخرج من عادته عفوا؛ لأنه يقصر عن العفو، ويقف دون العرف، ويتعرض للركاكة.

فإن لم تقع بما قلت لك من الآيات، فتأمل في غير ذلك من السور، هل تجد

(١) يضرب بذلك مثالا على الندرة.

(٢) كلمة «تتبين» فلقة في موضعها:

أولاً: لأن «تتبين» تعدى باللام وليس بـ «على». فيقال: تتبين لك، وليس تتبين عليك. وثانياً: لأن الظرف ظرف استعصاء وصعوبة، وليس ظرف بيان. كما توضحه الفقرة التالية. ولعل اللفظة المناسبة والقرينة من رسم «تتبين» تتأني.

الجميع على ما وصفت لك؟ لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقع وشفى، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، ما طلبت بينة سواها، بل قصة من قصصه، وهي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أُنزِلَ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَمَسِّقُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥٢] إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ ۖ وَكَذَلِكَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٥٧ - ٦٠] حتى قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦٣] ثم قصة إبراهيم عليه السلام.

ثم لو لم تكن إلا الآيات التي انتهى إليها القول في ذكر القرآن؛ وهي قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَنْزِلُ رَبِّ الْأَمَانِ﴾ [١١٦] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١١٣] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [١١٤] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [١١٥] [سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٥]. وهذه كلمات مفردة بفواصلها، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة، ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة، ومنها كلمة بفاصلتها تامة، دل على أنه نزل على قلبه ليكون نذيراً، وبين أنه لكونه آية نبياً، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [١١٤] ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١١٥] [سورة الشعراء: الآيات ٢١٤، ٢١٥].

فتأمل آية آية لتعرف الإعجاز، وتبين التصرف البديع، والتنقل في الفصول إلى آخر السورة، ثم راع المقطع العجيب، وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد، وأن تنظم مثل هذا النظم، وأن تجد مثل هذه النظائر السابقة، وتصادف مثل هذه الكلمة المتقدمة؟

ولولا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل، فاستقرت على الترتيب

كلماته، وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة، ومن عجيب البلاغة، ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، وتستضيء بنوره، وتهتدي بهداه. ونحن نذكر آياتٍ آخر، لتزداد استبصارًا، وتتقدم تيقنًا.

تأمل من الكلام المؤلف قوله: ﴿حَدَّ ۝ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾ [غافر: ١، ٣]. أنت قد تدرت الآن بحفظ أسماء الله - تعالى - وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية، من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة، واتل ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء، من احتجاج إلى وعيد، ومن إعدار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم.

ثم جاء إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَلْبُهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَالْأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ [غافر: ٥ - ٦]، الآية الأولى أربعة فصول^(١)، والثانية فصلان^(٢)، وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، وهل تقع في الحسن موقع قوله ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكته؟ لو وضع موضع

(١) يقصد أنها مشتملة على أربعة - قضايا، وإن كانت كلها مدمجة في وحدة. وفصولها هي:

﴿كَذَّبَتْ قَلْبُهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَالْأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

(٢) الفصلان هما - في نظر المؤلف :: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكَلِمَتِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لكن في هذا نظر. فإن الأوفق كون الآية فصلًا واحدًا؛ لأن

كونهم أصحاب النار هي كلمة الله التي حقت عليهم، فلا وجه للفصل بين الجملة

الثانية والأولى.

ذلك: ليقتوه أو يجرجموه أو لينفوه أو ليضردوه أو ليهلكوه أو ليدلوه، ونحو هذا، ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً، ولا عجيّباً، ولا بالغاً، فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من نخب الكلام، وجميل الألفاظ، والاهتداء للمعاني، فإن كنت تقدر أن شيئاً من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب^(١)، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع إلى التقليد، واكف نفسك مؤونة التفكير، وإن فطنت فانظر إلى ما قال من رد عجز الخطاب إلى صدره، بقوله: ﴿فَأَحْذَرْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ثم ذكر عقيبتها العذاب في الآخرة، وأتلاها تلو العذاب في الدنيا، على الإحكام الذي رأيت.

ثم ذكر المؤمنين بالقرآن، بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]، إلى أن ذكر ثلاث آيات، وهذا كلام مفصول تعلم عجب اتصاله بما سبق ومضى، وانتسابه إلى ما تقدم وتقضى، وعظم موضعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة، بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].. هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى، ولطيف هذه الحكاية، وتلاؤم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام؟ وكيف يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشري؟ وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسي.

ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى، ثم نبه على أمر القرآن وأنه من آياته، بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]^(٢)، وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين

(١) أي لا توضح لك إعجاز القرآن المجيد، وتبينه لك كالشمس في وضع النهار كما وعد المؤلف قبل ذلك.

(٢) ولست مع المؤلف الفاضل أن كلمة «آياته» في الآية الكريمة مراداً بها آيات القرآن المجيد. بل هي والله - تعالى - أعلم آياته في الكون من بديع صنعه وحكيم تدبيره من مثل قوله - تعالى -: ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيهه من السماء، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس التي تجب عليها طاعته والنظر في آياته.

ثم قال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٤ - ١٦].

قف على هذه الدلالة، وفكر فيها، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الإلهية ودالاتها على الربوبية، وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، والأخبار الماثورة في كلماتهم الفصيحة، من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول.

أي خاطر يتشوف إلى أن يقول: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ [غافر: ١٤ - ١٦]؟ وأي لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا من الغور؟ وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم؟ ثم استقرئ الآية إلى آخرها واعتبر كلماتها، وراع بعدها قوله: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧]، من يقدر على تأليف هذه الكلمات على قربها، وعلى خفتها في النظم، وموقعها من القلب؟

ثم تأمل قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ بِقَضَىٰ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨ - ٢٠]. كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها، من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها، أو في خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، الباقوتة التي تكون فريدة العقد، وعين

القلادة، ودرة الشدر، إذا وقع بين كلام وشحه، وإذا ضمن في نظام زينه، وإذا اعترض في خطاب تميز عنه، وبان بحسنه منه.

* * *

ولست أقول هذا لك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى، لأنني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والأخبار، وفي الشرائع والأحكام، وفي الديانة والتوحيد، وفي الحجج والتبثيت، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور. ألا ترى أن الشاعر المنطلق إذا جاء إلى الزهد قصر، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام، وذكر الحلال والحرام، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره. ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى، وفيما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ.

* * *

ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخرى، منها قوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُجِلَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. أنت تجد في هذه الآية من الحكمة، والتصرف العجيب، والنظم البارع ما يدل ذلك - إن شئت - (١) على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة؟

(١) واقع الأمر أن قارئ القرآن العظيم إذا ما كان لديه فهم للغة، ومعرفة بأسرارها - أو كما يقول المؤلف: من أهل الصنعة - فإنه ما إن يقرأ من القرآن شيئاً إلا ويأخذ بإساره، ويستولي على وجدانه، ويدرك إعجازه سواء شاء أو لم يشأ، وقد كان المشركون يسمعونهم فيأخذ بألبابهم قسراً عنهم، حتى كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم خوف سماعه، وكانوا يتواصون فيما بينهم بما حكاه القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٦].

ونحو هذه الآية قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].
وكالآية التي بعدها في التوحيد وإثبات النبوة^(١)، وكالآيات الثلاث في الموارث^(٢).
أي بارع يقدر على جميع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟

وان جئت إلى آيات الاحتجاج كقوله - تعالى -: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢ - ٢٣].

وكالآيات في التوحيد كقوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ٦٥]. وكقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١ - ٢]. وكقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]، إلى آخرها. وكقوله: ﴿وَالصَّغْفَرَاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلْمِينَا بِرَبِّنَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ

(١) الآية التي ذكرها المؤلف الفاضل هي في إثبات نبوة محمد ﷺ والزمام اليهود والنصارى بأن البشارة به ﷺ اسما ووصفا وزمانا ومكانا مثبتة في توراتهم وانجيلهم. والآية الثانية التي يشير إليها هنا تأسيس على الآية السابقة وبناء عليها، في الأمر بتابع النبي ﷺ. والآية هي قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(٢) الآيات الثلاث من سورة النساء؛ وهي: ١١ - ١٢، ١٧٦.

وَأَصْبَحَ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَلَّفَ الْتُظْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِقٌ ﴿١٠﴾ [الصافات: ١٠ - ١]، هذه من الآيات التي قال فيها الله - تعالى - ذكره: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْسَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. وانظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة مما نقلناه إليك، وعرضنا عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثا وسورة.

لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل. فلم ندع ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله، وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر، والآية أكشف وأبهر. وإذا تأملت على ما هديناك إليه، ووقفناك عليه، فانظر: هل ترى وقع هذا النور في قلبك، واشتماله على لبك، وسريانه في حسك، ونفوده في عروقك، وامتلأك به إيقانا، وإحاطة، واهتدائك به إيمانا وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك لللطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجب ما وقفت عليه؟ وتجد في نفسك من المعرفة التي أحدثت لك عزة، وفي أعطافك ارتياحا وهزة، وترى لك في الفضل تقدما وتبريزا، وفي اليقين سبقا وتحقيقا، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، مهاويهم في ظلال القلة والذلة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها مراتبهم، بحيث يجب أن ترتبها.

هذا كله في تأمل الكلام ونظامه، وعجيب معانيه وأحكامه، فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن من الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى

في الدماء من مفروض حكمه. وإلى أنه جعل عماد الصلاة التي هي تلو الإيمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب، وفرض حفظه، ووكل الصغار والكبار بتلاوته، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه، من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٨٩]، لم يؤمر بالتمتع لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه، فهل يدل ذلك هذا على عظيم شأنه، وراجع ميزانه، وعالي مكانه؟.

* * *

وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد، وتمييزه صعب. ومما كتب إلي الحسن بن عبد الله العسكري^(١): أخبرني أبو بكر بن دريد^(٢) قال: سمعت أبا حاتم يقول: سمعت الأصمعي^(٣) يقول: فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب. وقال: سمعت أبا عمرو بن العلاء^(٤) يقول: العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر. وإذا كان الكلام المتعارف، المتداول بين الناس يشق تمييزه، ويصعب نقده، يذهب عن محاسنه الكثير، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن، وكثير من حسنه بعين القبح، ثم يختلفون في الأحسن منه اختلافاً كثيراً، وتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه، فكيف لا يتحIRON فيما لا يحيط به علمهم، ولا يتأني في مقدورهم، ولا يمثل بخواطيرهم؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم، ولا أتم بلاغة، ولا أحسن براعة، حتى دهشوا حين ورد عليهم، وولعت عقولهم، ولم يكن عندهم فيه جواب، غير ضرب الأمثال، والتحرص^(٥) عليه، والتوهم فيه، وتقسيمه أقساماً، وجعله عضين.

(١) الحسن بن عبد الله العسكري.. صاحب كتاب: الصناعتين ت: ٣٩٥.

(٢) أبو بكر بن دريد: محمد بن الحسن بن دريد. عالم لغوي أديب راوية. توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة.

(٣) الأصمعي.. عالم أديب نحوي لغوي راوية. ت: ٢١٦ تقدم التعريف به.

(٤) أبو عمر بن العلاء.. تقدم التعريف به.

(٥) قد تكون الكلمة محرفة عن: «التحريض عليه». أو «التحرص عليه».

وكيف لا يكون أحسن الكلام، وقد قال الله - تَعَالَى -: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَشَرْنَا مِنْهُ جُودًا الَّذِي يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. استغنم فهم هذه الآية وكفاك، استفد علم هذه الكلمات وقد أغناك، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله، إن القليل يدل على الكثير، والقريب قد يهجم بك على البعيد. ثم إنه - سبحانه وتعالى - لما علم من عظم شأن هذه المعرفة، وكبر محلها وذهابها على أقوام، ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر، وبين ما بين، فقال: ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(١)، فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد. وقال: ﴿وَمِن يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾^(٢)، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد بسطنا لك القول رجاء إفهامك. وهذا المنهاج الذي رأيته إن سلكته يأخذ بيدك، ويدلك على رشدك، ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك. واعلم أنا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات، وسميناه من السور والدلالات، ذكر الأحسن والأكشف والأظهر، لأننا نعتقد في كل سورة ذكرناها أو أضربنا عن ذكرها اعتقادًا واحدًا، في الدلالة على الإعجاز، والكفاية في التمتع والبرهان، ولكن لم يكن بد من ذكر بعض، فذكرنا ما يتسر، وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر، وإن كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعض أدق وأغمض، والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا، فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا، والسير بعد ذلك في التفصيل إليك، وحصل ما أعطيناك من العلامة، ثم النظر عليك.

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم إلى قسمين:

(١) بعض الآية السابقة.

(٢) بعض الآية السابقة.

أحدهما: ما يتم بنفسه، أو بنفسه وفاصلته، فينير في الكلام، إنارة النجم في الظلام.

والثاني: ما يشتمل على كلمتين أو كلمات، إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة، وغاية البلاغة، وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما^(١) بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها، فإذا ضمت إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها، أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة، والجواهر ميثومة.

ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر. لأنشدتك ألفاظاً وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه، وكيف ترى بهجتها في أثنائه، وكيف تمتاز منه؟ حتى إنه لو تأمله من لم يقرأ، لتبين أنه أجنبي من الكلام الذي تضمنه، والباب الذي توسطه، وأنكر مكانه، واستكبر موضعه، ثم تناسبها في البلاغة والإبداع، وتماثلها في السلاسة والإغراب، ثم انفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب، ثم سائر ما قدمنا ذكره مما نكره إعادته، وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقة، ويضيق به النطاق في مذاهبه، ويرتبك في أطرافه وجوانبه، ويسلمه للتكلف الوحشي كثرة تصرفه، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه.

ونظم القرآن في مؤلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه. على ما وصفه الله - تعالى - به. لا يتفاوت كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال:

(١) يبدو أن لفظة «ما» زائدة في الكلام لا محل لها.

﴿فَرَأَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]. وكما قال: ﴿كِنْبًا مُّتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ولا يخرج عن إبانته، كما قال: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وغيره^(١) من الكلام كثير التلون، دائم التغير، يقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه قبيح مستهجن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي كاللآلئ الزهر. وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهيم، قد يقع إليك منه الكلام المشيج^(٢)، والنظم المشوش، والحديث المشوه، وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه ولا يتألف ولا يتماثل، وقد قيل في وصف ما جرى هذا الجرى.

وشعر كعبر الكبش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل
وقال آخر:

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ^(٣)
فإن قال قائل: فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت
ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد
على الكلمات المفردة، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على
ما وصفته به.

قيل له: نحن نعلم أن قوله - تعالى -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٢٣]، ليس من
القبيح الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة، ذاك يجري عندنا مجرى ما
يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو
هذا ضرب من الجهالة، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة

(١) أي غير القرآن المجيد من كلام الشعراء والأدباء.

(٢) المشيج: المعنى غير واضح المعنى.

(٣) أولاد علة؛ أي: أولاد علات. وأولاد العلات. هم الذين أبأؤهم واحد، وأمهااتهم شتى
فهم الأخوة والأخوات لأب. ويضرب به المثل للأمور المختلفة التي لا تراوَم بينها.

في الترتيب والمعنى ^(١)، وذلك حاصل في هذه الآيات إن تؤمّلت. ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيتها، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن؛ لأنه ليس في ذوات الإنسان أقرب منها، ولما جاء إلى ذوات الأسباب ^(٢) ألحق لها حكم الأم من الرضاع؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه، فيحصل بذلك أيضًا لها حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة، وذكر الأخوات من

(١) وهذا جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب الله - تبارك وتعالى .. والزعم بأن هذه الآية وما يماثلها ليس فيها إعجاز، وأنها خالية من البلاغة، عارية عن الفصاحة، زعم باطل، وادعاء فاسد، نعجب أشد العجب لصدوره عن المؤلف الذي وقف كتابه، واستنهض همه ليبان إعجاز القرآن.. ولو لم يتوفر الإعجاز في هذه الآية لبطل تحدي القرآن، وثبت معارضة القوم له؛ لأن العلماء متفقون على أن معارضة القرآن تتم بأقصر سورة منه، وهي سورة الكوثر أو ما يماثلها «كثًا» من الآي. فلو ثبت أن آية في حجم سورة الكوثر خالية من الإعجاز - أي يمكن معارضتها - لكان القرآن غير معجز، فما بالنا بتلك الآية التي هي قدر سورة الكوثر ست مرات؟

والزعم بأن الآية معجزة من حيث ما اشتملت عليه من الأحكام، وما رتبت من أسماء القربات، وأن ذلك يقوم مقام الإعجاز اللغوي، وينوب مناب الإعجاز البلاغي، زعم واضح البطلان. ذلكم أن القرآن في تحديه العرب أن يأتوا ولو بسورة من مثله، لم يتحدهم بما في سوره من أحكام؛ لأنهم ما كانوا بارعين في الأحكام حتى يتحدهم فيها، ولكنه تحدهم فيما كانوا بارعين فيه وهي البلاغة والفصاحة..

والمؤلف - عفا الله عنّا وعنّه - «قد كان» بين أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن يثبت أن الآية الكريمة، وكل آيات القرآن معجزة بلاغة وفصاحة. وبذلك يكون التحدي قائمًا، والمعارضة ساقطة غير متحققة، وإما أن يذهب إلى ما ذهب إليه من خلو الآية الكريمة وأمثالها من البلاغة والفصاحة، وبذلك يكون قد أبطل التحدي، وأثبت إمكان المعارضة - نستغفر الله من ذلك ..

وحيث صار الأمر في إطار «قد كان» وقد ذهب المؤلف إلى رحاب الرحمن الرحيم. فنسأل الله - تعالى - لنا وله العفو والعافية. والرحمة والمغفرة. والله - تعالى - أعلم.

(٢) يشير إلى أن المحرمات نوعان. محرمات بالنسب، ومحرمات بسبب. ومن المحرمات بسبب: المحرمات بسبب الرضاع.

الرضاعة فنبه بها على كل من يدلي بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاعة. والكلام في إظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول، ولم نضع كتابنا لهذا، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب «معاني القرآن»، إن سهل الله لنا إملأه وجمعه. فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترتيب^(١). فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته، وقد يتفق في الشعر ذكر الأسماء فيحسن موقعه، كقول أبي داود الأسدي:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كلبا على أعدائه وأعزهم فقداً على الأصحاب^(٢)

وقد يتفق ذكر الأسماء فيفسد النظم ويقبح الوزن. والآيات الأحكاميات^(٣) التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في باب ما ليس عليه مزيد في البلاغة، وعجيب النظم، ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد، والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع

(١) أشرنا إلى أن البراعة - أو الإعجاز - ثابت للآية الكريمة - وأمثالها - في النظم والتأليف والبراعة في أوجه الترتيب. كما هي ثابتة لها في الحكمة والترتيب وغير ذلك مما أشار إليه المؤلف.

(٢) ثلثت: قوضت وهدمت. كلباً: إيذاء وعداوة.

(٣) يقصد: الآيات التي تشتمل على الأحكام الشرعية.

وها هنا ملحوظ لغوي. ذلك أن المؤلف نسب الآيات إلى الأحكام. والأحكام جمع لا ينسب إليه لفة. فإن من قواعد اللغة أن النسب إنما يكون إلى المفرد وليس إلى الجمع. وإذا أردت أن تنسب إلى جمع رددته إلى مفرده فنسبت إليه. فالأحكام ترد إلى مفردها وهو: الحكم، ثم ينسب إلى هذا المفرد، فيقال: الآيات الحكمية.

تركب الكلمتين والثلاث، ويطرد ذلك في الابتداء، والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الوساطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك، وما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات، وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه.

* * *

وإذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينهى إليه الخطاب، ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل، بان عند أهل الصنعة تميز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتمائه إلى الجملة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه. وهذا كما يعرف طريقه مترسل في رسالته، فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجارى حركاته وأنفاسه. وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحد، وسبيل كل شاعر.

* * *

وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقصيتها يطول، وعجائبها لا تنقضي. فمنها الكلام^(١) والإشارات، وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً، ربما زاد الإفهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح، مع استيفائه شروطه، كان النهاية في معناه، وذلك كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فواصل هذه الآية. وكلماتها على ما شرحناه، من قبل البلاغة واللفظ في التقدم، وفي تضمن هذا الأمر العظيم، والمقام الكريم، ويتلو هذه قوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد

(١) في النسخ كلها مكان هذه الكلمة بياض. فالبعض ملأها بـ: الكلام، والبعض: باللفظة. ويغلب لدينا أن يكون مكان البياض الألفاظ. وبذلك تكون العبارة: فمنها الألفاظ والإشارات.

تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره، وموقعه موقع ما لا ينفك منه القول، وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه الشبيج^(١) والتباين، للخلل الواقع في النظم، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم بين عليه تميز الخروج.

ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكر نوح، وكيف أثنى عليه؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها. مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول، إلى ذكره، وإجرائه إلى مدحه بشكره، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته، وأن يستنوا بسنته، في أن يشكروا كشكره، ولا يتخذوا من دون الله وكيلا، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه، ونجاهم فيه، حين أهلك من عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم، فيما سلط عليهم من قبلهم، وعاقبهم ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان، حتى يتذكروا، ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم، وعلى نوح الذي ولد لهم، وهم من ذريته، فلما عادوا إلى جهالتهم، وتمردوا في طغيانهم، عاد عليهم بالتعذيب.

ثم ذكر الله ﷻ في ثلاث آيات بعد ذلك، معنى هذه القصة التي كانت لهم، بكلمات قليلة في العدد، كثيرة الفوائد، لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير، والكلام الطويل؛ ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة، على أعجب تدريج، وأبداع تأريخ، بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، لم ينقطع بذلك الكلام، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه، فكيف بإلقاء ما ليس منه في أثنائه، وطرح ما بعده في أدراجه؟ إلى أن خرج إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، يعني إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو، ثم خرج خروجاً آخر إلى ذكر القرآن.

وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علو الشأن، لا يطلب

(١) الشبيج: التعمية وعدم وضوح المعنى.

مطلباً إلا انفتح، ولا يسلك قلباً إلا انشرح، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة فقدرت أنه أقصى فوائدها إلا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا وقد أخلت. إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله، وأحمق من هبنقة^(١)، لو كان شعره كله كالأبيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة من قوله:

وسن كسنيق سناء وسنما ذعرت بمدلاج الهجير نهوض^(٢)
قال الأصمعي: لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم. وقال بعضهم:
السنيق أكمة. وقال فيها^(٣):

له قصر باعير وساقا نعامة كفحل الهجان القيصري العضوض^(٤)
وقوله:

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلجلة الذباب
وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها^(٥):

(١) هبنقة: رجل من بني قيس بن ثعلبة. واسمه: يزيد بن ثروان. ويكنى: ذا الودغات؛ لأنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف. مع طول لحيته. ولما سئل عن هذه القلادة قال: لئلا أضل فلا أعرف نفسي. فسرقها أخوه في ليلة ولبسها، فأصبح فراها في عنق أخيه. فقال لأخيه: أنت هبنقة. فمن أنا؟ فضرب به المثل في الحمق. وكان يقال عنه: أحمق بني قيس.

(٢) الدالج: الذي يحمل الدلو المملوءة بالماء ويمشي بها من رأس البئر حتى يفرغها في الحوض. والحوض: يسمى مدلج ومدلاج. الهجير والهجرة والهجرة: نصف النهار عند زوال الشمس من الظهر أو من العصر.

(٣) الضمير للقصيد التي قال فيها البيت السابق.

(٤) باعير: أصلها بعير. لكنه أشبع الباء بألف بعدها للوزن. والقصر: أعناق الإبل. الهجان من الأشياء: أجودها وأكرمها. ومن الإبل: البيض الكرام. والعضوض: ما يعض عليه فيؤكل.

(٥) أي في القصيدة التي منها البيت السابق.

- فقد طَوَّفْتُ في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
 وكل مكارم الأخلاق سارت إليها همتي وغما اكتسابي (١)
 وكقوله في قصيدة قالها في نهاية السقوط:
- أزمان فوها كلما نبهتها كالمسك فاح وظل في القدام (٢)
 أفلا ترى أظمانهن بواكرًا كالنخل من شوكان حين صرام (٣)
 وكأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام (٤)
 وكقوله:
- لم يفعلوا فعل آل حنظلة أنهم جَيرَ بسما ائتمروا (٥)
 لا حَمِيرِي وَفِي ولا عدس ولا اشتَ غير يحكها الثفر (٦)
 أن بني عوف ابتوا حسبًا ضيعه الداخلون إذ غدروا
 وكقوله:
- أبلغ شهابًا بل فأبلغ عاصمًا هل قد أتاك الخُبْرُ مال (٧)

(١) أي فيها هذان البيتان الجيدان صنعة ومعنى.

(٢) فوها: فمها. وكذلك: الفاه، والفوه، والقيه، والفوهة: الفم.

القدام: المصفاة من ليف أو غيره توضع في فم الإناء ليصفي بها ما يصب فيه.

(٣) أظمان: جمع ظمينة. وهي المرأة ما دامت في الهودج. وكذلك الهودج سواء كان فيه

ظمينة أم لا، شوكان: اسم مكان. صرام: جنى البلح من النخل وقطعه.

(٤) الموم: الشمع. وهو أيضًا: أشد أنواع الجديري خطورة.

(٥) جير: بكسر الراء وقد تنون: بمعنى القسم، وبمعنى: حقا. فيقال: جير لا أفعل كذا: أي

يمين أو قسم لا أفعله، أو حقا لا أفعله. وهي أيضًا بمعنى: نعم.

(٦) است عير: مؤخرة الحمار: ديره. الثفر: السير في مؤخرة السرج يدار على مؤخرة الحمار

أو الحصان.

(٧) الخير: الخير. مال: مرخم: مالك.

- (١) أنا تركنا منكم قتلى يخو عى، وسبايا كالسعالى (١)
 يمشين بين رحالنا معترفات ما بجوع وهزال
 ولم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى (٢):
 فأدخلك الله برد الجنان جذلان في مدخل طيب (٣)
 وقال أيضًا:
 فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها (٤)
 وقال في فرسه:
 ويأمر لليحموم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد يسبق (٥)
 وقال:
 وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مثل شلول شلشل شول (٦)

- (١) خوعى: اسم مكان، السعالى: جمع سعلاة. وهي: الغول أو ساحرة الجن.
 (٢) الأعشى: هو ميمون بن قيس، من بني ثعلبة. من فحول شعراء الجاهلية. سبق التعريف به.
 (٣) الجذل: الفرح الشديد والسعادة الغامرة.
 (٤) غفلة عينه: أي وقت كانت عينه غافلة عن زوجه. شاته: زوجته أو المرأة التي كانت معه.
 حبة قلبها وطحالها: كناية عن أنه أوقع المرأة في إساره.
 (٥) اليحموم: الشديد الحرارة. وفي التنزيل الشريف قوله - تَعَالَى -: ﴿وَطَلَّ مِن مَّحْمُورٍ ۝١٣٦﴾ لَا
 بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ [الواقعة: ٤٣ - ٤٤]. واليحموم أيضًا: الأسود من كل شيء والدخان
 الأسود الحار، وضرب من الحمام صغير الحجم سريع الطيران. ولعل الشاعر سمى فرسه:
 اليحموم تشبيهًا له بالدخان أو الحمام لسرعته.. القت: نوع من النباتات العشبية الكلئية
 بعضها يزرع وبعضها يرى، ترعاه الخيل والإبل وغيرها. تعليق: نوع من أشجار يسمى
 الملقى تدوم خضرته تأكله الماشية. يَسْتَنَقُّ: يتختم من كثرة الأكل. سنق من الطعام
 والشراب: بشم وأتخم.
 (٦) الحانوت: ماخور الخمار. والشاوي: الذي يقوم على الشواء من اللحم وغيره. المشل:
 سائق الدواب وغيرها. يقال: شل الدابة: ساقها. والشلول، والشلشل، والشول: كلها
 بمعنى: السريع الخفيف النشيط في عمله.

- وهذه الألفاظ في معنى واحد، وقد وقع لزهير^(١) نحوه، كقوله:
- فأقسمت جهداً بالنازل من مني وما سفحت فيه المقادم والقمل^(٢)
 كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها:
- وهل ينبت الخطيئاً إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل^(٣)
 وكقول الطرماح^(٤):
- سوف تدنيك من ليس سبتاً أمارت بالبول ماء الكراض^(٥)
 السبتة: الناقة الصلبة، والكراض: ماء الفحل. أسالت ماء الفحل مع البول
 فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف، والمائر: السائل.

فإن قال قائل: أجلك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، وبين اللطف والشكاسة، وبين التوحش والاستئناس، والتقارب والتباعد، ورأيت الكلام الأعدل أفضل، والنظام المستوثق أكمل، وأنت تجد البحترى يسبق في هذا الميدان، ويفوت الغاية في هذا الشأن، وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى، ما يتحير فيه أهل

(١) زهير: زهير بن أبي سلمى، من الطبقة الأولى لشعراء الجاهلية الفحول. سبق التعريف به.

(٢) النازل من مني: الأماكن المقدسة التي ينزل فيها الحجيج. سفحت: أريقت.

المقادم: ما استقبلك من الوجه: العين والأنف وكل أساريه.

(٣) الخطيئ: الرماح النسوبة إلى بلدة اشتهرت بصنعها. الوشيح: ما نبت من القنا أو القصب ملتفاً. واحدته: وشيجه.

(٤) الطرماح: هو الطرماح بن حكيم من طيء. كان جيد الشعر رصينه. وكان ديناً يرى رأي الخوارج الشراة. وكان إلى ذلك خطيباً راوية.

(٥) ليس: اسم امرأته.

ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل، فأما أن يظن ظان أو يتوهم متوهم، أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن، ﴿فَكَأَنَّمَا حَزَرَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ وإنما هي ^(١) خواطر، يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يرمي إليه، ويصح التوافي عليه في الجملة، فهو قبيل متداول، وجنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة.

ألا ترى إلى ما روي عن الحسين بن الضحاك ^(٢)، قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

وشاطريُّ اللسان مختلف التكريه ه زان المجون بالنسك
 كأنه - نُضِبَ كأسه - قمر يكرع في بعض أنجم الفلك ^(٣)
 قال: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها:
 أعاذل أعتبت الإمام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
 وقلت لساقيةها: أجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
 فجزوها عني عقارًا ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعًا مطنبا
 إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا ^(٤)

(١) الضمير للشعر. فهو خواطر. وإنما جعل الضمير مؤنثا نظرا إلى لفظة: «خواطر». (٢) الحسين بن الضحاك: أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الشاعر البصري المعروف «بالخليع» لشدة خلاعته وخبائثه ومجونته. توفي ٢٥٠ هـ عن قريب من مئة سنة. (٣) شاطري اللسان: حيث اللسان سريع البديهة في الكلام الماجن الخليع. (٤) لساقيةها: أي الخمر. أجزها: أتركها. أعطها غيري، أمير المؤمنين: هو الأمين. مطنبا: كثيرا ومتشرا.

والبيتان الأخيران يكذبان الشاعر الماجن في بيته الأولين. حيث ذكر أنه كان في ضميره أن يترك الخمر حتى قبل أن ينهأه أمير المؤمنين ويعذله عاذله. لكنه في البيتين الأخيرين تغزل في الخمر تغزل كلف بها عاشق لها لا سبيل له إلى تركها.

قال: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالته، فقال: أتظن أنه يُروى لك معنى وأنا حي؟

فتأمل هذا الأخذ، وهذا الوضع، وهذا الاتباع، أما الخليع فقد رأى الإبداع في المعنى، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه؛ لأن قوله: «يكرع» ليس بصحيح وفيه ثقل يبيِّن وتفاوت، وفيه إحالة؛ لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم، وأما قول أبي نواس: «إذا عب فيها» فكلمة قد قصد فيها المتانة، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملح، وقوله: «شارب القوم» فيه ضرب من التكلف، الذي لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله: «خلته يقبل في داج من الليل كوكبا» تشبيه بحالة واحدة من أحواله، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما يتناوله ليلا، فليس بتشبيه مستوفى، على ما فيه من الوقوع والملاحة.

وقد قال ابن الرومي^(١) ما هو أوقع منه وأملح وأبدع:

ومهفهف تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكئوس إلى مراشفه وتحن في يده إلى الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أناملٍ خمس
وكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس^(٢)
ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب، إلا أنه تمكن من إيرادته في بيتين، وهما - مع سبقهما إلى المعنى - أتيا به في بيت واحد.

* * *

وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس

(١) ابن الرومي: شاعر مطبوع مجيد رثاء وصاف.

(٢) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر. مراشفه: شفاهه. الحبس: تحن الكأس إلى أن تظل

بين أنامله أكبر مدة. عارض الشمس: جانبها.

والتعارض، والأطماع متعلقة بها، والهمم تسمو إليها، وهي إلف طباعنا، وطوع مدار كنا، ومجانس لكلامنا، وإعجاب قوم بنحو هذا وما يجرى مجراه، وإيثار أقوام لشعر البحري على أبي تمام^(١) وعبد الصمد^(٢) وابن الرومي، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه، وذهاب قوم عن المعرفة، ليس بأمر يضربنا ولا سب يعترض على أفهامنا.

* * *

(١) أبو تمام. حبيب بن أوس بن قيس من بني طيء، شاعر عباسي فحل، سريع البديهة جيد التخلص. توفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين.

(٢) عبد الصمد: شاعر عباسي مجيد، توفي سنة ست ومئتين.

نقد لامية البحرّي (١)

ونحن نعلم إلى بعض قصائد البحرّي، فتتكلّم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سر المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره.

سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد^(٢) يقول: سمعت أبا الفضل ابن العميد^(٣) يقول: سمعت أبا مسلم الرستمي يقول: سمعت البحرّي يذكر أن أجود شعر قاله:

أهلاً بذككم الخيال المقبل

قال: وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول: أجود شعره هو قوله في الشيب:

زجر له لو كان ينزجر

قال: وسئلت عن ذلك فقلت: البحرّي أعرف بشعر نفسه من غيره.

فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا.

(١) البحرّي: الوليد بن يحيى بن عبيد بن شملان.. ابن بحر الطائي شاعر من شعراء العباسيين المجيدين. توفي سنة أربع وثمانين ومئتين.

(٢) الصاحب بن عباد: هو إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالْقاني أبو القاسم الوزير الملقب بالصاحب كافي الكفاة. ولد في سنة أربع وعشرين وثلاثمئة، وأخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد، ولي الوزارة ثمانين عشرة سنة وشهراً لمؤيد الدولة ابن ركن الدين بن بويه ولأخيه فخر الدولة. وسمي «الصاحب»؛ لأنه صحب مؤيد الدولة من صغره وسماه الصاحب فغلب عليه. له مصنفات كثيرة أهمها: «المحيط باللغة». عشرة مجلدات. و«جوهرة الجمهرة»، وله ديوان شعره. توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمئة من الهجرة.

(٣) ابن العميد: كاتب مشهور في الدولة العباسية. كان صاحب الصنعة في الكتابة. وعنه أخذ الكثيرون طريقته. توفي سنة ستين وثلاثمئة.

قوله:

أهلا بـذلكم الخيالِ المقبلِ فعل الذي نهواه أو لم يفعل
بِزُقٍ سَرَى في بطن وجرة فاهتدَّت بسناه أعناقُ الركابِ الضليلِ^(١)
البيت الأول: في قوله: «ذلكم الخيال» ثقل روح وتضويل وحشو، وغيره
أصلح له. وأخف منه قوله الصنوبري:

أهلا بـذاك الزُّورِ من زورِ شمس بدت في فلك الدور^(٢)
وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير إلى الكزازة،
وتعود ملاحظته بذلك ملوحة، وفصاحته عتياً، وبراعته تكلفاً، وسلاسته تعشفاً،
وملاسته تلويهاً وتعقُّداً، فهذا فصل. وفيه شيء آخر، وهو أن هذا الخطاب إنما
يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله، فأما أن يحكي الحال التي كانت
وسلفت على هذه العيادة، ففيه عهدة^(٣)، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى
عقدة، وهو - لبراعته وحذقه في هذه الصنعة - يعلق نحو هذا الكلام، ولا ينظر في
عواقبه؛ لأن ملاحظة قوله تعضي على عيون الناظرين في نحو هذه الأمور، ثم قوله:
«فعل الذي نهواه أو لم يفعل»، ليست بكلمة رشيقة، ولا لفضة ظريفة، وإن كانت
كسائر الكلام.

فأما بيته الثاني: فهو عظيم الموقع في البهجة، وبديع المأخذ حسن الرواء،
أنيق المنظر والمسمع، يملأ القلب والفهم، ويفرح الخاطر، وترى بشاشته في
العروق. وكان البحثري يسمي نحو هذه الأبيات عروق الذهب. وفي نحوه ما
يدل على براعته في الصناعة، وحذقه في البلاغة، ومع هذا كله فيه ما نشرحه من
الخلل، مع الديباجة الحسنة، والروثق المليح. وذلك أنه جعل الخيال كالبرق،

(١) وجرة: اسم موضع. بطنه: المكان الحفيظ منه.

(٢) الزور: الزوار.

(٣) فيه عهدة: أي عيب ونقص. يقال: فيه عهدة لم تحكم: عيب ثم يعالج.

لإشراقه في مسراه، كما يقال: إنه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به، كذلك يضيء ما مرَّ حوله، وينور ما مرَّ به. وهذا غلو في الصنعة، إلا أن ذكره «بطن وجرة» حشو، وفي ذكره خلل؛ لأن النور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمان منها، بخلاف ما يؤثر في غيرها، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة. وتحديد المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة، لم يقنع بذكر حدّ حتى حدّه بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزلة، فيخشى - إن أخل بحد - أن يكون يبعه فاسدًا، أو شرطه باطلاً^(١). فهذا باب.

ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر، ودقة المطلب، ولطف المسلك، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه، ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب. ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحر يقطع الكلام الأول، وابتداءً بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة؛ لأن هذا القطع إن كان فعله كان خارجًا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعًا ثم كان، لا تكون فيه فائدة؛ لأن كل برق شعل وتكرر وقع الاهتمام به في الظلام، وكان لا يكون بما نظمه مفيدًا ولا متقدمًا، وهو على ما كان من مقصده، فهو ذو لفظ محمود، ومعنى مستحب غير مقصود، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات، وتعليق القول بالإشارات، وهذا من الشعر: الجنس الذي يحلو لفظه، وتقل فوائده، كقول القائل^(٢):

ولما قضينا من مَنى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسخ
وشدت على حذب المهاري رحالتنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

(١) تصوير تهكمي من المؤلف في غاية الإحكام والبراعة، وأيضًا فيها ظرف وطرافة لم تعهد من أمثال المؤلف الجادين المتشددين.

(٢) القائل هو: كثير الشاعر الأموي المجيد/ سبق التعريف به.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح^(١) هذه الألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع، حلوة المجاني والمواقع، قليلة المعاني والفوائد^(٢) فأما قول البحثري بعد ذلك:

من غادة منعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل
كالبدر غير مخبل، والغصن غير مميل، والدعص غير مهيل^(٣)
فالييت الأول: على ما تكلف فيه من المطابقة، وتجشّم الصنعة، ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضع العبرات في مثله، ولو قال: هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان.

وأما البيت الثاني: فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك، وإنما يبقى تشبيهه بثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضًا قريب؛ لأن المعنى مكرر، ويبقى له بعد ذلك شيء

(١) حذب المهاري: أي على ظهرها؛ لأن ظهر الإبل أحذب بسبب سنامه.

المهاري: جمع مَهْرِيَّة. وهي الإبل الجيدة نسبة إلى حي يسمى: مهرة بن حمدان.

(٢) لسنّا مع المؤلف الفاضل في أن الأبيات السابقة قليلة المعاني والفوائد، فالييت الأخير من أجمل أبيات الشعر العربي تصويرًا ومعاني. فقد صور الشاعر حالهم بعد التعب الشديد وانشغال كل منهم بنفسه عن الآخرين أثناء أداء النسل. وفراغهم من عناء المشاعر، بركوبهم جماعات، وأخذهم بأطراف الأحاديث: أي بالأحاديث ذات الطرافة والظرف. وقد تقاطرت الإبل في تتابع بأعدادها الكبيرة فملأت المسيل الواسع الذي انطلقت فيه كأنها مياه سال بها الوادي. ومن المجمع عليه عند علماء اللغة أن الشطر الثاني من البيت الأخير من أجمل الصور الفنية الجميلة في الشعر العربي.

(٣) غير مخبل: غير منقوص، مكتمل. والدعص: كتيب من الرمل مستدير. غير مهيل: متماسك وثابت في مكانه.

آخر، وهو عمله للترصيع في البيت كله، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضَرْبٌ من التكلف؛ لأن التشبيه بالغصن كاف، فإذا زاد فقال: كالغصن غير معوج، كان ذلك من باب التكلف خللاً، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها، وكذلك قوله «كالدعص غير مهيل»؛ لأنه إذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفًا إليه، فلا يكون لتقييده معنى. وأما قوله:

ما الحسنُ عندك يا سعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمالُ بمجمل
عُذِلَ المشوق، وإن من سيما الهوى في حيث تجهله لحاج العذل^(١)
قوله في البيت الأول: «عندك»، حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كلفة والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء، وفيه شيء آخر؛ لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهيج وجده وتهيم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب. وبيت كشاجم^(٢) أسلم من هذا وأبعد من الخلل، وهو قوله:

بحياة حسنك أحسني، وبحق من جعل الجمال عليك وقفًا أجملي
وأما البيت الثاني فإن قوله: «في حيث» حشا بقوله في كلامه، ووقع ذلك مستنكرًا وحشيًا، نافرًا عن طبعه، جافيًا في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن، فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله، ثم في المعنى شيء؛ لأن لحاج العذل لا يدل على هوى مجهول، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعذل عليه، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع، ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فإن ذلك جملهم الذلول، وقولهم المكرر.

(١) عذِلَ المشوق: أي عاتبه ولامه الناس. سيما: علامة وخصيصة. لحاج العذل: لوم العاذلين.

(٢) كشاجم: شاعر من شعراء العباسيين المشاهير

وأما قوله:

ماذا عليك من انتظارٍ متيمٍ بل ما يضرك وقفةً في منزلٍ
إن سيل عيٍّ عن الجواب فلم يُطق رجعًا فكيف يكون إن لم يسأل^(١)
لست أنكر حسن البيتين، وظرفهما، ورشاقتهما ولطفهما، وماءهما
وبهجتتهما، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربًا من الانقطاع؛ لأنه
لم يجر لمشافهة العاذل ذكر، وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا
البيت به ولا يلائم، ثم الذي ذكره من الانتظار، وإن كان مليحًا في اللفظ، فهو
في المعنى متكلف؛ لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرًا، وإنما يقف تحسرًا وتذللًا
وتحيرًا. والشطر الأخير من البيت واقع، والأول مستجلب، وفيه تعليق على أمر لم
يجرله ذكر؛ لأن وضع البيت يقتضي تقدم عذال على الوقوف، ولم يحصل ذلك
مذكورًا في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فإنه معلق بالأول لا يستقل إلا به،
وهم يعيرون وقوف البيت على غيره، ويرون أن البيت التام هو المحمود، والمصرع
التام بنفسه - بحيث لا يقف على المصرع الآخر - أفضل وأتم وأحسن. وقوله:
«فكيف يكون إن لم يسأل» مليح جدًا، ولا تستمر ملاحظة ما قبله عليه، ولا يطرد
فيه الماء اطراده فيه، وفيه شيء آخر؛ لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سببًا؛ لأن يعيا
عن الجواب، وظاهر القول يقتضيه.

فأما قوله:

لا تكلفن لي الدموع فإن لي دمعا ينم عليه إن لم يفضل
ولقد سكنت إلى الصدود من النوى والشري أرى عند طعم الخنظل

(١) سئل: سُئِلَ وخففت الهمزة فصارت ياء، وكسرت السين لمناسبة الياء. عجز: من
العي وهو العجز عن الكلام. فلم يطق رجعا: أي لم يستطع الإجابة.

وكذلك طرفة^(١) حين أوجس ضربة في الرأس هان عليه فصد الأكل^(٢) فالببت الأول مخالف لما عليه مذهبهم، في طلب الإسعاد بالدموع، والإسعاف بالبكاء. ومخالف لأول كلامه؛ لأنه يفيد مخاطبة العدل، وهذا يفيد مخاطبة الرفيق.

وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها، دون ضبط المعاني وترتيبها؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]، فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم، وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن، فصار بهذا أبلغ خطابهم، ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر، أو كلام متكلم. وأما قوله: «والشري أرى»، فإنه وإن كان قد تصنع له من جهة الطباق، ومن جهة التجنيس المقارب، فهي كلمة ثقيلة على اللسان، وهم يذمون نحو هذا، كما عابوا على أبي تمام قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ما لمته لمته وحدي^(٣)
 ذكر لي الصاحب بن عباد^(٤) أنه جرى أبا الفضل بن العميد في محاسن القصيدة، حتى انتهى إلى هذا البيت، فذكر له أن قوله: «أمدحه أمدحه» معيب، لثقله من جهة تدارك حروف الحلق، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. من الفحول المجيدين. سبق التعريف به.

(٢) لا تكلفن: لا تكلف البكاء. ينم عليه: يماثله ويدل عليه. الصدود: الهجر. الثوى: البعد. الشري: الحنظل، وفسائل النخل تنبت عن النواة، والمراد الأول. الأري: العسل، يقال: أرى النحل أرياً: صنع العسل. والأري أيضاً: الندى يسقط على أوراق الشجر، وما التصق بجوانب القدور من الطعام، والمراد المعنى الأول. الأكل: وريدي وسط الذراع يفصد ويحقن فيه الدواء. (٣) الورى: الخلق كافة. (٤) الصاحب بن عباد: كاتب ووزير مشهور. تقدم التعريف به.

هذه النكتة، فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف. ثم أن قوله: «عند أكل الحنظل» ليس بحسن ولا واقع. وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه، نافر من جملة شعره، وفيه كرازة وفجاجة^(١) وإن كان المعنى صالحاً. فأما قوله:

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رحمت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل^(٢)
فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروج حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام، وعامة خروجه نحو هذا، وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه. لأن من كان صناعته الشعر، وهو يأكل به، وتغافل عما يرفع إليه في كل قصيدة، واستهان بإحكامه وتجويده، مع تتبعه لأن يكون عامة ما يُصدّر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات، وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الألفاظ وتزويرها، كان ذلك أدخل في عيبه، وأدل على تقصيره أو قصوره، وأنه لا يقع له الخروج منه.

وأما قوله: «وأغر في الزمن البهيم محجل»، فإن ذكر التحجيل في الممدوح قريب، وليس بالجيد، وقد يمكن أن يقال: إنه إذا قرن بالأغر حسن، وجرى مجراه، وانخرط في سلكه، وأهوى إلى مضماره، ولم ينكر مكانه من جواره، فهذا عذر، والعدول عنه أحسن. وإنما أراد أن يرد العجز على الصدر، ويأتي بوجه

(١) الكُرْزَاة والكُرْزَاة: تشنج وانقباض في العضلات. والمراد ما يسببه من امتعاض وتقزز. والفجاجة: عدم النضج. والفتح: غير النضج من الفواكه. وهو يصيب الإنسان الذي يأكله بمثل ما تصيبه الكُرْزَاة.

(٢) الأغر: الفرس الذي في جبهته بياض. والبهيم: ذو اللون الواحد الذي لا يخالطه لون آخر. ويغلب في الرمادي والأسود. والمحجل: الفرس غير الأبيض الذي في قوائمه بياض. والهيكل: الفرس القوي عظيم الجسم. وكذلك معبد النصرى أو متوجّه صلاتهم داخل المعبد أو الكنيسة.

التجنيس. وفيه شيء؛ لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطيًا الأعر الأول، ورائحًا عليه، ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء، وأقويل الناس، فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني، ورده عجز البيت عليه، وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة، وعمل شيئًا حتى كررها، فهي كلمة فيها ثقل، ونحن نجدهم إذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا: ما هو إلا صورة، وما هو إلا تمثال، وما هو إلا دمية، وما هو إلا ظبية، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان، وقد استدرك هو أيضًا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل. ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين^(١) لراعوهم بها، وأفزعوهم بذكرها، وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم.

وأما قوله:

وإفي الضلوع يشد عَقْدَ حزامه يوم اللقاء على مُعَمِّ مُخَوِلِ

أحواله للرستمين بفارس وجدوده للثَّبَعَيْنِ بموكل^(٢)

نبل المحزم^(٣) مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببيدع، وقوله: «يشد عقد حزامه» داخل في التكلف والتعسف، لا يقبل من مثله، وإن قبلناه من غيره؛ لأنه

(١) يقصد السحرة ومؤاخي الجن الذين يستحضرون الجن أو الشياطين بكلمات وألفاظ يكررونها بهيئات معينة يزعمون أنها تجلب جنهم وشياطينهم. ويطلقون على هذه الألفاظ والعبارات مصطلح: عزيمة، وجمعها: عزائم وضد هذه العزائم ما يسمى: تعويذة. وهي كلمات وعبارات تحفظ الناس من شر هؤلاء الذين يؤاخذون الجن ويسخرون الشياطين. من هذا قيل: التعاويذ تبطل العزائم. أي تبطل تأثيرها.

(٢) وإفي الضلوع: سويها كاملها. معم مخول: كريم الأعمام كريم الأحوال. صاحب نسب وصاحب حسب. للرستمين: مثني رستم القائم الفارسي الشهير. والتبعين: تثنية تبع ملك حمير.

(٣) المحزم: مكان شد الحزام من الدابة، ولكنه في الممدوح كناية عما يعتمد عليه من أصل عريق بينه الشاعر في البيت الثاني.

يتتبع الألفاظ، وينقدها نقدًا شديدًا. فهلا قال: «يشد حزامه»، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد، فقد عقّد هذا البيت بذكر العقد. ثم قوله: «يوم اللقاء» حشو آخر لا يحتاج إليه.

وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه، لأنها غير مجانسة لطباعه، وفيها غلط ونفار.
وأما قوله:

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيدًا وينقض انقضا الأجدل
متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته يومًا خلائق حمدويه الأحوال^(١)
البيت الأول صالح، وقد قاله الناس ولم يسبق إليه ولم يقل ما لم يقلوه، بل هو منقول، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها، وقد يقولون: يفوت الطرف ويسبق الريح، ويجاري الوهم، ويكر النظر. ولولا أن الإتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب لنقلت لك جملة مما ذهبوا إليه في هذا المعنى، فتتبع تعلم أنه لم يأت فيها بما يجمل عن الوصف، أو يفوت منتهى الحد، على أن الهوى يذكر عند الانقضا خاصة، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة، إلا أن يشبه حده في العدو بحالة انقضا البازي والعقاب، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها.

وأما البيت الثاني فقوله: إن الأذنين كأنهما من ورق موصل، وإنما أراد بذلك حدتهما، وسرعة حركتهما، وإحساسهما بالصوت، كما يحس الورق بحفيف الريح، وظاهر التشبيه غير واقع، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنًا،

(١) العقاب: من كواسر الطير قوي الخالب حاد البصر. وفي المثل: «أبصر من عقاب». ولغظه للمذكر والأُنثى. الأجدل: الصقر. رقيقتين: أذنين. القذى: ما يسقط من الغبار وخلافه فيفسد الماء، ويؤذي العين.

ولكن لا يدل عليه اللفظ، وإنما يجري مجرى المضمن، وليس هذا البيت برائق اللفظ، ولا مشاكل فيه لطبعه، غير قوله: «متوجس برقيقتين»، فإن هذا القدر هو حسن.

وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى، والذي وقع للبحثري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى، وهو بيت وَحِشٌ جَدًّا قَد صَار قَدَى فِي عَيْنِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، بِل وَحْرًا فِيهَا، وَوَبَالَا عَلَيْهَا، قَد كَدَّرَ صَفَاءَهَا، وَأَذْهَبَ بِهَاءَهَا وَمَاءَهَا، وَطَمَسَ بِظَلْمَتِهِ سَنَاها، وَأَمَّا وَجْهٌ مَدْحُ الْفَرَسِ بِأَنَّهُ لَا يَعَافُ قَدَى مِنَ الْمِيَاهِ إِذَا وَرَدَهَا؛ كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ بَشَارٍ^(١) فِي قَوْلِهِ:

وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمٍ

وإذا كان لهذا الباب مجانبا وعن هذا سمت بعيدا، فهلا وصفها بعزة الشرب؛ كما وصفها المتنبي في قوله:

وَصَوْلٌ إِلَى الْمَسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا^(٢)

يقول الشاعر: لو كان الماء عند قرن الشمس لأورد خيله ذلك الماء.

وهلا سلك فيه مسلك القائل:

وَإِنِّي لِلْمَاءِ الَّذِي شَابَهُ الْقَدَى إِذَا كَثُرَتْ وَرَادُهُ لَعِيُوفٍ^(٣)

ثم قوله: «ولو أوردته يوما» حشو بارد، ثم قوله: «حمدويه الأحول» وَحِشٌّ

(١) بشار بن برد: شاعر أعمى مطبوع. كان مولى من الموالي. وكان يُرمى بالزندقة. وهو من فحول الشعراء. سبقت الإشارة إليه.

(٢) المستصعبات: الأماكن الصعبة الوصول إليها. قرن الشمس: أول ما يظهر منها عند الشروق، وآخر ما يغيب منها لدى الغروب، لكن الشائع استعمال ذلك عند الشروق. من ذلك قولهم: ذر قرن الشمس.

(٣) شابه: خالطه ومازجه. عيوف: كاره له منصرف عنه.

جداً، فما أمقت هذا البيت وأبغضه، وما أثقله وأسخفه، وإنما غطى على عينه عيبه، وزين له إيراده طمعه في الاستطراد، وهلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجة كلامه، ولا معنى ألفاظه، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر.
فأما قوله:

ذنب كما سحب الرداء يذب عن عرف، وعرف كالقناع المسبل
تتوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل^(١)
فالبيت الأول: وحش الابتداء، منقطع عما سبق من الكلام، وقد ذكرنا أنه لا يهندي لوصل الكلام ونظام بعضه إلى بعض، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه، وكان يحتاج أن يقول: ذنب كالرداء، فقد حذف والوصل غير متسق ولا مليح، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله. ثم قوله: «كما سحب الرداء» قبيح في تحقيق التشبيه، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة، إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء. وقوله: «يذب عن عرف» ليس بحسن ولا صادق، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس، وهو قوله:

فويق الأرض ليس بأعزل^(٢)

وأما قوله: «تتوهم الجوزاء في أرساغه» فهو تشبيه مليح، ولكنه لم يسبق إليه، ولا انفرد به، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم، وغير ذلك من الأمور، وتشبيه الحجول، لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها، وأمور مليحة قد ذهبوا إليها وليس ذلك موضع كلامنا، فلتبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك.

• • •

(١) الذنب: الذيل. والعرف: ما يسمن عنق الفرس من الشعر. القناع المسبل: الخمار المرخي. الجوزاء: نجم ورج من بروج الفلك. أرساغه: جمع رسع وهو موصل الحافر بما فوقه من رجل الفرس ويده.

(٢) فويق: تصغير فوق. الأعزل من الدواب: ما كان ذنبه مائلاً إلى أحد الجانبين.

واعلم أنا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس؛ لأنه ذكر عشرين بيتاً في ذلك، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطاً إلى حد لا يفوت طريقة الشعراء.

ولو تتبعنا أقاويل الشعراء في وصف الخيل، علمت أنه وإن جمع فأوعى، وحشر فنادى، ففيهم من سبقه في ميدانه، ومنهم من ساواه في شأوه، ومنهم من دانه، فالقبيل واحد، والنسيج متشاكل، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك، لتقف على ما قلت.

فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة.
قال:

محمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل
وسحابة لولا تتابع منزلها فينا لراح المزن غير مبخل
والجود يعدله عليه حاتم سرفاً ولا جود لمن لم يعدل^(١)
البيت الأول منقطع عما قبله، على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني،
وفصله بينها، وقلة تأتبه لتجويد الخروج والوصل. ذلك نقصان في الصناعة،
وتخلف في البراعة، وهذا إذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها، وأما إذا كان بناء
الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له. وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما
سبق إليه، وهو شيء مشترك فيه، وقد قالوا في نحوه: إن مجده السماء، وقالوا في
نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه، وكما قال المتنبي:

وعزمة بعثتها همة زحل^(٢) من تحتها بمكان الترب من زحل^(٢)

- (١) محمد بن علي: الممدوح. الجوزاء: نجم مشهور. المزن: السحاب، أو الأبيض منه والمطر.
المراد هنا المطر الناشئ عن السحابة المذكورة. يعدله: يلومه. حاتم: جاهلي مشهور
بالكرم. يضرب به المثل في ذلك.
- (٢) زحل: أبعد الكواكب السيارة في النظام الشمسي. وهو كبير الآلهة في الأساطير =

وحدثني إسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل، ثم قال لمن حضره: أتدري من هذا؟ هو الذي قال في أبيه البحترى: «لمحمد بن القاسم^(١) الشرف الذي». فذلك يدل على استعظامه للميت بما مدح به من البيت.

والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب، وهو حديث مكرر، ليس ينفك مديح شاعر عنه، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع، كما قد يقع لهم في نحو هذا، ولكنه لم يتصنع له وأرسله إرسالا. وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل، وذلك أن المزن إنما يخل إذا منع نيله، فذلك موجود في كل نيل ممنوع، وكلاهما محمود مع الإسعاف، فإن أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه، وإن كان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه، حتى إنه قد يخل في وقت والآخر لا يخل بحال، فهذا جيد، وليس في حمل الألفاظ على الإشارة إلى هذا شيء.

والبيت الثالث: وإن كان معناه مكررا، فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم، يشبه ألفاظ المبتدئين.

وأما قوله:

فضل وإفضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضل^(٢)
سار إذا أدلج العفاة إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجل^(٣)
فالبيت الأول منقطع عما قبله، وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس

= الإغريقية.

يقول: إن همة المدوح أعلى من زحل قدر علو زحل عن الترب أي عن الأرض.
(١) المذكور في البيت: محمد بن علي، وليس: محمد بن القاسم. وشطر البيت: «لمحمد بن علي».
(٢) المدى: نهاية الفضل وغايته.

(٣) ادلج: سار في آخر الليل، أو سار الليل كله. والدلجة: السير في أول الليل. وفي الحديث الشريف: «عليكم بالدلجة؛ فإن الأرض تطوى بالليل». العفاة: الضيوف، وكل طالبي المعروف، لا يصنع المعروف.. إلخ؛ أي: يعجل إلى صنع المعروف، ولا يتريث، أو يتردد.

بيديع، لتكرره على كل لسان، وقوله: «ما أخذ المدى» فإنه لفظ مليح، وهو كقول القائل:

قد أركب الآلة بعد الآلة

وروي: الحالة بعد الحالة. وكقول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
ولكنها طريقة مذلة، فهو فيها تابع.

وأما البيت الثاني: فقريب في اللفظ والمعنى، وقوله: «لا يصنع المعروف» ليس بلفظ محمود.

وأما قوله:

عالٍ على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل
أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول^(١)
فالبيت الأول منكر جدًا في جر النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو، والتكلف فيه واقع.

والبيت الثاني أجنبي عنه، بعيد منه، وافتتاحه رديء، وما وجه الاستفهام والتقدير والاستبانة والتوقيف؟ والبيتان أجنيان من كلامه، غريان في قصيدته، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد، ألا ترى أنه قال بعد ذلك:

نفسى فداؤك يا محمد من فتى يوفي على ظلم الخطوب فتجلى^(٢)

إني أريد أبا سعيد، والعدي بيني وبين سحابه المتهلل^(٣)

(١) أحبل: جمع حبل. أفراد النجوم: بعض النجوم.

(٢) ظلم: جمع ظلمة. الخطوب: الحزن والدواهي. يوفي: يعين على إجماع الظلم وكشف الدواهي بما يعطي ما يكفي ويزيد.

(٣) سحابه المتهلل: أي نداء وكرمه القريب من العفاة. شبهه بالسحاب الذي أهل على الناس بما يحمل من مطر وغيث.

كان هذا ليس من طبعه ولا من سبكه.
وقوله:

مضر الجزيرة كلها وريعة الخابور توعدني وأزد الموصل
قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل^(١)
البيت الأول حسن المعنى، وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه
التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق
منه، كقوله^(٢):

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلفظ، وهو
قيح اللفظ، حيث يقول فيه: «فثنه لأخيك من أدد أبيك»، ومن أخذه بهذا
التعرض لهذا السجع، وذكر هذا النسب، حتى أفسد به شعره.
وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف، يقول:

يتناول الروح البعيد منالها عفواً، ويفتح في القضاء المقفل
بإبانة في كل حتفٍ مظلمٍ وهدايةٍ في كل نفسٍ مجهلٍ
ماضٍ، وإن لم يمضه يد فارس بطل، ومصقول وإن لم يصقل^(٣)

(١) أسماء قبائل وموضع كل قبيلة. فمضر بالجزيرة، وريعة في خابور. وأزد بالموصل.
الطرف: الكريم من الناس والخييل ونحوها. والمراد هنا: الفرس الكريم. الأدد: امتداد
الطريق واستقامته. وهنا: اسم جد المدوح الأعلى. المثصل: بضمين بينهما سكنون.
السيف.

(٢) القائل: جرير، شاعر أموي شهير مجيد. سبق التعريف به.

(٣) عفواً: أي يسر ودون مشقة. الحتف: الموت.

والشطر الثاني من البيت الأول فيه إلحاد واضح. فإن قضاء الله - تعالى - في الآجال وفي
كل شيء لا يفتح أحد مغالقه، ولا يعلق مفاتحه. وإنما ذلك لله - سبحانه - وحده. وقد =

ليس لفظ البيت الأول بِمُضَاهٍ لِدِيَاجَةِ شعره، ولا له بهجة نظمه، لظهور أثر التكلف عليه، وتبين ثقل فيه، وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود، ولا مرضي، واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به، وهلا عيب عليه، كما عيب على أبي تمام قوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودًا ركوبًا^(١)
وقالوا: يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه، وقد اتبعه البحرني في استعارة الأخدع، ولو عا باتباعه، فقال في الفتح:

واني وقد بُلِّغْتِي شرف العلا وأعتقت من ذل المطامع أخدعي
إن شيطانه حيث زين له هذه الكلمة، تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة - لخبث مارد ورديء معاند^(٢)، أراد أن يطلق أعنة الذم فيه، ويسرح جيوش العتب إليه، ولم يقنع يقفل القضاء، حتى جعل للحتف ظلمة تُجَلِّى بالسيف، وجعل السيف هاديًا في النفس المجهل الذي لا يهتدي إليه، وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتعميقه شيء؛ لأن السلاح وإن كان معيًّا فإنه يهتدي إلى النفس، وكان يجب أن يبدع في هذا إبداع المتنبي في قوله:

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صُغِّتَ الأسنه من هموم فما يخطرن إلا في الفؤاد^(٣)

= قدر الله - تعالى - وقضى كل شيء فلا جديد، بيد هذا الشاعر ولا ممدوحه.

(١) الأخدعان: عرقان على جانبي العنق. والعود: البعير المسن. والركوب: البعير الذي ترك القتب آثاره فيه.

(٢) لخبث مارد، ورديء معاند: خير: إن شيطانه.

(٣) الهام: الرؤوس. الهيجا: الحرب. شبه عمل السيوف في الرؤوس بإسقاطها على الأرض بعمل النوم في العيون بجماع الرقاد والانطراح على الأرض في كل. كما شبه السيف في خلوصه إلى قلب العدو بالهم الذي لا يسكن إلا القلوب. والبيتان على قدر من الجمال =

فلا هتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن.
وفي البيت الأول شيء آخر، وذلك أن قوله: «ويفتح في القضاء» في هذا
الموضع حشو رديء، يلحق بصاحبه اللكنة، ويلزمه انهجئة.
وأما البيت الثالث فإنه أصلح هذه الأبيات، وإن كان ذكر الفارس حشوًا
وتكلفًا ولفظًا؛ لأن هذا لا يتغير بالفارس والراجل، على أنه ليس فيه بديع.
وأما قوله:

يفشى الوغى والترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل^(١)
مصغ إلى حكم الردى، فإذا مضى لم يلتفت، وإذا قضى لم يعدل
متوقد يسري بأول ضربة ما أدركت ولو أنها في يذبل^(٢)
البيتان الأولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه، وهي طريقه الذي
يجتنيها، وذلك من السبك الكتابي، والكلام المعتدل، إلا أنه لم يبدع فيها بشيء،
وقد زيد عليه فيها، ومن قصد إلى أن يكمل عشرة أبيات في وصف السيف
فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة، وأمور مذكورة، وسبيله أن يغرب
ويبدع، كما أبدع المتنبي في قوله:

سله الركض بعد وهن بنجد فتصدى للغيث أهل الحجاز^(٣)

= لا ينكر.

(١) الوغى: الحرب. الترس والدرع: من لباس الحرب يتقي بها وقع الأسنة والنصال. ليس
بجنة: لا تمنع عنه القتل. وكذلك: ليس بمعقل.

(٢) الردى: الموت. يذبل: اسم جبل. يرى: يقطع.

(٣) سله: أخرجه من غمده. الركض: نوع من العدو السريع. الوهن، وكذلك الموهن:
الوقت من نصف الليل، أو بعد ساعة من الليل. الغيث: المطر. تصدى: تعرض. نجد
والحجاز: معروفان.

هذا في باب صقاله وأضوائه وكثرة مائة، وكقوله^(١):

ريان، لو قذف الذي أسقيته لجرى من المهجات بحر مزيد^(٢)
وقوله: «مصغ إلى حكم الردى» إن تأملته مقلوب، كان ينبغي أن يقول:
يصغي الردى إلى حكمه، كما قال الآخر:

فالسيف يأمر والأقدار تنتظر

وقوله: «وإذا قضى لم يعدل» متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس
هذا المعنى.

والبيت الثالث سليم، وهو كالأولين في خلوه عن البديع.
فأما قوله:

فإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل
وكأنما سود النمال وحمرها دبب بأيد في قراه وأرجل^(٣)
البيت الأول يقصد به صنعة اللفظ، وهو في المعنى متفاوت؛ لأن المضرب
قد لا يكون مقتلاً، وقد يطلق الشعراء ذلك، ويرون أن هذا أبداع من قول المتنبي
وأنه بضده:

يقتل السيف في جسم القتل به وللسيوف كما للناس آجال^(٤)
وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا، وتقطيع السيف
ضربا. وفي قوله: «وإذا أصيب فما له من مقتل» تعسف؛ لأنه يريد بذلك أنه لا
يتكسر، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه، يتضمن التكلف وضرباً من
المحال، وليس بالنادر، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره، ونحوه قال بعض

(١) أي: المتنبي.

(٢) ريان: قد شرب من دم الأعداء حتى ارتوى. المهجات: جمع مهجة. وهي: النفس.

(٣) القرا: الظهر، ووسطه.

(٤) يقتل السيف: أي يكسر السيف أو يكمل حده من كثرة الضرب به.

أهل الزمان:

يقصف في الفارس السمهري و صدر الحسام فريقًا فريقًا^(١)
والبيت الثاني أيضًا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء، وأما تصنيعه بسود
النمال وحررها فليس بشيء، ولعله أراد بالحر الذر، والتفصيل بارد، والإعراب
به منكر، وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال: كان كذا حين كانت الثريا بحذاء
رأسي على سواء، أو منحرفًا قدر شبر، أو نصف شبر، ويمقته الناس^(٢)، ورب
زيادة كانت نقصانًا، وصفة النمل بالسواد والحمرة في هذا من ذلك الجنس،
وعليه خرج بقية البيت في قوله:

دبت بأيدي في قراه وأرجلي

وكان يكفي ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي. ووصف الفرند^(٣) بمدب النمل
شيء لا يشذ عن أحد منهم.
وأما قوله:

وكان شاهره إذا استضوى به الزحفان يعضى بالسماك الأعزل

(١) السمهري: رمح جيد الصنعة.

(٢) أي: التنطع في ذكر تفاصيل لا حاجة إليها ولا غناء فيها، لكنها تشغل عن الأهم منها.
فالشاعر في ذكره النمل، ذكر ألوانها سودًا وحرًا. وماذا يفيد ذلك؟ وما أثره أن تكون
كلها سودًا أو حرًا أو خليطًا، وماذا يهم السامع من ذلك؟. ثم فصل تفصيلًا أقيح.
فذكر أنها تدب بأيديها وأرجلها. وهل هناك نملة أو نمل يدب بأيديه فقط أو أرجله فقط؟
ومثل ذلك في التفصيل القبيح؛ ذلك الأعرابي الذي أخذ يحدد موقع الثريا من رأسه
بالشبر ونصف الشبر والإصبع. فهذا تنطع يمقته الله - سبحانه - ورسوله ﷺ والناس. وقد
قال الرسول ﷺ «هلك المنتطعون» وإن لم يكن هذا القول الشريف في الشعر والشعراء
فلا ضمير من الاستشهاد به.

(٣) الفرند: السيف، وما يلعب في صفحته من أثر توج الضوء وانعكاسه عليه. والمقصود هنا:
السيف.

حملت حمائله القديمة بقله من عهد عادٍ غضة لم تذبل^(١) والبيت الأول منهما فيه ضرب من التكلف، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم، وإنما يقول: «قمر يشد على الرجال بكوكب»، فجعل ذلك الكوكب السماك، واحتاج إلى أن يجعله أعزل للقافية، ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيرًا له؛ لأن هذه الصفة في هذا الوضع تفضيه من الموضع، وموضع التكلف الذي ادعيناه، الحشو الذي ذكره من قوله: «إذا استضوى به الزحفان» وكان يكفي أن يقول: كأن صاحبه يعصي بالسماك، وهذا وإن كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على ما بيناه.

وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله: «حمائله قديمة»، ولا فضيلة له في ذلك، ثم تشبيه السيف بالقله من تشبيهات العامة، والكلام الرذل النذل؛ لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن. ثم انظر إلى هذا المقطع الذي هو بالعي أشبه منه بالفصاحة، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة، وقد بينا أن مراعاة الفواخ والحواتم، والمطالع والمقاطع، والفصل والوصل، بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه، وإن الإخلال بذلك يخل بالنظم، ويذهب رونقه، ويحيل بهجته، ويأخذ ماءه وبهائه.

* * *

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت؛ لأن هذا القبيل قبيل موضوع متعمل مصنوع، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة ثم يتعمل الألفاظ، ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها، ولا يتأمل مطارحها، وقد

(١) شاهره: الضمير للسيف. استضوى: استضاء. الزحفان: الجيشان. السماك: نجم في السماء معروف وهما سماكان أحدهما في الشمال ويسمى: السماك الرامح. والثاني في الجنوب. ويسمى السماك الأعزل. وهو الذي ذكره الشاعر هنا. البقله: واحدة البقل. وهو نبات عشبي يغتذي الإنسان به أو ببعضه مثل: البازلاء. والماشية ترعاها فتسمن. غضة: الطرية لم تجف.

يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض، وتصوير المعاني التي في النفوس، ولكنه يلحق بأصل بابه، ويميل بك إلى موضعه، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل.

وإن أردت أن تعرف أوصاف الفرس، فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا في ذلك بما يقع إليك، إن كنت من أهل الصنعة، مما يطول عليّ نقله وكذلك في السيف. وذكر لي بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري:

حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين^(١)
سيف عمرو وكان - فيما سمعنا - خير ما أطبقت عليه الجفون^(٢)
أخضر اللون بين برديه حد من ذعاف تميم فيه المنون^(٣)
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم ذابت له الذعاف القيون^(٤)
فإذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الأبصار كالقبس المشعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والرونق الجاري في صحفته ماء معين^(٥)
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيجاء يعصي به ونعم القرين^(٦)

(١) صمصامة: السيف الصارم الذي لا يشي. الزبيدي: عمرو بن معد يكرب الزبيدي. الأنام: الخلق.

(٢) خير ما أطبقت عليه الجفون: أطبقت بسببه الجفون. أي خير السيوف فتكاً.

(٣) الذعاف: السم الشديد. تميم: تختال وتهادى. المنون: النية.

(٤) ذابت: أذابت. الذعاف: السم. القيون: الحدادون صناع السيوف. يقول: إن الذين صنعوا السيف أوقدوا عليه النار ثم نفعوه في السم. وكان من عاداتهم المألوفة تسميم السيوف والخناجر.

(٥) الفرند: السيف. أو انعكاس الضوء على صفحته. الرنق: اللمعان والبريق.

(٦) المخراق: الرجل الحسن الجسم، والنافذ في الأمور. والسريع إلى الحرب الشديد فيها.

يقال: هو مخراق حرب. أي سريع إليها شغوف بها. والمعنى الأخير هو مراد الشاعر. =

ما يبالي إذا انتحاه بضرب أشمال سطت به أم يمين^(١) وإنما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقتة، ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره، أو في منزلته، ومعرفة أجناس الكلام، والوقوف على أسرارها، والوقوف على مقدارها، شيء وإن كان عزيزًا، وأمر وإن كان بعيدًا، فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينقدون الحروف ويعرفون الصروف. وإنما تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحترى وأبي تمام وابن الرومي وغيره، ونحن وإن كنا نفضل البحترى بدياجة شعره على ابن الرومي، وغيره من أهل زمانه، وتقدمه، بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله، والشعر قبيل ملتبس مستدرك، وأمر ممكن منطبع، ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكنت قد ذكرت لك قبل هذا أنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدربًا، وفيه متوجهًا متقدمًا أمكنك الوقوف على ما ذكرنا، والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس في مجلس المقلدين، وأرض بمواقف المتحيرين. ونصحك لك حيث قلت: انظر هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجواهر، وبدائع الياقوت، ودقائق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور، ومقدماتها^(٢)؟ وهل يقطع سمت

= ذي الحفيظة: الحفيظة: الغضب، وشدة الحمية، وشدة الحذر. وأهل الحفاظ: هم المدافعون عن أعراضهم وديارهم. الهيجاء: الحرب. يعصي به: يضرب به كما يضرب أهل العصي بالعصي. القرين: الصاحب الملازم.

(١) انتحاه: قصد إليه. أي إذا قصد عدوه ليضربه بالسيف ما يبالي جاءت الضربة يمنة أو يسرة.

(٢) يقول إن طالب كل صنعة لن يصل إليها إلا إذا عرف أسرارها ومقدماتها والوسائل التي بها يجيد تلك الصنعة. ومثل ذلك صناعة اللغة. فلا ينبغي أن يتكلم في إعجاز القرآن إلا من كانت لديه البراعة والسبق في هذه الصناعة. أو الصنعة. كما يسميها المؤلف. رَجَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى ..

البلاذ من غير اهتداء فيها؟ ولكل شيء طريق يتوصل إليه به، وباب يؤخذ نحوه فيه، ووجه يؤتى منه، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك. وأغمض وأدق وألطف، وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه وكأنك مشاهده. وإن كان قد يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والأمانة، كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح، فلإشارات أيضًا مراتب، ولللسان منازل، ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه، ورب وصف يربو عليه ويتعداه، ورب وصف يقصر عنه.

ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة واتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، وإلى استيفاء وتقريب، وإلى غير ذلك من الوجوه. وكل مذهب وطريق له باب وسبيل.

فوصف الجملة الواقعة كقوله - تَعَالَى - : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ [الكهف: بعض آية ١٨]، والتفسير كقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] إلى آخر الآيات في هذا المعنى، وكنحو قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَقِيٌّ عَظِيمٌ﴾ [الحج: الآية ١٠]، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآية ١١]، هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم. ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة، كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠ - ٥١]. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا آتًا مَأْمَنًا يَأْتِيَتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أُنْفِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦]، وهذا ينبي عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسه. ومن باب التسخير والتكوين قوله - تَعَالَى - : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٢٨]، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:

بعض آية ٦٥]، وكقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].
وتقصي أقسام ذلك مما يطول، ولم أقصد استيفاء ذلك، وإنما ضربت لك
المثل بما ذكرت، لتستدل، وأشرت إليك بما أشرت لتأمل.

* * *

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحترى؛ لأن الكتاب يفضلونه على أهل
دهره، ويقدمونه على من في عصره، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوًا. ويزعم أنه
ينبغي النجم في قوله علوا. والملحدة تستظهر بشعره، وتكثر بقوله، وتدعى
كلامه من شبهاتهم، وعباراته مضافًا إلى ما عندهم من ترهاتهم^(١)، فبينا قدر
درجته، وموضع رتبته، وجد كلامه، وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس
منه، وأن يكون الليل كالنهار، والباطل كالحق، وكلام رب العالمين ككلام البشر.
فإن قال قائل: فقد قدح الملحد في نظم القرآن، وادعى عليه الخلل في البيان،
وأضاف إليه الخطأ في المعنى واللفظ، وقال ما قال، فهل من فصل^(٢).

وقيل: الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا إليه، وصنف أهل
الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وضع إليهم فشفوا، ولولا ذلك
لاستقصينا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه، في التفصيل
والكشف عن إعجاز القرآن، فلم نجد على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن
يكون ذلك مغنيًا ووافيًا. وإن سهل الله لنا ما نوبناه من إملاء «معاني القرآن»^(٣)
ذكرنا في ذلك ما يشتهه من الجنس الذي ذكروه؛ لأن أكثر ما يقع من الطعن

(١) الثُّرَمَات: واحدها تُرْمَةٌ وهي: الباطل. والقول الخالي عن النفع. والترهه أيضًا: الفلاة.
والطريق الصغير المتشعب من الطريق الأكبر. والمراد المعنى الأول.

(٢) أي: فهل من جواب يبين لنا وجه ذلك الاعتراض من الحق؟

(٣) كثرت إشارات المؤلف في ثنايا الكتاب إلى نيته في تأليف كتاب يسميه: «معاني القرآن»
يرد فيه على الشبهات الموجهة إلى القرآن العظيم.

عليه، فإنما يقع على جهل القوم بالمعاني، أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قال النبي ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(١)، وقد قصدنا فيما أملينا الاختصار، ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بينا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل^(٢)، والحكم بين فضل زهير والنابغة، أو الفصل بين البحري وأصحابه، ولم يعرف سخف مسيلمة^(٣) في نظمه، ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه، كشعر «أبي العيس» في جملة الشعر، وشعر «علي بن صلاة»، فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بينا؟

* * *

فإن قال قائل: فاذا كررنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له: هذا أيضًا خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب، ويفرد له باب، وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل. وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب، ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب، ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام؟ وإنما لم يصح هذا السؤال، وما نذكر فيه، من أشعار في نهاية الحسن،

-
- (١) أخرجه الترمذي بمعناه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (يقول الرب - ﷻ -: من شغله القرآن عن ذكري ومستلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) وللحديث روايات أخرى. وبعض رجاله فيه ضعف.
- (٢) الأخطل: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة من بني تغلب. من فحول شعراء الإسلام. تقدم التعريف به.
- (٣) مسيلمة: متنبئ بني حنيفة الكذاب. معروف. وقد سبق أن ذكر المؤلف بعض أباطيله التي زعم أنها وحي يوحى إليه.

وخطب ورسائل في غاية الفضل، لأننا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها، والمسامة عليها، والتنافس في طرقها، والتنافر في بابها، وكان البون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً، والتفاوت خفيفاً، وذلك القدر من السبق إن ذهب عن الواحد لم يأس منه الباؤون، ولم ينقطع الطمع في مثله، وليس كذلك سمت القرآن؛ لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته^(١)، والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته^(٢)، وأن الكل في العجز عنه على حد واحد. وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه. وأنت تجد قومًا يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيّنًا، ونطاق قوله ضيقاً، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه، من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجبية مأثورة. وأما كلامه في أثناء ذلك فسطوره قليلة وألفاظه يسيرة، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خاليتاً عن شيء يستعين به، فيخلط بقوله من قول غيره، كان كلاماً ككلام غيره. فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في «نظم القرآن» وفي الرد على النصارى، وفي خبر الواحد، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع، أو كلام مليح؟

على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته، وجاذبوه على منهجه، فمنهم من ساواه حين ساماه^(٣)، ومنهم من أبرّ عليه إذ باراه، هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه، وأخذ طريقه، فلم يقصر عنه، ولعله قد بان تقدمه عليه؛ لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، ويكملها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحن كلامه، كما ترى الجاحظ

(١) أي: أن معارضته ليست محالة واقفاً فقط، بل إنها محالة حتى في الوهم والخيال. وإذا كان توهم معارضته محالاً؛ فكيف بذلك واقفاً.

(٢) المباراة والمسامة: المنافسة والمطالبة.

(٣) أي: حين نافسه.

يفعله في كتبه، متى ذكر من كلامه سطرًا أتبعه من كلام الناس أوراقًا، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابًا. وهذا يدل على أن الشيء إذا استحسنته، وإذا استملح قصد له وتعمد. وهذا الشيء يرجع إلى الأخذ بالفضل والتنافس في التقدم. فلو كان في مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده، لكثرت المعارضات، ودامت المنافسات، فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها، وجواب^(١) لا حد لكثرتها؟ لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى تكذيبه، ثم إلى قطع المحامين دونه عنه، أو تنفيرهم عليه، وإدخال الشبهات على قلوبهم، وكان القوم يكتبون بذلك عن بذل النفوس، ونصب الأرواح، والإخطار بالأموال والذراري، في وجه عداوته، ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربتهم، وطول منافسته ومجادبته.

وهذا الذي عرضناه على قلبك، يكفي إن هديت لرشدك، ويشفي إن دلت على قصدك^(٢).

ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد، إنه لا معرفة إلا بهدائه، ولا عصمة إلا بكفايته، وهو على ما يشاء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا.
قيل: هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه: منها ما هو صواب، ومنها ما فيه خلل؛ لأن من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدر على معارضته في الأخبار

(١) أي دواعي.

(٢) فالأمر في إدراك ما وضع الكتاب من أجله محتاج - ضرورة - إلى توفيق من الله - تعالى - .
 وهداية تهدي القلب إلى ضلته، وتدله على قصده. وتصل به إلى بغيته.

عن الغيوب أن قدروا على مثل نظمه، فقد سلم المسألة، لأننا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقدَّر عليه، فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده^(١).

والوجه أن يقال فيه طرق:

منها: أنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز؛ لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفنون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم، أو يساووهم^(٢)، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا.

ومنها: أنا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول، والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد؛ لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافر في الطباع على حد، والتكلف على منهاج لا يختلف، ولذلك قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿١٧٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

* * *

(١) أي إن من وقف بإعجاز القرآن عند حد الأخبار بالغيوب فقط، فقد سلم للخصم إمكان معارضته بلاغة وفصاحة. وهذا خطأ وضلال.

(٢) وحتى هذه فلا نسلم بها. إذ من المحال أن يلحق المتأخرون بالسابقين في صناعة اللغة. قاله - سُبحَانَهُ - وهو العليم الحكيم، أنزل القرآن بلسان عربي مبين في الزمان والمكان الذي كانت فيه العربية في أزهى عصورها. وأسمى منزلة لها. إذ كانت فطرة وصيغة وبداهة وجبلة، ثم تحولت إلى صناعة وتعمل وتكلف. ومحال أن يكون العمل والتكلف مساويًا لما يكون فطرة وبداهة.

فصل

في التحدي

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلائهم وآيتهم^(١)؛ لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية؛ لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه، ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه، فيستدل به على صدقه. فإذا ذكر لهم أن هذه آيتي، وكانوا عاجزين عنها، صح له ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهاناً له، وليس يكون ذلك معجزاً إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله، فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزاً.

وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي؛ لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزاً، وإنما يعرف أولاً إعجازه بطريقه^(٢)؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزاً فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه، والتفريع به، والتمكين منه، صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصي ثعباناً تلقف ما يأفكون.

وأما من كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق، فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضاً أهل

(١) وهو ما يسمى لدى العلماء بالتحدي. والتحدي وضعه جمهور العلماء شرطاً للمعجز. حيث عرفوا المعجز بأنه: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة مقروناً بالتحدي.

(٢) الضمير للقرآن، أي: عن طريقه.

عصره ممن هو في طبقته، أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً، ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه، لم يجز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي إليه، وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي إلى التحدي إلى أقصاهم، وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه، ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً.

وهذا القول - إن قيل - أفحش ما يكون من الخطأ، فجيب أن تكون منزلة أهل الصنعة، في معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم، منزلة من إذا رأى اليد البيضاء، وقلق البحر - عرف بأن ذلك معجز، وأما من لم يكن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، يعرف بها كونه معجزاً، فيساوي حينئذ أهل الصنعة، فيكون استدلالهما في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه، على سواه، إذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه، فأما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي إليه، فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات، حتى يقع التحدي إليهما، والحض عليهما، ثم يقع العجز عنها، فيعلم حينئذ أنها معجزات، وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يعني عن الإعادة^(١).

ويبين ما ذكرناه في غير البليغ، أن الأعجمي الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الأعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له؛ لأن من هو من

(١) من العلماء من اشترط في التحدي أن يكون بالمقال. أي أن يقول مدعي النبوة: أنا نبي ودليل صدقي أن أفعل كذا وأنتم تعجزون أن تفعلوا مثلي. أو أن يظهر على يديه الأمر المعجز ثم يقول لهم: أتحداكم أن تأتوا بمثله.. ومن العلماء من لم يشترط القول، واكتفى بدلالة الحال عن دلالة المقال. فذهبوا إلى أن مجرد ظهور المعجز على يد النبي، ورؤيتهم إياه، واقتناعهم بأن ذلك فوق قدراتهم وأنهم عاجزون عن مثله. قالوا: ذلك كافٍ في التحدي ولو لم يتحدثهم النبي قولاً.

أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه، وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقله إليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب إليه فعجزوا عنه، ويحتاج في النقل إلى شروط، وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً، كذلك لا يصير معجزاً بأن يعلم العربي الذي ليس يبليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم، بل هو معجز في نفسه، وإنما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه.

فصل

في قدر المعجز من القرآن

الذي ذهب إليه عامة أصحابنا، وهو قول أبي الحسن الأشعري^(١) في كتبه، أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة: قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها.

قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز، قال: ولم يقيم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر. وذهب المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة، وقد حُكي عنهم نحو

(١) أبو الحسن الأشعري: هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر - إسحاق - ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري - صاحب رسول الله ﷺ ورضي الله عنه.. والصحابي الجليل اسمه: عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني.. ولد أبو الحسن الأشعري سنة ٢٦٠ هـ على الأرجح.. توفي والده صغيراً، وترى في كنف زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة. فنشأ معتزلاً، وكان مقدماً لدى الجبائي وينوب عنه في دروسه ومناقشاته. ثم في سن الأربعين انقلب على المعتزلة وأعلن براءته منهم. ثم عكف على التأليف في إبطال مذهبهم وبيان فضائهم. وأنشأ المذهب الذي نسب إليه وهو «الأشعري» وفي أواخر حياته وضع كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» الذي أعلن فيه أنه على مذهب السلف والجماعة، وأنه يموت على ما كان عليه الإمام الجليل أحمد بن حنبل والمحدثين. توفي - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في سنة ٣٣٠ هـ على الأرجح.

قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة، وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً إلى السور كلها ولم يخص، ولم يأتوا بشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز. وأما قوله **عَلَيْكَ**: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: بعض آية ٣٤]، فليس بمخالف لهذا؛ لأن الحديث التام لا تحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا^(١) ويؤيده، وإن كان قد يتأول قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ على أن يكون راجعاً إلى القبيل دون التفصيل، وكذلك بحمل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: بعض آية ٨٨] على القبيل^(٢)؛ لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره.

فإن قيل: هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون به إعجاز السور الطوال؟ وهل تعرفون إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها؟

فالجواب أن أبا الحسن الأشعري - رحمه الله - أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها. وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول: إن ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفاً. والطريقة الأولى^(٣) أسدٌ، وليس هذا الذي ذكرناه أخيراً^(٤) بمناف له؛ لأنه لا

(١) يقصد المؤلف بـ «أصحابنا» الأشاعرة؛ لأنه أشعري من المتقدمين في المذهب. وله مؤلفات في الرد على المعتزلة والرافضة وغيرهم. والانتصار لمذهب الأشاعرة.

(٢) أي على النوع وليس على الكل. فالمحال ليس أن يأتوا بمثله جميعه، بل أن يأتوا بشيء مماثلة أيا كان قدر ذلك. والقبيل: النوع.

(٣) وهي ما أشار إليها بأنها جواب أبي الحسن الأشعري. وهي أن القرآن كله معجز القليل منه والكثير سواء في الإعجاز.

(٤) يشير إلى القول بالتوقيف. والتوقيف ضد الاجتهاد وإعمال الرأي. فالأمر التوقيفي هو المعتمد على دليل نصي شرعي من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو بكل ذلك. فالقائلون بأن معرفة القدر المعجز من القرآن أمر توقيفي يطلبون دليلاً شرعياً من الكتاب أو السنة =

يمنع أن يعلم إعجازه بطرق مختلفة، تتوافى عليه، وتجتمع فيه.

* * *

واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة؛ لأن الطريقة الأولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صغرت أو كبرت، فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً، والطريقة الأخيرة^(١) تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التي سلكتها، في بناء من التفصيل الذي بينا، فيما تعرف به في الكلام الفصاحة، وتبين فيه البلاغة، حتى يعلم ذلك بوجه آخر، فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزاً حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء، من التقدم في الصنعة، وهذا غير ممتنع، ألا ترى أن الإعجاز في بعض السور والآيات أظهر، وفي بعضها أغمض، وقد لا يحتاج في النظر في حال بعضها إلى تأمل كثير، ولا بحث شديد، حتى يتبين له الإعجاز، ويفتقر في بعضها إلى نظر دقيق، وبحث لطيف، حتى يقع على الجلية، ويصل إلى المطلوب، ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور، فيحتاج أن يفرع فيه إلى إجماع أو توقيف، أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه.

فإن ادعى ملحد، أو زعم زنديق، أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار، أو الآيات بهذا المقدار، قلنا له: إن الأعجاز قد حصل: بإيانه، وعرف بما وقفنا عليه، من عجز العرب عنه.

ثم فيه شيء آخر، وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد؛ لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله إعجاز، فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله، وإذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه، وثبتت المعجزة، ولا معنى لطلبه

= يحدد ذلك القدر. أما الآخرون فيجتهدون آراءهم.

وقد بين المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أن الطريقتين ليس بينهما تعارض، بل بينهما تآزر وتعاضد. إذ أن معرفة القدر المعجز يمكن أن يكون بطرق مختلفة يقوي بعضها بعضاً.

(١) الطريقة الأخيرة هي القائلة بالتوقيف.

لكثرة الأدلة والمعجزات. ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأننا عرفنا في البعض الإعجاز بما بينا ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك، وليس بمتنع اختلاف حال الكلام، حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر، وفي بعضه أغمض. ومن آمن ببعض دون بعض كان مذموماً، على ما قال الله - تَعَالَى -: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: بعض آية ٨٥]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع، وإن كنا نقول إنه يدل على أن الشفاء في جميعه^(١).

* * *

واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبلغ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة «يتيمة»، ويسمون البيت الواحد «يتيماً». سمعت إسماعيل بن عباد يقول: سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلباً^(٢) يقول: سمعت الفراء^(٣) يقول: العرب تسمي البيت الواحد يتيماً، وكذلك يقال الدرّة اليّيمة، لانفرادها، فإذا بلغ البيتين فهي نتفة، وإلى العشرة تسمى قطعة، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً، وذلك مأخوذ من المخ القصيد^(٤)، وهو المتراكم بعضه على

(١) هذا متوقف على الاختلاف في معنى: «من» فالذين قالوا: إنها في الآية للتبعيض ذهبوا إلى أن الشفاء في بعضه. والذين ذهبوا إلى أنها ليست للتبعيض بل هي للابتداء - أو ما شابه - قالوا: إن القرآن كله شفاء وليس بعضه. وهذا هو الصواب والله - تَعَالَى - أعلم.

(٢) ثعلب: إمام الكوفيين في النحو واللغة/ ت: ٢٩١. تقدم التعريف به.

(٣) الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي. أبو زكريا. المعروف بالفراء؛ لأنه كان يفري الكلام. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يميل إلى الاعتزال. له مصنفات كثيرة. توفي سنة سبع ومئتين.

(٤) وهناك آراء أخرى. فمنهم من يرى القصيدة ما كانت ثلاثة أبيات فصاعداً. ومنهم من يرى أنها تبدأ من ستة عشر بيتاً. والمخ القصيد: المخ السمين المتراكم. والرأد: التضديد. والرئيد: التضد.

بعض، وهو ضد الرأد ومثله الرئيد. انتهت الحكاية، ثم استشهد بقول لبيد^(١):

فتذاكرا ثقلا رئيذاً بعد ما ألفت ذكاءً يمينها في كافر^(٢)
يريد بيض النعام؛ لأنه ينضد بعضه على بعض.

وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي والنادر، واثل السائر، والمعنى الغريب، والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه، فيتفق له ويصادفه، قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريتة في ذلك: إن هذا مما لا سبب له يخصه، وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة، والتقدم في عيون المعرفة، فإذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب، وما يشذ عن تفصيل الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز، فإن ذلك صحيح.

- (١) لبيد بن ربيعة العامري. أدرك الإسلام شيخاً. ومنذ أسلم استبدل الاشتغال بالقرآن بالاشتغال بالشعر. ولم يقل منذ أسلم شعراً قط إلا بيتاً واحداً - فيما يروى -، وقد قال عمر بن الخطاب له: أنشدني من شعرك، فتلا عليه سورة البقرة. وقال: لم أكن لأقول شعراً بعد أن علمني الله - تعالى - سورة البقرة. مات شيخاً هرمًا قد تخطى المئة بكثير.
- (٢) الثقل الرئيد: يقصد بيض النعام المنضد بجوار بعضه، والضمير في تذاكرا: للظلم والنعام، والظلم هو الذكر. ذكاء: الشمس. كافر: ظلام الليل؛ لأنه يكفر الأشياء أي يسترها ويخفيها. يقول إن: ذكر وأنثى النعام تذاكرا بيضهما بعد أن غابت الشمس.

فصل

في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟

ذهب أبو الحسن الأشعري إلى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة، وكونه معجزاً يعلم باستدلال^(١)، وهذا المذهب محكي عن المخالفين^(٢). والذي نقوله في هذا إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً، وكذلك من لم يكن بليغاً.

فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية، وغرائب الصنعة، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالاً.

فصل

فيما يتعلق به الإعجاز

إن قال قائل: بينوا لنا ما الذي وقع التحدي إليه، أهو الحروف المنظومة، أو الكلام القائم بالذات، أو غير ذلك؟

قيل: الذي تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة، مطردة كاطرادها، ولم يتحداهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له، وإن كان كذلك فالتحدي واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التي هي عبارة عن كلام الله - تعالى - في نظمها وتأليفها، وهي حكاية لكلامه، ودلالات عليه، وإمارات له، على أن يكونوا مستأنفين لذلك، لا حاكين

(١) أي أن ثبوت نزول القرآن على النبي ﷺ ثابت بالضرورة. أي أمر مسلم لا يطلب عليه دليل ولا برهان. أما كون القرآن معجزاً فأمر لا يدرك بالضرورة، بل بالاستدلال.

(٢) المقصود بالمخالفين: مخالفو الأشاعرة أمثال المعتزلة وغيرهم. وقد يريد المعتزلة تحديداً.

بما أتى به النبي ﷺ.

ولا يجب أن يقدر مقدر، أو يظن ظان، أنا حين قلنا: إن القرآن معجز فإنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات^(١). وقد بيّنا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزًا لكونه عبارة عن الكلام القديم؛ لأن التوراة والإنجيل عبارة عن الكلام القديم. وليس ذلك بمعجزة في النظم والتأليف، وكذلك ما دون الآية. كاللغة - عبارة عن كلامه، وليست بمفردها بمعجزة.

وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم إلى مثل كلامه القديم القائم بنفسه^(٢)، والذي عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره، وعلى ذلك أكثر مذاهب الناس. ولم

(١) يفرق المؤلف - عفا الله عنّا وعنّه - كما هو شأن الأشاعرة وكثيرين غيرهم من علماء الكلام بين كلام الله - سبحانه وتعالى - الذي هو صفة معنوية قديمة قائمة بذاته ﷻ، بها وعنها جاءت الكتب الإلهية جميعها التي ذكرت نسبة الشريفة أنها مائة كتاب وأربعة كتب؛ منها: التوراة، والإنجيل، والقرآن.. نقول: يفرق المؤلف بين هذه الصفة القديمة ربنا - سبحانه - التي هي صفة الكلام وبين الكتب نفسها التي هي كلام الله، والتي هي أثر لتلك الصفة؛ ولذلك قال المؤلف عن القرآن: إنه حكاية لكلامه - تعالى - .. والمؤلف يفرق - بناء على هذه التفرقة - بين كلام الله - تعالى - الذي هو صفة قديمة به - سبحانه - وكلامه الذي هو بين دفتي المصحف الشريف، فيما يتصل بالإعجاز؛ فيقول: إن المعجز ليس الصفة القديمة، التي قال عنها: «عن الكلام القديم القائم بالذات» فيذهب إلى أن الكلام الذي هو الصفة ليس معجزًا لأن من آثار الكلام القديم القائم بالله - تعالى - الكتب السابقة على القرآن المجيد؛ مثل التوراة والزبور والإنجيل. وكلها ليست معجزة في صنعتها اللغوية مثل القرآن. فلو كان الكلام القديم معجزًا لكان كل الكتب التي صدرت عنه معجزة، لكن التوراة والإنجيل وغيرهما ليست بمعجزة.. والمعجزة عنده هو القرآن المجيد وحده الذي هو حكاية للكلام القديم. وأثر من آثار صفة الله - تعالى - ..

هذا وفكر الرجل - بهذه الصورة - به الكثير مما لا نرضاه ولا نوافقه عليه. وإنصافًا للرجل فإن ما ذهب إليه هو - كما ذكرنا قبلًا - مذهب الأشاعرة. لكننا بينا فكر الرجل بأمانة.

(٢) هذا على مذهب من قال: إن القرآن المجيد بمعانيه وحروفه وألفاظه قديم.

يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه، وما يتصل به؛ لأنه خارج عن غرض كتابنا؛ لأن الإعجاز وقع في نظم الحروف، التي هي دلالات وعبارات عن كلامه، وإلى مثل هذا النظم وقع التحدي، فبيننا وجه ذلك، وكيفية ما يتصور القول فيه، وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة، أو حروف غير منظومة، أو شيء مؤلف، أو غير ذلك^(١)، مما يصحح أن يتوهم، على ما سبق من إطلاق القول فيما مضى.

فصل

في وصف وجوه من البلاغة

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

* * *

فأما الإيجاز: فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمر كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر:

فالحذف الإسقاط للتخفيف، كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]. وحذف الجواب كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْثِقُ﴾ [الرعد: ٣١]، كأنه قيل لكان هذا القرآن. والحذف أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب.

(١) يرى المؤلف - عفا الله عنه - أن القرآن بحروفه وألفاظه دلالات على كلام الله - تعالى - القديم، وليست هي قديمة. فالحروف والألفاظ عنده حادثة. أما المعاني التي عبرت عنها تلك الحروف والألفاظ وحكتها فهي القديمة. ونحن لا نوافق على ذلك - عفا الله عنه - ..

والإيجاز بالقصر كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]،
 وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَعَيْتُمْكُمْ
 عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].
 والإطناب فيه بلاغة، أما التطويل ففيه عي.

وأما التشبيه فهو العقد على أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حس أو
 عقل، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ
 نَفَقْنَا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا
 كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
 الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيَهَا أَتْنَاهَا آتْرُنًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
 فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسَمَّرٍ ﴿٢٠﴾ نَزَعُ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ مُنْقَعِرٍ ﴿٢١﴾﴾
 [القمر: ١٩ - ٢٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٤٧﴾﴾
 [الرحمن: ٣٧]، وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
 وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
 يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
 [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ
 يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله - تعالى -: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ
 عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]،
 وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْمَكْشُوبِ أَخَذَتْ
 يَتِيًّا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْمَكْشُوبِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَوْجِرِ
 الْمُنْتَنَاتُ فِي النَّحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿١١﴾﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
 صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].. ونحو ذلك.

ومن ذلك باب الاستعارة: وهو بيان التشبيه، كقوله - تعالى -: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣) [الفرقان: ٢٣]، وكقوله: ﴿فَأَصْدَعُ يَا تُومُرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) [الحجر: ٩٤]، وكقوله: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعَا أَلْمَاءَ حَمَلْتَكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١١) [الحاقة: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضِبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وكقوله: ﴿فَمَحُونًا آيَةً أَيْلٌ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُرَةً﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فالدمغ والقذف مستعار. وقوله: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ آيَلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٢٧]. وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله: ﴿فَذُو دُعَاةٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقَهَا﴾ [محمد: ٤]، وقوله: ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ (٧) [التكوير: ١٨]، وقوله: ﴿مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله: ﴿فَتَسِدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله: ﴿أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (١٢) [الشعراء: ٢٢٥]، وقوله: ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤١) [الأحزاب: ٤٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْفَىٰ ذُوقَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿فَضْرِبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١]، يريد أن لا إحساس بأذانهم من غير صمم. وقوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وهذا أوقع من اللفظ الظاهر، وأبلغ من الكلام الموضوع.

* * *

وأما التلاؤم: فهو تعديل الحروف في التأليف. وهو نقيض التنافر، كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفري وليس قرب قبر حرب قبر^(١)

(١) وصل هذا البيت من التنافر إلى الحد الذي جعله مضرب المثل لذلك لدى جمهرة المتكلمين عن التنافر.

قالوا: هو من شعر الجن، حروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلا بتتبع فيه. والتلاؤم على ضربين: أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله:

رمتي وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم^(١)
ريمم التي قالت لجات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتي رميته ولكن عهدي بالنضال قديم
قالوا: والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن إحساسًا من بعض، كما أن بعضهم يفظن للموزون بخلاف بعض.

والتلاؤم: حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقوع المعنى في القلب، وذلك كالخط الحسن^(٢)، والبيان الشافي. والمتنافر كالخط القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان، وصحة البرهان، في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع. بصيرًا بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر. والمتنافر ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بُعد فهو كالطفرة^(٣)، وإذا قرب جدًا كان بمنزلة مشي المقيد، ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها.

* * *

وأما الفواصل: فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني. وفيها بلاغة. والأسجاع عيب؛ لأن السجع يتبع المعنى، والفواصل تابعة للمعاني،

(١) آرام: جمع رثم وريم. وهو الظبي خالص البياض. ويجمع أيضًا على: آرام. والكناس -

بكسر الكاف -: بيت الظبي. يقال: أوى الظبي إلى كناسه. وريمه: اسم محبوبته.

(٢) الكلام له جانبان حسن: في السمع وذلك بحسن الصنعة في اللغة، والجانب الثاني في العين. وذلك بحسن الصنعة في رسم الكلمات وجودة الخط.

(٣) أي الذي يمشي قفزًا. وهو عكس الذي يمشي مقيد الرجلين.

والسجع كقول مسيلمة^(١)، ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة، ولا تحتل القوافي ما تحتل الفواصل؛ لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة؛ لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي، وإقامة الوزن، وأما التجانس فإنه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد، وهو على وجهين: مزوجة ومناسبة.

فالمزوجة كقوله - تَعَالَى -: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرًا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وكقول عمرو بن كلثوم^(٢):

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وأما المناسبة فهي كقوله - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا اللَّهُ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

* * *

أما التصريف: فهو تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة: كتصريف المُلْك في معاني الصفات، فصَرَف في معنى «مالك» و«ملك» و«ذي الملكوت» و«المليك» وفي معنى «التمليك» و«التملك» و«الأملاك»..

(١) قد سبق وذكر المؤلف بعض السجع المسف الساقط للكذاب مسيلمة والذي زعم أنه وحي من رب العالمين - شَيْحَانَةٌ عما يقولون -.. وذلك مثل قوله: «ضفدع يا بنت ضفدعين - نقي أو لا تنقين - نصفك في الماء ونصفك في الطين..» إلى آخر هذا الغناء البارد لكذاب بني حنيفة.

(٢) عمرو بن كلثوم: عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد، من بني تغلب بن وائل شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. له معلقة مطلعها:

ألا هي بصحنك فاصبحنا ولا تبقي خمور الأندرينا
والبيت المذكور من المعلقة.

وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرر من قصة موسى مواضع^(١).

وأما التضمين: فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهين: تضمين توجيه البنية كقولنا: معلوم يوجب أنه لا يبد من عالم.

وتضمين يوجه معنى العبارة، من حيث لا يصح إلا به، كالصفة بضارب يدل على مضروب. والتضمين كله إيجاز، والتضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضاً إيجاز، وذكر أن «بسم الله الرحمن الرحيم» من باب التضمين؛ لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه، على جهة التعظيم لله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، أو التبرك باسمه.

وأما المبالغة: فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه: منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك، كقولك رحمن، عدل عن ذلك للمبالغة، وكقوله: غفار، وكذلك فعال وفعول كقوله: شكور وغفور، وفعيل كقوله: رحيم وقدير، ومن ذلك أن يبالي باللفظة التي هي صفة عامة، كقوله: ﴿خَلِقُوا كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢]، وكقوله: ﴿فَأَنَّى لِلَّهِ بُيُوتُهُنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وكقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَاءُكُمْ لَمَعْلَمٌ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة.

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة. ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عز من قال: ﴿الزَّخْرِبِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ①

(١) أي بكلام مختلف، ومعان متعددة. والمضمون واحد.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿١﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقيل: أعيان من باقل، سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها؟ فأراد أن يقول بأحد عشر، فأشار بيديه مادًا أصابعه العشرة ثم أدلع لسانه، وأفلت الظبي من يده.
ثم البيان على مراتب.

* * *

قلنا: قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة، التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب مما مضت أمثله في الشعر. ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل. واعلم أن الذي بيناه قبل هذا، وذهبنا إليه، هو شديد، وهو أن هذه الأمور تنقسم، فمنها: ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه، ونحن نضرب لذلك أمثلة، لتقف على ما ذهبنا إليه، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه تعرف به البلاغة، وذلك مسلم، ولكن إن قلنا: ما وقع من التشبيه في القرآن معجز، عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفي عليك. وأنت تجد في شعر ابن المعتز^(١) من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء.

وكذلك كثير من وجوه البلاغة، قد بينا أن تعلمها يمكن، وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره. فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه إذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية، ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه إلى متصرفاته على أتم البلاغة، وأبدع البراعة، فهذا مما لا نأباه، بل نقول به. وإنما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز،

(١) ابن المعتز. شاعر عباسي. تولى الخلافة يوماً واحداً ثم قتل.

من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام، ويفضي إليه، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه: فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها فإني لا أدفع ذلك، وأصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك إلى موضع التشبيه، وما قرن به من الوجوه، ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كاليان، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس، ولذلك قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. فكرر في مواضع ذكره أنه مبين.

فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته، حتى يحل محل البرهان، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة. وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقوع في القلوب، والتمكن في النفوس، ما يذهب ويهيج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمها، ويتنزل في موقعها، ويجرى على سمت مطلعها ومقطعها، يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياتها، وكذلك على حسب مصادره، يتصور وجوه موارده.

وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، وينبه على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله. ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن

محب كان أرق وأحسن. وإذا صدر عن متغزل، وحصل من متصنع، نادى على نفسه بالمدحاجة^(١)، وأخبر عن خيبته في المراءة. وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع، فيعلم وجه صدوره، ويدل على كنهه وحقيقته. وقد يصدر عن المتشبه، ويخرج عن المتصنع، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه، ويظهر من أمره خلاف ما يديه، وأنت تجد لقول المتنبي:

فالحيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والطنن والقرطاس والقلم^(٢)
من الوقع في القلب - لما تعلم أنه من أهل الشجاعة - ما لا تجده للبحثري في
قوله:

وأنا الشجاعة قد بدا لك موقفي بعقرقس والمشرفية شهدي^(٣)
وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب، في الفخر وغيره، ما لا تجده
لغيره؛ لأنه إذا قال:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار^(٤)
وقال:

(١) المدحاجة: المخادعة بإظهار الود وإبطان العداوة. يقال: داجاه. أي ساتره بالعداوة ولم يدها له.

(٢) يروى كذلك: والحرب والضرب بدلا من: والحرب والطنن. ويروى أن هذا البيت كان السبب في قتل المتنبي. إذ كان في سفر له فعرض له في الطريق قطاع طرق، وقتل من مع المتنبي من خدمه وعبيده. ولما هم بالفرار ناداه أحد اللصوص قائلاً له: ألسنت الذي قلت: الحيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم أنتكون جباناً وكذاباً؟ فالتفت المتنبي راجعاً، وقال للرجل: قتلنتي، قتلك الله. وظل يقاتل وحده حتى قتل.

(٣) عقرقس: اسم موضع. والمشرفية: اسم لنوع من السيوف الجيدة.

(٤) أوقرت: ملأت البلاد حتى ضاقت. حوافر: خيلا. النقع: الغبار المتطاير من سنايك الحيل =

قد تردّيتُ بالمكارم دهرًا وكفتي نفسي من الافتخار
أنا جيش إذا غزوت وحيدًا ووحيد في الجحفل الجرار^(١)
وقال:

أيها السائلي عن الحسب الأطيب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى، فماذا تريد؟^(٢)
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود
وكما أنشدنا الحسن بن عبدالله^(٣) قال: أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز
قصيدته التي يقول فيها:

أنا ابن الذي سادهم في الحياة وسادهم بي تحت الثرى
وما لي في أحد مرغب بلى فيّ يرغب كل الورى
وأسهر للمجد والمكرمات إذا كُحِلت أعين بالكرى^(٤)
فانظر في القصيدة كلها، ثم في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق
به من الفخر خاصة، ثم بما تبعه مما يتعاطاه، ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه، ولم
أحب أن أكثر عليك، فأطول الكتاب، بما يخرج عن غرضه.
وكما ترى من قول أبي فراس الحمداني^(٥)، في نفسك إذا قال:

= أثناء المعركة.

- (١) ترديت: ليست. الجحفل الجرار: الجيش الكثير.
- (٢) العترة: الأصل. وفي المثل: «عادت لعترها نيس» أي لأصلها. والعترة: النسل والرهط
والعشيرة.. القرى: إطعام الطعام. وإكرام الضيفان.
- (٣) الحسن بن عبدالله: أبو هلال العسكري. صاحب: الصناعتين. مر التعريف به.
- (٤) أي: أن أباه ساد القوم في حياته بنفسه، وسادهم بعد مماته بأنه الذي هو الشاعر.
مرغب: ما يرغب ويطمع فيه. الكرى: النوم.
- (٥) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان. ابن عم سيف الدولة الحمداني. من =

ولا أصبح الحيّ الخلوفَ بغارة ولا الجيش ما لم يأتَه قبلي التُّذُرُ^(١)
 ويا ربَّ دارٍ لم تخفني منيعة طلعتُ عليها بالردى أنا والفجر^(٢)
 وساحبة الأذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر^(٣)
 وهبت لها ما حازه الجيش كله وآبت ولم يكشف لأبياتها ستر
 وما راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يشيني عن الكرم الفقر
 وما حاجتي في المال أبغي وفوره إذا لم أفر عرضي فلا وقر الوفرُ
 والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلم في
 نفسه، وبانت فخامته وشواهد أثر الاستحقاق فيه. وإذا صدر من متكلف، وبدا
 من متصنع، بان أثر الغرابة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل
 التخير منه.

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة، وتمكن البطالة، وموقع كلامه في
 وصف ما هو بسبيله، من أمر المغازلة، ووصف الخمر، والخمار. كما نعرف موقع
 كلام ذي الرمة^(٤)، في وصف المهامه والبوادي، والجمال والأنساع والأزمة.

= ذوي السيف والقلم. كان بعض مؤرخي الأدب يقول: «بدي الشعر بملك. وختم بملك»
 يريد امرأ القيس وأبا فراس.

(١) الخلوف: الفاسد. يقال: خلف الطعام أي فسد. وخلف فم الصائم: أي تغير إلى ما
 يكره. وفي الحديث الشريف: «لخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»..
 التذُر: جمع نذير أي أنه لا يغير على أعدائه غدراً وسراً، وإنما يعلمهم قبل أن يغير عليهم.
 (٢) الردى: الموت. طلعت عليه بالردى أنا والفجر: أي أن الموت يأتي في ركابه.. ويبست
 أعداؤه وافرین فيأتي الصباح فلا يكون لهم وجود. ومن عادة العرب أن يغيروا ليلاً أو في
 الصباح الباكر.

(٣) ساحبة الأذيال: المرأة. يصف نفسه بالجرأة والشجاعة والقسوة في مقابلة الرجال، وباللين
 والرقّة والنخوة في لقاء النساء.

(٤) ذو الرمة: غيلان بن عقبة بن بهسين. شاعر إسلامي مجيد. سبق التعريف به.

وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش، ففكر في قوله:
 دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلي عهد جدتها الخطوب^(١)
 وغلُّ لراكب الوجناء أرضًا تخبُّ بها النجبية والنجيب^(٢)
 بلاد نبتها عشر وطلح وأكثر صيدها ضبع وذيب^(٣)
 ولا تأخذ عن الأعراب لهوًا ولا عيشًا فعيثهم جديب
 دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش عندهم غريب
 إذا راب الحليب فبل عليه ولا تخرج، فما في ذلك حوب^(٤)
 فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساقٍ أديبٌ
 كان هديرها في الدن يحكى قرآة القس قابله الصليب^(٥)

- (١) تسفيها الجنوب: تذروها الرياح. الخطوب: الأحداث والحن.
 (٢) الوجناء: في الأصل عظيمة الوجنتين. والمراد بها في جانب البعير: الشديدة القوة النجبية والنجيب: الناقة والبعير سريع الجري الذي يسبق ما عداه.
 (٣) يصف البلاد بأنها لا خير فيها لا للرعى ولا للصيد. وهما أهم ما كان ينشط له العربي. فلا نبات فيها يصلح للرعى، ولا حيوان فيها يصلح للصيد.
 (٤) راب الحليب: صار رائبًا. الحوب: الجرم والإثم. والبيت من أسوأ ما قال ذلك الماجن الفاسق. وما كان أجدر بالمؤلف الفاضل أن ينزه كتابًا في موضوع شريف عن شعر هذا الخليع الذي يصدم النفس ويلوث الفطرة السوية..
 وهذا البيت والذي بعده يذكرنا بواقعة شريفة. حين عرض على سيدنا رسول الله ﷺ إثناءه في أحدهما حليب والآخر فيه خمر. فاختار ﷺ الحليب. فقال له الملك: اخترت الفطرة.
 ونحن لا نستبعد أن يكون الشاعر الفاسق قد اطلع على الخبر الشريف وعارضه بهذين البيتين اللذين هما في موقع النقض له تمامًا.
 (٥) قرآة القس: أي قراءته في كنيسته. وقراءة المساومة لها زمزمة وרטانة لا تكاد تبين.

أعاذل أقصري عن طول لومي فراجي تويتي عندي يخيب
تعييب الذنوب، وأي حر من الفتيان ليس له ذنوب؟
وقوله:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم^(١)
وسمعت الصاحب إسماعيل بن عباد^(٢) يقول: سمعت براكويه الزنجاني
يقول: أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى:
وَدَّعْ هَرِيرَةَ إِنْ الرِّكْبَ مَرْتَحِلَ وَهَلْ تَطْيِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرِّجْلُ
وكان وصف فيها الطلل، قال براكويه: فقال لي هلال، فقلت بديها:
إذا سمعت فتى يكي على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

* * *

وإنما ذكرت لك هذه الأمور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وفي مظانه أحسن،
وإلى أصله أنزع، وبأسبابه أليق، وهو يدل على ما صدر منه، وينبه ما أنتج عنه، ويكون
قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكل شيء حد ومذهب،
ولكل كلام سبيل ومنهج، وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلمة ما
أخبرتك به فقال: إن هذا كلام لم يخرج من آل^(٣). فدل على أن الكلام الصادر عن
عزة الربوبية، ورفعة الإلهية، يتميز عما لم يكن كذلك.

ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به، من عظيم شأن البيان، ولولم يكن فيه إلا ما منَّ
به الله على خلقه بقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ﴿الرحمن: ٣، ٤﴾.

(١) القدم: الغبي الأحمق. والأصل في القدم: أنه الغطاء يوضع على الفم أو الإناء. وكان
الأحمق قد وضع غطاء على عقله فستره وعطله.

(٢) الصاحب إسماعيل بن عباد: إسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب. سبقت الإشارة إليه.

(٣) عن ربوبية: أي أنه لا يمكن أن يكون وحياً عن الله - سبحانه - .

فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه. تأمل قوله - تعالى -: ﴿أَفَنصْرُبُ عَنْكُمْ الَّذِي كَرَّ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه، وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهذا بليغ في التحسير. وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، هو في نهاية الوضع من الخلة إلا على التقوى. وقوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله: ﴿أَفَمَنْ بَلَغَ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آئِمَّنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، هو النهاية في الوعيد والتهديد. وقوله: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرِّيرٍ مِنْ سَبِيلِ رَبِّنَا يُنْفِخُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّمُومِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٥٤ - ٥٥]، نهاية في الوعيد. وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَسْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، نهاية في الترغيب. وقوله: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وكذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] نهاية في الحجاج. وقوله: ﴿وَأَيُّرَأُ قَوْلَكُمْ أَوْ أَحْجَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يُدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٣] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٣ - ١٤]، نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات.

ولا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع في الرفعة، وكبر المنزل على سواء، وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، وهو معجز، من القرآن، وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الإعجاز؛ لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره، وليس ذلك بمعجز، بل قد يصح أن

يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الإعجاز. وتضمن المعاني أيضاً قد يتعلق به الإعجاز، إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها. وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز. وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا. وبيننا في تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الإعجاز به. والتصرف في الاستعارة البديعية يصح أنه يتعلق به الإعجاز. كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام؛ لأن البلاغة في كل واحد من البابين، تجري مجرى واحداً، وتأخذ مأخذاً مفرداً.

وأما الإيجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما إعجاز، كما يتعلق بالحقائق. والاستعارة والبيان في كل واحد منهما ما لا يضبط حده، ولا يقدر قدره، ولا يمكن التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم، ولا يتطرق إلى غوره بالتسبب، وكل ما يمكن تعلمه، ويتهياً تلقنه، ويمكن تخليصه، ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به، ولذلك قلنا إن السجع مما ليس يلتمس فيه الإعجاز؛ لأن ذلك أمر محدود، وسبيل مورود، ومتى تدرّب الإنسان به واعتماده، لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه. وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذ حدهما، وطلب وجههما، استوفى ما شاء، ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه، كما أولع بذلك أبو تمام والبحثري، وإن كان البحثري أشغف بالمطابق، وأقل طلباً للمجانس.

فإن قال قائل: هلا قلت إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل إليها بالتعلم، ولا تملك بالتعلم، كما ذكرت في البيان وغير ذلك؟ قلنا: لو عمد إلى كتاب الأجناس^(١)، ونظر في كتاب العين^(٢)، لم يتعذر عليه التجنيس الكثير. فأما الإطباق فهو أقرب منه، وليس كذلك البيان، والوجوه

(١) كتاب الأجناس. للأصمعي الأديب اللغوي الناقد. سبق التعريف به.

(٢) كتاب العين. للخليل بن أحمد - النحوي اللغوي المشهور. سبق التعريف به.

التي رأينا الإعجاز فيها، لأنها لا تُستوفى بالتعلم.

فإن قيل: فالبيان قد يتعلم.. قيل: إن الذي يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس، وتتناهى فيه العادات، وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقل وإن الناس يتقاربون في ذلك، فيرمون فيه إلى حد، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده، ولم يمكنهم التخطي، ولم يقدرُوا على التعدي، إلا أن يحصل ما يخرق العادة، وينقض العرف، ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات، على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان، ويتجاوز الوهم، ويشذ عن الصنعة، ويقذفه الطبع في النادر القليل، كالبيت البديع، والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر، والفقرة تتفق في لسان كاتب، حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين، أو قطعة أو قطعيتين^(١)، والأديب شهيد كلمة أو كلمتين، وذلك أمر قليل، ولو كان كلامه كله يطرده على ذلك المسلك، ويستمر على ذلك المنهج، أمكن أن يدعي فيه الإعجاز، ولكنك إن كنت من أهل الصنعة، تعلم قلة الأبيات الشوارد، والكلمات الفرائد، وأمهات القلائد، فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية، وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية، لم تجد ذلك في الدواوين، ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين.

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، ولفظة بديعة، وإنما أنكرنا أن

(١) كُشِنَا مع المؤلف - رَجِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في أن الأديب أو الشاعر قد يأتي بالبيت أو البيتين، والقطعة أو القطعتين من الكلام المعجز الذي يشبه القرآن المجيد. فإن ذلك يبطل كون القرآن معجزًا، ويحقق معارضته بمثله. فإن بيتي الشعر إن كانا بهذه المثابة فقد ثبت بهما التعارض من حيث إنهما في قدر «سورة الكوثر» التي ذهب جمهور العلماء إلى أن التحدي يقع بها أو بقدرها من الآي.

وليس يلزم لإبطال الإعجاز أن يطرده هذا النوع المعجز في كلام الشاعر أو الأديب، بل يكفي أن يصدر منه ما يماثل سورة الكوثر أو قدرها، ولو مرة واحدة ولذلك فإن كلام المؤلف بأن ما يماثل القرآن بلاغة قد يصدر من الشاعر في بيتين، أو من الأديب في قطعة أو قطعيتين. كلام مرفوض لا حظ له من الصواب.

يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها، وأحلنا أن يتمكنوا من حد في البلاغة، ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن، وإن لم يكن له حكم الشعر^(١).

فأما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت، وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال: مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك. فلذلك لم نحكم بإعجازه. وما صح أن تتبين فيه البلاغة، ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس، على أحسن معنى، وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغاً وبلغياً، فإذا تجاوز حد البلاغة، إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة، صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات، وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم، ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر.

فإن قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة، تباين جميع ديوانه في البلاغة، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت، ولا تلك القطعة، في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك، ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة؛ لأنه يتفق من المتأخر فيها. فهلا قلتم: إنه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك وسمت تلك القطعة، وهلا قلتم إن القرآن من هذا الباب؟

(١) أي قد تحقق الأوزان الشعرية في شيء من النص الشريف دون أن يعتبر ذلك شعراً؛ لأن من شروط اعتبار الكلام شعراً أن يكون القائل قد قصد إلى جعله شعراً. وقد سبق الكلام على تلك الشروط. وصورة الشعر التي أشار إليها المؤلف وذكر أنها قد تتحقق في القرآن مثل قوله - تعالى -: ﴿لَنْ نَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِنَّا مُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالجواب أنا لم نجد أحدًا بلغ الحدّ الذي وصفتم في العادة، وهؤلاء الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة، وكذلك أهل الكهانة والبلاغة، مثل قس ابن ساعدة^(١)، وسحبان وائل^(٢)، ومثل شق وسطيح^(٣) وغيرهم، كلامهم معروف عندنا، وموضوع بين أيدينا، لا يخفي علينا في الجملة بلاغة بليغ، ولا خطابة خطيب، ولا براعة شاعر مفلق، ولا كتابة كاتب مدقق. فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة، أو يشاكله في الإعجاز، مع ما وقع من التحدي إليه المدة الطويلة، وتقدم من التفرير والمجازاة الأمد المديد، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الأمر، وعجز الكل عنه، ووقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم وإن جهل قوم سبيه، ويعلمون نقصهم وإن أغفل قوم وجهه^(٤)، رأينا أنه ناقض للعادة، ورأينا أنه خارق للمعروف في الحيلة، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات، وعلى أن من ظهرت عليه، ووقعت موقع الهداية إليه، صادق فيما يدعيه من نبوته، ومحقق في قوله، ومصيب في هديه، قد شهدت له الحجّة البالغة، والكلمة التامة، والبرهان النير، والدليل البين.

* * *

- (١) قس بن ساعدة الأيادي: من أشهر خطباء الجاهلية بلاغة وحكمة.
 (٢) سحبان وائل: من أشهر الخطباء العرب. أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ويضرب به المثل في البلاغة والطلاقة والحكمة.
 (٣) شق وسطيح: من كهان النصارى المشاهير في الجاهلية.
 (٤) قول المؤلف: وإن جهل قوم سبيه وإن أغفل قوم وجهه. يشير بذلك إلى اختلاف المشتغلين بإعجاز القرآن حول أوجه هذا الإعجاز، وحول كنهه. وهو يشير هنا - بوجه أخص - إلى القائلين بالصفرة. ثم يشير إلى فريق يقر بأن القرآن معجز ويؤمن بذلك، لكنهم لا يكلفون أنفسهم مؤنة فهم أوجهه، ولا قفه أسبابه.

فصل

في حقيقة المعجز

معنى قولنا: أن القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه، وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد، وإنما ينفرد الله - تعالى - بالقدرة عليه، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن ذلك حقيقة، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا.

فلما لم يقدر عليه أحد، شبه بما يعجز عنه العاجز^(١)، وإنما لا يقدر العباد على الإتيان بمثله؛ لأنه لو صح أن يقدروا عليه، ولو كان غير خارج عن العادة لأنوا بمثله، وعرضوا عليه من كلام فصحاتهم وبلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك، علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم، وأساليب نظامهم،

(١) كلام عجيب من المؤلف - رحمه الله تعالى - لم أفهم مراده منه، ولا ما يرمي إليه به. فالمؤلف يفرق بين «عدم القدرة» و«العجز» فيقول: إن الخلق لا يقدر على الإتيان بمثل القرآن. لكن لا يصح وصفهم بأنهم عاجزون عنه. ويقول: «بأننا لا نقدر على فعل الأجسام - أي خلقها، وإن لم يصح وصفنا بأننا عاجزون عن ذلك حقيقة». ويقول: «فلما لم يقدر عليه أحد - أي على الإتيان بمثل القرآن - شبه بما يعجز عنه العاجز». ونحن لا نفهم معنى «للعجز» إلا أنه «عدم القدرة» كما لا نفهم معنى «لعدم القدرة» إلا أنه «عجز». وعلى هذا سار علماؤنا في تعريف كل معجزة لنبي بأنها: «أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقاً له مع (عجز) الآخرين عن الإتيان بمثله» ولذلك سميت المعجزة معجزة.

وكانني بالمؤلف أراد أن ينفي العجز حتى يصح التحدي.. باعتبار أن تحدي العاجز فيما هو عاجز عنه تحصيل حاصل، وتكليف بما لا يطاق. لكن هذه فكرة متكلفة، وتحتمل الكثير من التمحيص، ومحل ذلك في مجال آخر خشية الإطالة.

وزالت أطماعهم عنه.

وقد كنا بيننا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر، ووجوه النظم المستحسنة في الأوزان المطربة للسمع، ولا يُحتاج في مثله إلى توقيف، وإنه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا له، واختاروه وطلبوا أنواع الأوزان والقوافي، ثم وقفوا على حسن ذلك، وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل، وهو الذي جمع خواطرهم عليه، وهداهم له، وهياً دواعيهم إليه، ولكنه أقدرهم على حد محدود، وغاية في العرف مضروبة، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزاً، ودل على عظم شأنه، بأنهم قدروا على ما بيننا من التأليف، وعلى ما وصفنا من النظم، من غير توقيف، ولا اقتضاء أثر، ولا تحذُّ إليه، ولا تقريع، فلو كان هذا من ذلك القبيل، أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه، لم تزل أطماعهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أمهلهم، وفسح لهم في الوقت، وكان يدعو إليه سنين كثيرة؟ وقال عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذِكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾^(١). وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي، بان أنه خارج عن عاداتهم، وأنهم لا يقدرون عليه.

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ؛ لأن ذلك طبعهم ولغتهم، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصناعة، والذي ذكرناه يدلُّ على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن، وكل من جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة، لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال، ولو لم يكن جرى في المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزاً لكان يجوز أن تجري عادات^(٢) الأولين، وأخبار

(١) سورة فاطر. بعض آية: ٣٧.

(٢) من هنا يبدأ كلام معاذ قد سبق بنصه في كلام المؤلف تحت عنوان: «فصل في أن نبوة النبي صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن» والكلام المكرر يبدأ بقوله: «الأولين» وينتهي بقوله: «وان اختلف الحال في ذلك» وهو قرابة ستة وثلاثين سطراً.

المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي، فلا يخرج من أن يكون متأولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه من يطله من شبهة سابقة، تقدح في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعد قط أمر يشكك في وجه دلالة وإعجازه، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه^(١). ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾^(٢)، فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده، إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه؛ لأنه ليس من شأنهم، ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه، وَجَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهِ، على ما نبينه في وجه هذا الفصل. إلى أن قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزْلٌ لَكُمْ مِنْ سَمَوَاتٍ مَوْجِدَاتٍ مَحْمُومَاتٍ لَقَدْ أَهْلَاكُمُ اللَّهُ وَأَخَذَ بِكُلِّ شَيْءٍ ظِمْرًا لَثِيمًا﴾^(٣).. والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سرد القول فيها، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه، يجده كذلك. ثم مما يدل على هذا قوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤) أولم يكنهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم^(٤)، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من

= ومحل هذا الكلام هناك وليس هنا؛ لأنه يشير في أثناءه إلى السورتين اللتين شرحهما وبين أوجه البلاغة فيهما. ويقصد بذلك سورة: «غافر» وسورة «فصلت» وإنما شرحهما المؤلف هناك وليس هنا.. وقد أثبتنا الكلام هنا متابعة للأصل المطبوع.. واكفاء منا بأن التنبيه إليه مؤد للعرض.

(١) يقصد بذلك قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : ﴿وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيمٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(٢) سورة فصلت. بعض آية: ٤٤.

(٣) سورة فصلت. الآية: ٥٢.

(٤) سورة العنكبوت. الآيتان: ٥٠، ٥١.

أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم.

ويدل عليه قوله ﷺ: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١)، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختر على قلبك ويمح الله البطل ويحيى الحق يكلمنهم﴾ (٢)، فدل على أنه جعل قلبه مستودعاً لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره، وكان له حكم دلالة على تحقيق الحق، وإبطال الباطل، مع صرفه عنه. ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها، فبان بهذا وبظائر ما قلنا، أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالة على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله - تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها؛ لأن نظمها ليس معجزاً، وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغائبات والغيوب معجزاً. وليس كذلك القرآن؛ لأنه يشار إليها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز. فيمكن أن يستدل به عليه. وحل في هذا من وجه سماع الكلام من القديم - سبحانه؛ لأن موسى ﷺ لما سمع كلامه، علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك من يسمع القرآن، يعلم أنه كلام الله، وإن اختلف الحال في ذلك (٣) عند البشر، بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة، وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة.

وأما نظم القرآن؛ فقد قال أصحابنا: «إن الله - تعالى - يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها». وقال مخالفونا: «إن هذا غير ممتنع؛ لأن فيه من الكلمات الشريفة، الجامعة للمعاني البديعة، وانضاف إلى ذلك حسن الموقع، فيجب أن يكون قد بلغ النهاية؛ لأنه عندهم وإن زاد على ما في العادة، فإن الزائد عليها - وإن تفاوت - فلا بد من أن ينتهي إلى حد لا مزيد عليه.. والذي تقول: إنه

(١) سورة الفرقان. فاتحة السورة.

(٢) سورة الشورى. بعض آية. ٢٤.

(٣) إلى هنا ينتهي الكلام المكرر الذي أشرنا إليه قبل ذلك.

لا يمتنع أن يقال: إنه يقدر الله - تَعَالَى - على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه، مما تصح قدرتهم عليه^(١).

* * *

فصل

في كلام النبي ﷺ وأمر تتصل بالإعجاز

إن قال قائل: إذا كان النبي ﷺ أفصح العرب، وقد قال هذا في حديث مشهور^(٢)، وهو صادق في قوله، فهلا قلتم إن القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره.

قيل: قد علمنا أنه لم يتحدّم إلى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشعاريين وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الإعجاز، وقد بينا قبل هذا أننا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنشور، وبين نَظْم القرآن، تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله ﷻ وكلام الناس. ولا معنى لقول من ادّعى أن كلام النبي ﷺ معجز وإن

(١) خلاصة ما يثيره المؤلف في هذه الفقرة: أن هناك خلافاً بين المتكلمين بعامّة وبين الأشاعرة - قبيل المؤلف - والمعتزلة - الذين قال عنهم المؤلف مخالفتنا - بخاصة. والخلاف قائم حول الجواب على هذا السؤال: هل يقدر الله - تعالى - على أن يجعل القرآن أبلغ مما هو عليه أم لا؟ أو: هل كان الله - تعالى - قادراً على أن ينزل القرآن على صورة أبلغ مما هو عليه أم لا؟ ذهب المؤلف والأشاعرة إلى أن الله - تعالى - كان قادراً على أن ينزل قرآناً أبلغ من هذا الذي أنزل، والمعتزلة عارضوا ذلك ورفضوه.

(٢) يشير إلى الحديث الصحيح الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخْتَمَ بِي النَّبِيُّونَ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -».

كان دون القرآن في الإعجاز.

فإن قيل: لولا أن كلامه معجز لم يشتهبه^(١) على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشتهبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا، ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط. وقد يجوز أن يكون شذوذاً عن مصحفه؛ لأنه نفاه من القرآن، بل عوّل على حفظ الكل إيّاه. على أن الذي يروونه خير واحد لا يسكن إليه في مثل هذا ولا يعمل عليه، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لثلاثين نساء كما يكتب الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه.

وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان - رحمة الله عليهما - ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى. وما لا نجيزه على الحافظ، مما لم نجزه عليه، ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، وهذا أمر يوجب التفكير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعه في المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالإجماع المتقرر، والاتفاق المعروف؟ ويجوز أن يكون الناقل أشبه عليه؛ لأنه خالف في النظم والترتيب، فلم يثبتهما في آخر القرآن، والاختلاف بينهم في موضع الإثبات غير الكلام في الأصل، ألا ترى أنهم قد اختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فمنهم من قال قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾^(٢)، ومنهم من قال: ﴿بِأَيِّهَا أَلْمَدِّثُ ۝﴾^(٣)، ومنهم من قال: فاتحة الكتاب. واختلفوا أيضاً في آخر ما أنزل، فقال ابن عباس: ﴿إِذَا

(١) يبدو أن «لا» زائدة في: لولا. والصحيح: لو أن كلامه معجز لم يشتهبه. إلى آخر الكلام.

وبدون حذف «لا» لا يستقيم الكلام.

(٢) سورة العلق. فاتحة السورة.

(٣) سورة المدثر. فاتحة السورة.

جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴿١﴾، وقالت عائشة: «سورة المائدة»، وقال البراء بن عازب: «آخر ما أنزل: سورة براءة»، وقال سعيد بن جبير: «آخر ما أنزل قوله - تَعَالَى -: ﴿وَأَنْقُضُوا يَوْمَ مَا تَرْجُمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾ «آخر ما أنزل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ﴿٣﴾، ويجوز أن يكون في مثل هذا خلاف، وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع.

ولو كان القرآن من كلامه، لكان البون بين كلامه وبينه، مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل واحد، وكانوا يعارضونه، لأننا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام النبي ﷺ لا يخرج إلى حد الإعجاز، ولا يتفاوت التفاوت الكثير. ولا يخفى كلامه من جنس أوزان كلامهم، وليس كذلك نظم القرآن؛ لأنه خارج من جميع ذلك.

* * *

فإن قيل: لو كان على ما ادَّعَيْتُمْ، لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره. قيل: معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان، تحتاج إلى نظر وتأمل، وفكر وروية واكتساب، وإن كان النظم المختلف الشديد التباين، إذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة، إلا أن كل وزن وقبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكرة والتأمل.

فإن قيل: لو كان معجزاً لم يختلف أهل الملة في وجه إعجازه. قيل: قد يثبت الشيء دليلاً، وإن اختلفوا في وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق. فأما المخالفون فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام الله؛ لأن مذهبهم

(١) سورة النصر. فاتحة السورة.

(٢) سورة البقرة. بعض آية: ٢٨١.

(٣) سورة التوبة. خاتمة السورة.

أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول، أو من قبل الله ﷻ في كونه معجزاً؛ لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله؛ أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة، وكان متعذراً على غيره، لفقد علمه بكيفية النظم. وليس القوم بعاجزين عن الكلام، ولا عن النظم والتأليف.

والمعنى المؤثر عندهم في تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم، وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه. والمفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها، وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر، وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحة وإذا قالوا الشعر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة، وقد ترد في شعر المبتدي والمتأخر في الحدق القطعة الشريفة، والبيت النادر، مما لا يتفق للشاعر المتقدم. والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يعني، ويحتاج معه إلى مادة من الطبع، وتوفيق من الأصل، وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر. وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون، مع العلم بكيفية النظم، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة.

وإذا وجدت للشاعر بيتاً، أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لا يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه؛ لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها، وإن كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى قدرة من العلم، ولسنا نقول: إنه يستغني عن العلم في النظم، بل يكفي علم به في الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة. وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرًا، فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر والعلم حاصل، وكذلك قد يحسن كيفية الخط، ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد. وقد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، وكيفية تصوير الخط، ثم

يتفاوتون في التفصيل، ويختلفون في التصوير، وألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام، وإنما يتعذر وقوع ذلك منا، لأننا لا نعلم الأسباب التي إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام^(١). وقد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزًا لنزوله على هذا الوجه، ومن قبله لم يكن معجزًا وهذا قول أبي هاشم^(٢) وهو ظاهر الخطأ؛ لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، وأنه لم يتعذر عليهم فعل مثله، وإنما تعذر بإنزاله، ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله، وإن كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله، فهو قولنا.

(١) هذا من أضاليل علم الكلام وترهات المتكلمين. وإلا فهل هناك عاقل يقول: بأننا قادرون على إحداث الأجسام وخلقها؟ ثم، ما معنى: إنا لا نعلم الأسباب التي إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام؟

إنه لا شيء يحجزك عن خلق الأجسام إلا أنك لست رب العالمين؛ لأن ذلك خاص به - سبحانه وتعالى - فهو الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

(٢) أبو هاشم هو: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي. المكنى: أبو هاشم. من شيوخ المعتزلة الذين لهم أتباع وآراء بُني عليها مذهب نسب إليه اسمه: «الْبَهْشِيَّة» نسبة إلى أبي هاشم. بلغ مبلغاً من الذكاء والقدرة على الجدل، لكنها كانت وبالاً عليه مالت به إلى الضلال حتى برئ منه شيوخ المعتزلة الآخرون وكفره الجمهور منهم لأمر قال بها. توفي سنة إحدى وعشرين ومئتين.

وهو صاحب الأحوال التي عرفت في تاريخ الفكر باسمه فقيل: «أحوال أبي هاشم» وهي إثباته صفات لا هي موجودة ولا هي معدودة، ولا هي معلومة ولا هي مجهولة. حتى ضرب بها المثل في الضلال والخفاء. وقد جعلها الشاعر إحدى المحالات الثلاثة. حيث قال:

كما يقال ولا حقيقة عنده مفهومه تدنو إلى الأفهام
الحال عند البهشمي والكسب عند الأشعري وطفرة النظام

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بيئنا؛ لأن معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله، وكان ذلك متعذرًا قبل نزوله وبعده.

فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية، فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه، فمنهم من قال: ليس لذلك نهاية كالعدد، فلا يمكن أن يقال: إنه لا يتأتى قول قصيدة إلا وقد قيلت من قبل، ومنهم من قال: إن ما جرت به العادة فله نهاية، وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة، ولا سبيل إلى تجاوزه ولا يقدر، فإن القرآن خرق العادة فزاد عليها^(١).

فصل

إن قيل: هل من شروط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟ قيل لا بد من ذلك، لأننا لو لم نعلم النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن، وظهر ذلك من جهته، لم يمكن أن يستدل به على نبوته.

وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلدًا، وأدعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له، لم تقم الحجة عليهم، حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه. وقد حققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ وظهر من جهته، وجعله علمًا على نبوته، وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا^(٢).

(١) يشير المؤلف قضايا كلامية لا تؤدي إلى شيء يفيد، ولا ثمرة لها، بل إن الحديث فيها تضييع للوقت والجهد فوق ما تثيره من البلبلة التي قد تفضي إلى الحيرة والشك.. وإلا؛ فما علاقة كلام الله المعجز بالتأليف، وهل له نهاية يقف عندها ثم يكون كل كلام بعد ذلك معاد، أم أنه لا نهاية له؟

(٢) وهذا الافتراض هو الآخر كسابقه لا يتصور وقوعه.

فصل

قد ذكرنا في الإبانة عن معجزة القرآن وجيزًا من القول، رجونا أن يكفي، وأملنا أن يقنع، والكلام في أوصافه إن استقصي بعيد الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه وشريف مكانه.

والذي سطرناه في الكتاب، وإن كان موجزًا، وما أملناه فيه وإن كان خفيفًا، فإنه ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة، ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الإسهاب فيه عيبًا، والإكثار في وصفه تقصيرًا، وقد قال الحكيم - سئل عن البليغ متى يكون عيبًا - فقال: متى وصف هوًى أو حبيبًا^(١). وضل

= فإن قيل: المجيد قد علم - ضرورة وتواترًا - أنه المنزل على محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله، وأنه هو الذي ادعى النبوة ونصب القرآن دليلًا على صدقه، ولم يعد الأمر مجهولًا حتى يتصور أن يأخذ أحدًا كائنًا من كان حمقًا وجنونًا شيئًا من القرآن مدعيًا أنه نبي وأن أنزل عليه. وهذه الحقيقة معلومة ومقررة منذ عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث جمعوا القرآن وأذاعه الخليفة الشهيد عثمان بن عفان في الأمصار. ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الافتراض. وبخاصة وأن النبوة ختمت بخاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، فلو جاءنا واحد من الناس ومعه شيء من القرآن مدعيًا أنه نبي وأن هذه معجزته - كما صور ذلك المؤلف - فإننا لسنا بحاجة إلى أن نبحث هل نزل عليه هذا فعلاً أم لا، لأن انقطاع النبوات وختمها بمحمد ﷺ أمر مقرر. فكيف يستقيم - مع ذلك - قول المؤلف: «وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فاتى بها بلدًا وادعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له. لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه». نقول: كيف يستقيم هذا الكلام مع إيماننا بأن النبوات ختمت وأنه لا نبي بعد الخاتم - عليه الصلاة والسلام؟

(١) لأن الحكيم إذا ما أخذ في وصف حبيب يهواه، أو هوًى يحبه، فإنه سوف يخرج على مقتضى حكمته، وينسى سمات وقاره، وينساق مع حبه وهواه فيطنب ويسهب، ويطنل ويكثر. فيخرج عن الحكمة، ويفارق الوقار. وقد قال المؤلف: إن الإسهاب قد يكون عيبًا، والإكثار قد يكون تقصيرًا.

أعرابي في سفر له ليلاً وطلع القمر فاهتدى به، فقال: ما أقول لك؟ أقول: رفعلك الله وقد رفعلك؟ أم أقول: نورك الله وقد نورك؟ أم أقول: جملك الله وقد جملك^(١)؟

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال: أنشدني المتنبى لنفسه القطعة التي يقول فيها:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذنان منه على قدر القرائح والعلوم
وأنشدني الحسن بن عبد الله^(٢) قال: أنشدنا بعض مشايخنا للبحثري:
أهز بالشعر أقواماً ذوي سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا
علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي لهم أن تفهم البقر^(٣)

(١) ما أروع هذا الكلام من المؤلف وأبرعه، فقد وضع المؤلف نفسه مكان الأعرابي، ووضع كلام الله مكان القمر، وجعل القرآن هادياً له من ظلمات الجهالة، كما كان القمر هادياً للأعرابي من ظلمات الليل وضلال الطريق.. ثم انظر إلى جمال الكلمات التي نقلها عن الأعرابي في مناجاته القمر، وأنس الأعرابي والقمر، وتخيل، بل استحضر صورة المؤلف العقلية عندك وهو يناجي كلام الله رب العالمين في نهاية رحلته معه في هذا الكتاب. وهو يقول للقرآن: ما أقول لك؟ أقول: رفعلك الله وقد رفعلك. أم أقول: نورك الله وقد نورك. أم أقول: جملك الله وقد جملك. ويغلب على ظني أن المؤلف ربما اخترع قصة الأعرابي والقمر ليفخذ من خلالها مستأذناً على عتبات الكتاب المبين والذكر الحكيم فيثمة تلك الكلمات التي تشع نوراً وإيماناً، بعد رحلة طويلة في رحابه المقدسة.. وكأنني بالمؤلف يختم بهذه الكلمات كتابه معتذراً عما يكون قد بدا منه من تقصير. أو بدر عنه من سوء فهم... رحم الله المؤلف رحمة واسعة..

(٢) الحسن بن عبد الله: أبو هلال العسكري.. سبق التعريف به.

(٣) هنا يرى المؤلف نفسه من ذوي الفهم السقيم الذين قد يقرأون كتابه هذا فيفهمون منه ما لم يقصد، أو يسندون إليه ما لم يقل. أو يسيئون فهم ما قصد. غير أن استشهاده بالبحثري في وصف قارئه بالبقر. كما وصف البحتري رواة شعره، نقول في ذلك شدة =

فإذا كان نقد الكلام كله صعبًا، وتمييزه شديدًا، والوقوف على اختلاف فنونه متعذرًا، وهذا في كلام الآدمي، فما ظنك بكلام رب العالمين؟

* * *

قد أبتأ لك أن من قَدَّر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا اليسير.

ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر، فهو متطرف. بلى إن كانوا يقولون إن هذه من وجوه البلاغة، وغرر البديع، وأصول اللطيف، وأن ما يجري مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل، ومردود على القاعدة، فهذا قريب.

وقد بينا في نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف، ثم الفوايح والخواتم، والمبادئ والمثاني، والطوالع والمقاطع، والوسائط والفواصل، ثم الكلام في نظم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل، ثم الكلام الموشح والمرصع، والمفصل والمصرع، والمجنس والموشى، والمحلى والمكمل، والمطوق والمتوج، والموزون والخارج عن الوزن، والمعتدل في النظم والمتشابه فيه، ثم الخروج من فصل إلى فصل، ووصل إلى وصل، ومعنى إلى معنى، ومعنى في معنى، والجمع بين المؤلف والمختلف، والمتفق والمتسق، وكثرة التصرف، وسلامة القول في ذلك كله من التعسف، وخروجه عن التعمق والتشدق، وبُعده عن التعلل والتكلف، والألفاظ المفردة. والإبداع في الحروف والأدوات، كالإبداع في المعاني والكلمات، والبسط والقبض، والبناء والنقض، والاختصار والشرح، والتشبيه والوصف، وتمييز

= وجنوح كنا تمنى لو لم يستشهد المؤلف بالبيتين فيأتي بهذا الوصف المسيء. والشطر الثاني من البيت الثاني يروى: وما علي إذا لم تفهم البقر..

الإبداع من الاتباع، كتميز المطبوع عن المصنوع، والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعطل.

وأنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع، أنه على سمت شريف، ومرقب منيف، يههر إذا أخذ في النوع الرئي^(١) والأمر الشرعي، والكلام الإلهي؛ الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه، من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وإعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، وتبويه وتلويع، وإشباع وتصريح، وإشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله ﷻ بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه، وأخبار عن كائنات في التأتئي^(٢) صدقت، وأحاديث عن المؤلف^(٣) تحققت، ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحث على الجميل والإحسان.

تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك، في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير متعاصي على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام، ولا مستكره

(١) نسبة إلى الرب - شُبْحَانَهُ ..

والنسبة إلى الرب - شُبْحَانَهُ - تأتي على «رئي، رئي» بفتح الراء قياساً. وكسرهما سماعاً. حيث ورد في القرآن المجيد النسبة بكسر الراء في قوله - تَعَالَى :: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وتأتي تلك النسبة - أيضاً - على «رئاني» وذلك كما في قوله - ﷻ :: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ بِحُكْمِهَا الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيثِيُونَ وَالْأَجْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

(٢) أي أمور سوف تكون في المستقبل، فيما يأتي من الزمان.

(٣) المؤلف: أي ما يستأنف من زمان. أي المستقبل.. وقد وردت اللفظة هكذا: «المؤلف»

في بعض الطبقات، وهي غير وجيهة.

في اللفظ، ولا متوحّش في المنظر، غريب في الجنس، غير غريب في القبيل، ممتلئ ماءً ونضارة، ولطفًا وعضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر إلى مواقعته كما يمر السهم، ويضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المتناول المثاب، كالروح في البدن، والنور المستطير في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤١) ﴿٤٢﴾ (١).

من توهم أن الشعر يلحق شأوه بأن ضلاله، وصحَّ جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، واثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه. وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلًا، وأقرب مأخذًا، وأسهل مطلبًا، ولذلك قالوا: فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب، كما قالوا: فلان عتي، فأوردوه مورد النقص.

والقرآن كتاب دل على صدق متحملة، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له براهين الأولياء المتقدمين، وبينة على طريقة ما سلف الأولون. تحداهم به إذ كان من جنس القول الذين زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية (٢)، فعرفوا عجزهم.

كما عرف قوم عيسى نقصانهم، فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج، والوصول إلى أعلى مراتب الطب، فجاءهم بما بهرهم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص (٣).

(١) سورة فصلت: الآية:؟.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى القاعدة التي اشتهرت لدى العلماء والتي تقول: «إن معجزة كل نبي إنما تكون من جنس ما برع فيه قومه».. وهي قاعدة رغم ما لها من بريق واشتهار بين العلماء والدارسين، فإنها ليست صحيحة على إطلاقها. وسنبين ذلك - بفضل الله - تعالى - في آخر الفقرة بعد أن ينتهي من تعداد ما يظنه المؤلف تصديقًا لهذه القاعدة.

(٣) يشير إلى ما يعتقد - خطأ - من براعة بني إسرائيل على عهد عيسى عليه السلام في صناعة =

وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم^(١)، وكما سخر لسليمان من الرياح والطير والجن، حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة، وبدائع من اللطف^(٢). ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة^(٣).

= الطب والعلاج من الأمراض. بينما واقع الأمر أنهم كانوا من أكثر الأمم جهلاً بهذا العلم.
 (١) يشير إلى براعة قوم فرعون في فن السحر وعلومه.
 (٢) يتكلف المؤلف ويحمل نفسه عنثاً في البحث عن شيء لدى بني إسرائيل على عهد سليمان عليه السلام يناسب ما ميزه الله - تعالى - واختصه من تملك على الجن والشياطين والريح.
 (٣) أنّ لنا أن نناقش القاعدة التي تقول: «إن معجزة كل نبي هي من نوع أو من جنس ما برع فيه قومه».

وهذه القاعدة لا ينبغي أن تؤخذ على إطلاقها لما يترتب عليها من محاذير. أهمها ما يلي:
 أولاً: أنها تحمل فعل الله - تعالى - مندرجاً تحت جنس أو نوع يشمله وغيره من أفعال تشابهه وتمثله. وذلك منطوق عبارتهم التي تقول: معجزة كل نبي هي من جنس - أو من نوع - ما برع فيه قومه. ومن المعلوم أن فعل الله - سبحانه - لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن ندرجه مع شيء من أفعال الخلق تحت جنس أو نوع يشمل الجميع باعتبارها أفراداً متشابهة يضمها ذلك الجنس أو النوع.

فالمعجزات ليست أفعال الرسل. ولكنها فعل الله - تعالى -، ومن ثم لا ينبغي أن نجعلها فرداً من أفراد جنس أو نوع يوحد بينها وبين أفعال الخلق.

ثانياً: أن معجزات الأنبياء وإن تشابه بعضها - من حيث الظاهر - مع أفعال الأقوام الذين أرسلوا إليهم، فإنها لا تشابه جميعها. فالبراعة في السحر لدى قوم فرعون الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام، ما علاقتها بفلق البحر، وهو معجزته عليه السلام العظيمى. هل كان قومه بارعين في فلق الأنهار أو الترع الصغيرة، فجاء هو عليه السلام ففلق البحر وشقه، وبذلك بان فضله عليهم في هذا الجانب من معجزاته؟ وما علاقة سحرهم - كذلك - بنتق الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه ظلة، وضرب الحجر بالعصا لينبتق منه اثنتا عشرة عينا.

وعيسى عليه السلام الذي زعم - خطأ - أن بني إسرائيل في عهده كانوا بارعين في الطب =

وانظر وفقك الله لما هديناك إليه، وفكر في الذي دللناه عليه. فالحق منهمج

= والعلاج. ما علاقة معجزاته بالطلب؟

هل إحياء الموتى طب؟.. هل النفخ في الطين المصور طائرًا فيصير حيًا ويطير طب؟ هل إبراء الأعمى الذي ولد وليست له عينان، بل حفرتان خاليتان من جسم العين. يضع عيسى عليه السلام يده على مكان عيني الأكمه ثم يدعو فتنبت العينان ويرى بهما هل هذا طب؟ إن معجزته عليه السلام الكبرى هي إحياء الموتى لا صلة لها بالطلب من قريب أو من بعيد، وقد ثبت تاريخيًا أن بني إسرائيل على عهد عيسى عليه السلام كانوا أجهل الناس بالطلب. والتكلف لمعجزات سليمان عليه السلام حيث وهبه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، تكلف واضح ما يحتاج إلى مشقة الرد عليه. إذ التملك على الجن والطير والريح والشياطين والعلم بلغات الحشرات. كل ذلك ما صلته بالحكمة والفلسفة. إن صح أنهم كانوا بارعين في شيء من ذلك ..

ثالثًا: إن أوضح ما يبيني هؤلاء قاعدتهم تلك عليه إنما هو التحدي الذي وقع بين موسى عليه السلام وقوم فرعون السحرة. وما كان بينهما من مباراة، ثم التحدي الذي وقع من القرآن المجيد للعرب أن يأتوا بمثله.

ولكل من هذين حديث.

أما ما وقع بين السحرة وموسى عليه السلام فلم يكن في واقع الأمر مباراة في السحر، كما يحدث بين ساحر وساحر، لأن موسى عليه السلام لم يزعم لهم أنه ساحر، ولكن موسى عليه السلام تحداهم في أن يبطل سحرهم، ويبين عن زيفهم. وهكذا كانت المباراة، والذي قام به موسى ليس سحرًا لأن موسى ليس ساحرًا، ولا فعل ربنا - سبحانه - سحر. فكيف يقال: إن فعل موسى من نوع فعل السحرة؟ إن السحرة نؤموا الناس وسيطروا على عقولهم، وهذا قول الله - تعالى - عنهم: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَجِيبٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وحتى موسى عليه السلام تأثر بسحرهم ووقع تحت تأثيرهم حتى خيل إليه أن جبالهم وعصيمهم تسمى. قال - تعالى -: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبالُهُمْ وَعَصِيمُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ يَسْحَرُهُمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦] ولما ألقى موسى عصاه لفتت ما ألقى السحرة من جبال وعصي. ولم ير الحاضرون جميعًا فرقًا بين فعل موسى وفعل السحرة إلا أن ثعبان موسى أكبر من ثعابين السحرة. لكن الجماعة الوحيدة التي كانت خارج نطاق السحر هم السحرة، وهم الذين أدركوا فورًا أن فعل موسى لا هو سحر ولا هو من قبيل =

واضح، والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا غمًا، ولا يورث إلا ندمًا. قال
 اللَّهُ ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
 الْأَلْبَابِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
 وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٢)، وقال: ﴿يُنزِلُ بِهِ

= السحر، وإنما هو فعل الله، وليس فعل موسى. أدركوا ذلك من دون الموجودين جميعًا
 لأمرين: الأول: أنهم لم يكونوا مسحوري الأعين كالآخرين. الثاني: أنهم أهل الذكر
 وأهل الصنعة في السحر. لذلك لم يخبر القرآن أن أحدًا آمن سواهم. قال - تَعَالَى -:
 ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١٥﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٧﴾﴾
 [الأعراف: ١٢٠ - ١٢٢].

وأما معجزات رسول الله ﷺ فإنها لا تخضع لهذه القاعدة في كافتها إلا
 في القرآن المجيد. فحين الجذع إليه، وتسيح الحصى في يديه، وانشقاق القمر له، ونبع
 الماء من بين أصعابه، والكثير من المعجزات ليس لها صلة بشيء مما برع فيه قومه ﷺ إن
 كانوا بارعين في شيء - وتبقى معجزة القرآن المجيد التي تحداهم بها ربنا أن يأتوا بشيء
 مثلها فمعجزوا، وكانوا بارعين في اللغة وصناعتها.

على أننا نعرف أن أوجه الإعجاز في القرآن المجيد كثيرة، منها الإخبار بالمفاتيح الماضية،
 والمفاتيح المقبلة، والأحكام والشرائع التي تضمن السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة،
 وعدم الاختلاف والتضارب على طوله... إلى آخر هذه الأوجه التي لا صلة للعرب بها
 من قريب أو من بعيد.

وإذن فمعجزات رسول الله ﷺ كثيرة، من بينها معجزة واحدة هي كبراهها، وليست
 جميع وجوه الإعجاز في تلك المعجزة، بل وجه من أوجه عديدة.. أفيجوز مع ذلك أن
 نطلق تلك القاعدة ونعممها في جميع المعجزات، وجنس الآيات لدى جميع الأنبياء
 وبخاصة سيدنا رسول الله ﷺ؟ مع أنها - إن صدقت - ففي وجه واحد من أوجه كثيرة،
 ولمعجزة واحدة من معجزات عديدة؟

(١) سورة الزمر. بعض آية: ٩.

(٢) سورة الشورى. بعض آية: ٥٢.

كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا^(١)، وعلى حسب ما أتى من الفضل، وأعطى من الكمال والعقل، تقع الهداية والتبيين، فإن الأمور تتم بأسبابها، وتحصل بالآنها. ومن سلب التوفيق، وحرم الرشاد والتسديد، فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

فاحمد الله على ما رزقك من الفهم أن فهمت، وقل ربي زدني علماً، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وإن ارتبت فيما بيته فأزدد في تعلم الصنعة، وتقدم في المعرفة، فسيقع بك على الطريق الأرشد، ويقف بك على الوجه الأحمد، فإنك إذا فعلت ذلك أحطت علماً، وتيقنت فهماً.

ولا يوسوس إليك الشيطان، بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية، وأرجح منك في الفصاحة، أقوام وأقوام، ورجال ورجال، فكذبوا وارتابوا؛ لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم: فكانوا بين جاهل وجاحد^(٢)، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات، وحائر عن النظر في الدلالات، وناقص في باب البحث، ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاوي تحت حباله الشيطان، ومقدوف بخذلان الرحمن. وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة. وهلا جعلت يازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري^(٣) في حسن إسلامه،

(١) سورة البقرة. بعض آية: ٢٦.

(٢) الجاهل الذي يكذب عن جهل. وأما الجاحد فهو الذي يعرف الحق ولكنه يكذب به رغم علمه عنادًا واستكبارًا وحقًا.

(٣) لبيد بن ربيعة العامري، ويكنى: أبا عقيل. كان فارسًا شاعرًا شجاعًا. حسن الإسلام. سأله عمر عما أحدث من الشعر في الإسلام فقال: أبدلني الله به البقرة وآل عمران. فزاد في عطائه حتى بلغ ألفين، فلما ولي معاوية قال له: يا أبا عقيل: عطائي وعطاؤك سواء، لا أراني إلا سأحطك. قال: أو تدعني قليلًا ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذه أجمع. - يشير إلى قرب وفاته ..

وكعب بن زهير^(١) في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت^(٢)، وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا.. على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى، من فحول الشعراء في الجاهلية. صاحب البردة. من خبره أن أخاه «بُجَيْرًا» أسلم وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة وحينئذ، فأرسل إليه كعب هذا أبياتاً من الشعر ينهاه فيها عن الإسلام وعن صحبة النبي ﷺ. فلما علم النبي بذلك أوعدته. فأرسل بجير إلى كعب يقول له: ويلك إن النبي قد أوعدك، وقد أوعد رجلاً بمكة فقتلهم، وإنه والله قاتلك أو تأتيه فتسلم. فلما بلغ ذلك كعباً خشي على نفسه القتل، وضاعت عليه الأرض. ثم لما هداه الله - تعالى - إلى الإسلام قدم المدينة متكرراً، فأتى أبا بكر رضي الله عنه، فلما صلوا الصبح أتى به أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وكعب متلثم بعمامة وقال: يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام وبسط كعب يده وحسر عن وجهه. وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك. فأمنه رسول الله ﷺ. فأنشد مدحته للنبي التي يقول فيها:

بانث سعدا فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يشف مكبول
إف أن وصل إلى قوله:	
وقال كل خليل كنت أمله	لا ألفينك إنني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم	فكل ما وعد الرحمن مفعول
كل ابن أنشى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حدياء محمول
نبشت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لسيف يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول

فنظر الرسول ﷺ إلى من عنده... أي: اسمعوا.

ثم كساه النبي ﷺ بردة كان قد اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير، وسمى كعب بن زهير. صاحب البردة، وسميت قصيدته هذه، أو قصيدة أخرى مدح بها الأنصار بالبردة.

وهي التي نهج عليه البوصيري - رحمه الله - قصيدته في مدح النبي ﷺ وسميت نهج البردة.

(٢) حسان بن ثابت رضي الله عنه، الصحابي الجليل، وشاعر الرسول ﷺ.

زاخر.

وقد بينا أنه لا اعتصام إلا بهداية الله، ولا توفيق إلا بنعمة الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فتأمل ما عرفناك في كتابنا، وفرغ له قلبك، واجمع له لبك، ثم اعتصم بالله يهدك، وتوكل عليه يغنك ويجزك، واسترشد به يرشدك. وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل.



تم الجمع والمف بمكتب الرضا للدعاية والإعلان

ت: ٢٣٢٠٢٥٤ (٠٨٢) - محمول ٠١٠١٤٦٠٨٦١

بني سويف . ج م ع

فهرس الموضوعات

- ٥ تصدير
- ٧ تعريف بالباقلاني وإعجاز القرآن
- ٧ اسمه وكنيته، مولده
- ٨ وفاته - مذهبه
- ١١ مؤلفاته:
- ١٧ أشهر من كتبوا في إعجاز القرآن المجيد:
- ١٨ مناقب القاضي أبي بكر الباقلاني:
- ٢٠ فطنته وسرعة بديهته:
- ٢٢ أوجه الإعجاز القرآني
- ٤٣ الباقلاني وكتابه:
- ٤٧ مقدمة المؤلف
- ٥٤ فصل: أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن
- ٧٠ فصل: في الدلالة على أن القرآن معجزة
- ٩٧ فصل: في جملة وجوه إعجاز القرآن
- ١١٨ فصل: في شرح ما بيئا من وجوه إعجاز القرآن
- ١٢١ فصل: في نفي الشعر من القرآن
- ١٢٩ فصل: في نفي السجع من القرآن
- ١٤١ فصل: في ذكر البديع من الكلام
- ١٤١ ١ - الاستعارة:
- ١٤٧ ٢ - التشبيه:
- ١٥٤ ٣ - الغلو:
- ١٥٦ ٤ - المماثلة:
- ١٥٨ ٥ - المطابقة:
- ١٩٢ هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز؟
- ١٩٦ لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع:
- ١٩٨ فصل: في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن
- ٢١٤ خطبة للنبي ﷺ
- ٢١٥ خطبة له ﷺ:
- ٢١٥ خطبة له ﷺ:
- ٢١٦ خطبة له ﷺ في أيام التشريق:

- ٢١٧ خطبته ﷺ يوم فتح مكة:
- ٢١٨ خطبته ﷺ بالخيف:
- ٢١٨ خطبة له ﷺ:
- ٢١٨ كتاب النبي ﷺ إلى ملك فارس:
- ٢١٩ كتاب له ﷺ إلى النجاشي:
- ٢١٩ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية:
- ٢٢٠ الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول
- ٢٢١ خطبة لأبي بكر الصديق ﷺ:
- ٢٢٢ عهد لأبي بكر الصديق إلى عمر رضي الله عنهما:
- ٢٢٥ عهد من عهد عمر ﷺ:
- ٢٢٦ خطبة له ﷺ:
- ٢٢٧ كتابه إلى علي حين حصر رضي الله عنهما:
- ٢٢٩ خطبة أخرى لعلي ﷺ:
- ٢٣٠ كلام لابن عباس ﷺ:
- ٢٣١ خطبة لعبد الله بن مسعود ﷺ:
- ٢٣٢ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ:
- ٢٣٣ خطبة لعمر بن عبد العزيز ﷺ:
- ٢٣٤ خطبة للحجاج بن يوسف:
- ٢٣٤ خطبة لقس بن ساعدة الأيادي
- ٢٣٦ خطبة لأبي طالب:
- ٢٣٧ الفرق الظاهر بين كلام البشر وكلام الله.
- ٣٢٥ فصل
- ٣٢٧ فصل في التحدي
- ٣٢٩ فصل في قدر المعجز من القرآن
- ٣٣٤ فصل في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟
- ٣٣٤ فصل فيما يتعلق به الإعجاز
- ٣٣٦ فصل في وصف وجوه من البلاغة
- ٣٥٥ فصل في حقيقة المعجز
- ٣٥٩ فصل في كلام النبي ﷺ وأمر متصل بالإعجاز
- ٣٦٤ فصل
- ٣٦٥ فصل
- ٣٧٥ فهرس الموضوعات